

المليحة
غفر الله له ولوالديه

دكتور صباح عبيد دراز

كلية اللغة العربية - جامعة الأزهر

أمايب القصر

في
القرآن الكريم
واسرارها البلاغية

الطبعة الأولى

١٩٨٦ - ١٤٠٦ هـ

مطبعة الأفق
٣ شارع جزيرة بدران بشبرا - مصر

المليحة
غفر الله له ولوالديه

الميسرة رفع الحمل

غفر الله له ولوالديه

2009-08-22

www.alukah.net

دكتور صَبَّاحُ عُبَيْدِ دُرَّانُ

كلية اللغة العربية - جامعة الأزهر

أبواب القصر

في

القرآن الكريم

وأسرارها البلاغية

الطبعة الأولى

١٩٨٦ - ١٤٠٦ م

مطبعة الأفانين

٣ شارع جزيرة بدران شبرا - مصر

الميسرة رفع الحمل

غفر الله له ولوالديه

مجلس القضاء
الاستراتيجي
القطري

الجلسة العامة
التي أقيمت في
الرياض، المملكة العربية
السعودية، في يوم
الجمعة الموافق 15/12/2011م

بمشاركة
السادة
القضاة
الاستراتيجيين
القطريين
والسادة
القضاة
الاستراتيجيين
السعوديين

والسادة
القضاة
الاستراتيجيين
الكويتيين
والسادة
القضاة
الاستراتيجيين
البحرينيين

والسادة
القضاة
الاستراتيجيين
العمانيين
والسادة
القضاة
الاستراتيجيين
القطريين

والسادة
القضاة
الاستراتيجيين
السعوديين
والسادة
القضاة
الاستراتيجيين
القطريين

والسادة
القضاة
الاستراتيجيين
القطريين
والسادة
القضاة
الاستراتيجيين
السعوديين

والسادة
القضاة
الاستراتيجيين
القطريين
والسادة
القضاة
الاستراتيجيين
السعوديين

والسادة
القضاة
الاستراتيجيين
القطريين
والسادة
القضاة
الاستراتيجيين
السعوديين

والسادة
القضاة
الاستراتيجيين
القطريين
والسادة
القضاة
الاستراتيجيين
السعوديين

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

المقدمة

الحمد لله رب العالمين نحمده ونستعينه ، ونستهديه ، ونعوذ بالله من شرور أنفسنا وسيئات أعمالنا ، كما نعوذ ، به سبحانه من زلة الفكر ، وغفلة القلب ، وجموح القلم ، ونسأله التوفيق والتهسير والعون فيما نأتى ونذر ، وصلى الله وسلم وبارك على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه ومن اهتدى بهديه وبعد ..

فهذا بحث في أساليب القصر القرآنية ، ضمن بحوث أخرى ، عشت معها زمنا ، وألقيت منها نخبوما على طلاب كلية اللغة العربية بجامعة الأزهر الشريف ، في أسيوط ، ودمهور ، وعلى طلاب الدراسات العليا بكلية اللغة العربية جامعة أم القرى المكرمة .

والمنهج الذى ارتضيته يتسم بالمغامرة والمخاطرة ومع ذلك ندعو اليه دائما لأنه الأمثل فى رأينا وهو يتمثل فيما يأتى :

استقصاء الأساليب القرآنية - فى الغرض الذى يبحث - قدر الطاقة . ثم مراجعة علمائنا فى تحليلاتهم وتعليقاتهم - الطويلة أو الموجزة ، لا لنقل آرائهم ونسج نوب مرقوع منها ، ولا للتبع التاريخي لفكرة ما ، فهذا أمر محدود القيمة ان لم تضاف اليه نظرات فاحصة وانما لمراجعة الراى بالروى والفكرة بالفكرة وهذه الاحتمالات - حين حتما على استطلاع بالحق والاصوب والأبغى من الآراء والأفكار .

والعلماء الذين نعنى كثر كثر وحشد ضخم فمنهم علماء النفس
على اختلاف مناهجهم بدءا بالطبرى الذى تسربت آراؤه الى من بعده
فأضافوا اليها وصاغوها صياغة بلاغية ثم الزمخشري والرازى ،
وأبو حيان والبيضاوى وأبو الخليل والنيسابورى والشهاب الخفاجى
والسيوطى والألوسى وغيرهم ، ولا تحسبن أن من جاء بعد الزمخشري
كان صورة منه أو نسخة منقحة أو عالة عليه . بل كانوا أئمة كبارا لهم
فكرهم وآراؤهم ، حقا انهم أفادوا كثيرا من الكشاف ولكن بقيت لهم
خصائصهم المتميزة وكانت لهم مراجعهم المتنوعة واتجاهاتهم الخاصة
فالرازى مثلا كان من أدكباء العالم ذا نظرة كلية شاملة اهتم بالقضايا
القرآنية وبأسرار التناسب بين الآيات وعقد عديدا من الموازنات واهتم
بمعطيات الآيات والسور وسخر لذلك فكره الموسوعى فكان حكيما تحوي
بلاغيا أصوليا أدبيا ومن عجب أن الذى يقترب من حمى القرآن ويعيش
معه يترق أسلوبيه وتصفوه نظريته ، ويشف حسه حتى وان كان متعمقا
في المعلوم للعقليات أو المباحث اللغوية الجافة . وهكذا كان الرازى مت
(وأبو حيان مثلا كان للزمخشري بالرصاد في آرائه النجوية ، وكثير
من آرائه البلاغية المنبئة على اختلاف النظرة في النحو والاعراب ، وكان
كثير الاعجاب بلبن عطية منتعرا لصاحب الكشاف .
هذان وغيرهما يحتاج بحثهم جهودا مكثفة لبيان خصائصهم
وسماتهم واضافاتهم .
وهناك علماء الأعجاز وعلوم القرآن والتمشابه والمتناظر
والقرآنى .
ومنهم علماء النحو وعلماء البلاغة والنقد وحتى علماء الأصول
الفقه فى تراجمهم عن تجديد الدلالات والصيغ ، وهو جهد مشكور حين
يجمع بينه فى شرن واحد لايماننا بأن علوم العربية والاسلام ، وبخاصة

ما اتصل منه بالقرآن ، كل تعدد جوانبه في توافق لا تتأفر ، ثم أن
 قما اتصل منه بالقرآن ، كل تتعدد جوانبه في توافق لا تتأفر ، ثم أن
 كثيرا من علماء التراث ما كانوا يجسبون أنفسهم في دائرة ضيقة
 تسمى بالتخصص فالزجاج والفراء والزمخشري والرازي وأبو حبلن
 والسهيلي وابن هشام وشهاب الدين القرافي والمرادي وغيرهم لهم
 بحوثهم الطيبة ونظراتهم الناقدة في البلاغة القرآنية وان تتأثر
 كالدرر في تواليهم والباحث الجاد من يتسقطها أو يغوص عليها يثرى
 بها فكرا ويكمل أو يجمل بها رأيا .

أما من عالجوا البلاغة العربية فمنهم أصحاب الاتجاه الأدبي
 وهم الأكثر عددا وبحثا ومثلهم الذين كتبوا في بلاغة القرآن أو متشابهه
 وعلموه .

أما أصحاب الاتجاه المنطقي التحديدي كالرازي في النهاية
 والسكاكي والقزويني وبخاصة مدرسة التلخيص شروحا وجواشي
 وتقاير ففيها لفتات ذهنية ذكية وتوفيقات مشرقة واجتهادات فارعة
 وأخص من ذلك عروس الأفراح ثم حاشية عبد الحكيم والأطول وهي
 تحتاج قدرا من الصابرة لا يستغنى عنه باحث جاد يأخذ منها ما يناسب
 البحث والعصر .

ثم ان استقصاء الأساليب والآراء فيها وعقد موازنات بين
 الأساليب في الغرض الواحد يقفنا أولا على تحديد دلالة الأدوات
 والصيغ وثانيا على أثر المقامات والسياقات في الصياغة واختلافها
 من نسق الى آخر ، وكيف تؤدي الأداة أو الصيغة دورا خاصا في نسق
 معين وقد وجدنا شذرات من ذلك عند علماء المتشابهة كالاسكافي ،
 والكرمانلي الذي خفف أسلوب الاسكافي ومنحه روحا وحسنا ،

والفيروزبادى في البصائر وان اتكأ على الكرمانى كما تناسر ذلك في بعض المؤلفات في الإعجاز والتفسير والبلاغة .

وهذا المنهج ، أخيرا يصحح بعض الأحكام الموهمة قديما وحديثا ، وسوف نجد أن فصل الآيات من سياقاتها ودون استقصاء نظائرها كان وراء بعض الآراء التي لم يكتب لها التوثيق وليس هذا من القدرح في العلماء ، ونعوذ بالله — من أن يكون همنا تسقط الأوهام أو العثرات بل هم كانوا قهريا لا تطاول إنما كان قصارانا تسجيل ما أدت إليه الموازنات إضافة — ان صح النظر — الى صرح شامخ .

ثم ان البحث كان قريبا مما كتبه المعاصرون في البلاغة العربية سواء اتبع المكاتب طريقة السلف في البحث المجدى ، أم صنع — كما يحلو لبعضهم — كتابا من قدح وثلب يظن أنه قنبلة ينسف بها البلاغة العربية وان هى الالعبة يتلهى بها .

كما كان البحث قريبا ممن كتب في البلاغة القرآنية سواء كانت خواطر ترف أم بحثا متكاملا أم أنه كان محاولة فاشلة لتطبيق مفاهيم غريبة على القرآن كهذا الذى أراد أن يطبق بعض مفاهيم الأسلوبية — التى لا يقتنع بها الا جن عبقر — على بعض الأدوات والأساليب في القرآن فجاء بحثه خداجا منزوف القوى نتفكه به مع طلابنا النابهين .

ثم ان من المهم في التأليف البلاغى ، جانب التحليل الفنى والأدبى ، والاقتراب من التصوص وتذوقها واحساس نبضها ورصد ما تشعه من انفعالات ومشاعر في قلب المتلقى وبخاصة في الأساليب القرآنية التى تلتئم فيها الكلمات المتئاما خاصا معجزا يولد في النفس هذه الشخصيات للتأثيرية بل قد يوحى التركيب الخاص للجمل في المقامات المتسورة جبهة المثيرة بحاد المشاعر ، وعميق الأحاسيس حين يؤلف الأسلوب بين المباعذات وينظم بين المتخالفات بل حين يكون الشيء تبعا لخدمه .

— مما سنقاطه كثيرا — في تركيب شديد الوقع لتأزر حروفه وأدواته
وكلماته بايقاع متلائم ودلالات متانقة لتقدم هذا الأعجاز الخارق
القاهر ، وقد يكون هذا التخليط — على ضوء مما سطره العلماء — من
أعظم أهداف الدرس البلاغي ، ارتقاء بالحس الفني والثوق الأدبي
والمسيرة العلمية الواعدة ، والمرء — من عجائب القرآن ووهي
أساليبه — وغرائب دلالاته ولطيف معانيه ، ومديد ظلاله ، وفعجز
تلازمه ، على بعد المواطن والآيات ، في عجب لا ينفى وسفر يستبد
بالمطالقات الانسانية استبداد الشيء الجميل الفائق الجمال بسوى
الحسن الرفيف ، والخيال المشجوب .

ومن عجب — أننا قضينا من عمرنا شطرا في معالجة البلاغة
القرآنية ، ونضرع الى الله أن ييسر لنا فيما بقي من عمرنا — ثم نحس
أن بحوثنا وجهودنا وجمعنا بين ما تفرق من رأى واختلف من فكر كان
في قمة عطائه مجرد وصف مبتسر لموصوف خارق الاعجاز أبدى الجمال
والجلال .

نعم وهذا شيء أحسن بمثله علماؤنا فقد كان العالم منهم يقدم
على بحثه في وفرة نشاط ووقدة حماسة ، وقوة احتشاد ومعان رابية
في قلبه ثم تجده في نهاية بحثه وقد أحس هو أنه وصف ما انطبع على
مرآة قلبه وعقله من شمس القرآن الخالدة وأنه سطر وسعه الكليل
وكانه يحدد قدرته هو وثقافته ولم يقل الا حرفا من حقيقة أبدية ساطية
الجلال ساطعة القهر والجمال فنراهم يؤكدون أن للقرآن وجهها من
الاعجاز هو أثره في النفوس وسيطرته على القلوب واحتواؤه الأرواح
قال ذلك الخطابي والباقلاني وعبد القاهر والغزالي والسكاكي والزرخشى
والسيوطى والرافعى ودراز وسيد قطب نماذج من العالمين الفائقين
حصرا .

ومع كل ذلك نجد أن ما قالته الأجيال الماضية ويقوله الجيل
 الحاضر والأجيال التي تأتي بعدهم المواهب البشرية ويرهف الأحاسيس ويتقفى
 العقول ويرقى بالملكات الفنية ، ويمنح البشرية من عطاءات القران
 الأسلوبية والروحانية ما ينعكس على الأدب خيرا وجمالا وعلى الحياة
 روحا وكمالا .

ونفزع الى الله تعالى أن يجعل قولنا وعملنا وبحوثنا خالصة
 لوجهه وأن ينفع بها وأن يجعلها مما يسيطر في صحائفنا وأن يقال لنا
 كما يقال لبعض الصالحين من عباده « اقرأ وارق ورتل كما كنت ترتل
 في الدنيا فان منزلتك عند آخر آية تقرؤها » والحمد لله رب العالمين .

هذا الكتاب قد تم طبعه في مكة المكرمة في العشرين من رجب سنة ١٤٠٦ هـ
 في المطبعات الخيرية بمكة المكرمة .

والله اعلم بالصواب .

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

الحمد لله رب العالمين وصلى الله وسلم وبارك على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم تسليما كثيرا ونستفتح بالذي هو خير « ربنا عليك توكلنا واليك أنبنا واليك المصير » .

القصر والتوكيد

من الواضح أننا لو رتبنا أساليب التوكيد وأدواته العديدة، ترتيبا تصاعديا حسب قوة التأكيد ، لكان القصر قمة وغاية ، ذلك أنه تأكيد فوق تأكيد ، لأنه يضغط جملتين في جملة فهو تركيز شديد في الأسلوب - كما سيأتى -

ولا يخفى أنه (لا تفاضل بين أساليب التأكيد في البلاغة)، ذلك أن أن النسق أو المقام اذا اقتضى لونا منها ، كان هو البليغ دون سواء ، وان تفاوت قوة . وعلاقة القصر بالتأكيد تتيح لنا أن نلقى نظرة واجزة على قصة التأكيد ، وانها لغربية مثيرة ، بدأت منذ نجم للاسلام خصوم من الملاحدة في فجر الفكر الاسلامى ، ثم تلونت في العصر الحديث لتكون متكئا في الهجوم على البلاغة العربية ، ومحاولة طمسها .

ومادة التوكيد لغة تدل على الشد والاحكام ، والتوشيق ، فالتوكيد يطلق على السير الذى يشد به الفرس ، والوكاد اصل يشد به البقر عند الحلب ، ويقال : وكده وكده : اذا قصد قصده ، وتخلق بخلقه (١)

(١) راجع مقاييس اللغة ٦/١٢٩ ومفردات الراغب ٥٢ .

وجاءت المادة مرة في القرآن الكريم ، في قول الله تعالى « وأوفوا
بعهد الله اذا عاهدتم ، ولا تنتقصوا الأيمان بعد توكيدها » (٢) أى بعد
توثيقها باسم الله (٣) .

وللتأكيد أدواته التى تصل عشرين ، ومنه التوكيد الصناعى ، أو
اللفظى ، يد ، المعنوى ، والتكرار ، والقسم ، والقصر (٤) .

أما حروف الرصلة التى نقلت من معانيها لمقنيد توكيد بما سميقت
فيه ، ففى زيادتها وافادتها التأكيد خلاف قديم حديث (٥)

ولأنه من نسج اللغة العربية ، ومن طرق أدائها . منذ كانت ،
نزل القرآن الكريم بلسانهم وعلى مناهج القول العربية وقد كثر فيه
التوكيد .

ولقد اعترض بعض الملاحدة قديما ، ووجهوا للقرآن طعونا بما
فيه من التأكيد مدعين أن التأكيد ينافى الإيجاز ، وقد تصدى لهم أئمة
كبار لم يكفوا بدحض الشبهات بل بينوا للتأكيد قدرا من أسراره الفنية
البعالية كابن قتيبة ، والخطابى ، وأبى هلال (٦) ثم تتابعت المسيرة
فكانت دراسات عبد القاهر وابن الأثير والعلوى وابن أبى الأصم
وكثير من علماء الاعجاز والبديع .

(٢) الآية ٩٣ النحل .

(٣) الكشف ٤٢٥/٢ .

(٤) راجع الاتقان ٢١١/٣ وما بعدها .

(٥) راجع فى القول بالزيادة ما كتبه د. عبد الرحمن تاج فى مجلة

مجلة اللغة العربية العدد ٢٦ ص ٢٥ والاعداد التالية وفى نهى الزيادة :

لللسان ١٨/١٨ ، وأيضاً العظيم ١٤٦ .

(٦) راجع مثلا : تاويل مشكل القرآن ١٨٢ وما بعدها . وبيان

القرآن للخطابى ٤٨ وما بعدها والبرهان للزركشى ٢/٢٨٥ وللصناعتين
للمسكى ٢٩٣ وما بعدها .

وهذا التأكيد لم يفهم عند القدماء على أنه وسيلة الحجّة ، وسبيل الإقناع ، ومركز المنطق ، وسند العقل وحده ، كما يخلو لبعض الناقمين على البلاغة أن يفهم ذلك .

بل إن التأكيد أطلق وضعاً ، واصطلاحاً على ما قرب مأخذه ، وسهل منزعه ، ويكثر أن يجيء في مواقف الانفعال والتأثر الوجداني متداخلة مع المواقف العقلية في أساليبه القرآنية وتأمل على سبيل المثل قول الله تعالى : « يا أيها الناس اتقوا ربكم إن زلزلة الساعة شيء عظيم » (٧) . نجد التأكيد يلبي مطلباً نفسياً وعقائياً ، ويؤكد جدتها رهيباً يصدع القلوب .

قال الامام الرازي وهو أكثر المفسرين إغراقاً في العلوم العقائية « أمر سبحانه بالتقوى ثم علل وجوبها عليهم بذكر الساعة ووصفها بأهل صفة » (٨) .

وقال تعالى « وقال الذين كفروا إن هذا الا افك افتراه ، وأعانه عليه قوم آخرون » (٩) .

فليس هنا حجة عقل بل فورة نفوس مواراة بالغليظ والحنق والضيق والقلق .

هذا ما أراده العلماء حين جعلوا كثيراً من ألوان البلاغة تفيده التأكيد مع ما تفيده من أسرار ومعطيات فنية كألوان الاطناب من تذييل وتكميل وإيغال ، وغيرها وتأكيد المدح بما يشبه الذم وعكسه ، والطباق ، والالتفات ، وكذلك علم البيان بكل فروعه ، وأكثر من حلل ذلك بعمق واقتدار الامام عبيد القاهر في كتابه أسرار البلاغة الذي يعد وثيقة نفسية وفنية في تحليل الأساليب والمواقف باعتراف كبار نقادنا

(٨) مفاتيح الغيب ج ٤٣ ص ٠

(٧) الحج آية ١

(٩) الفرقان آية ٤

المعاصرين ، وقد يطول بعض المؤلفين من العرب أن يهاجموا البلاغة بحجة أن أصحاب المعاني في البلاغة جعلوا البيان مجرد ابلاغ المعاني قوية لتصل الى الاقناع العقلي ، ويرى بعضهم أن البلاغة نشأت في ظل سيادة المنطق (١٠) على التفكير العلمي ، ولذلك فإن أهم عنصر في ظروف القول هو الحالة العقلية للمخاطب « غالبا » وهذا قول عار من الدقة — كما سبق —

صحيح أن فكرة التأكيد ارتبطت في بعض اتجاهاتها بالخطابة والجدل وبخاصة في عهد بني أمية حين كثرت الفرق السياسية والدينية كما يتضح في مؤلفات الجاحظ وابن قتيبة (١١) .

هذا صحيح وليس هو كل الحق ، ذلك أن التأليف البلاغي بدءا فكان لمحاولة الاقتراب من أسرار الاعجاز القرآني التي أدركها العرب في القرن الأول فطرة وسليقة ، بعد أن دخل الاسلام أمم وشعوب غير عربية ، تمازجت مع العرب الذين تسرب اللحن الى بعضهم ، وبدأت حركة التدوين والتأليف الواسعة تعليما وهفاظا على علوم الاسلام والعربية ، ولذا كان الاهتمام بالشعر الجاهلي حتى تدرك حجة الله في الاعجاز . وقد حاول العلماء الاجابة عن كثير من التساؤلات وكان ذلك مدخلا لمعالجة متكاملة للقرآن الكريم منها ما ألف في مجازه بمعناه الواسع ومعانيه عند أبي عبيدة والزجاج والقراء ، ومنها ما استقل بالبحث في بلاغته ورد الظعون عليه كبحوث ابن قتيبة والزماني والخطابي والباقلاني ، كما واكب هذا الاتجاه ، التأليف في البلاغة العربية كسفا لخصائصها الفنية ، وان تداخلت مع بلاغة القرآن استشهادا وتحليلا كملاحظات الجاحظ وابن المعتز .

(١٠) راجع الصورة الفنية د. جابر عصفور ١٠٨ ، والاسلوب

د. شكري عياد ٤٧ ، د. شوقي ضيف ١٤ ، ١٥ .

(١١) راجع البلاغة تطور وتاريخ د. شوقي ضيف ١٤ ، ١٥ .

كان التأليف إذن يشبع متطلبات العصر بحثاً بحثاً خالصاً عن قيم الجمال أو أسباب الحسن . في الأسطليب ، وهو المنهج اللغوي ، أو بحثاً مستعينا في بعض جوانبه بوسائل الفكر والبرهان حين تقتضى الحال ، عند بعض العلماء من المعتزلة وأهل السنة .

ويذكر بعض المعاصرين أن تنوع البعثات الثقافية والطبيعية بعد انتشار الاسلام أعان على وجود مذهب المشاركة من علماء حوارزم مؤيدا بالدراسة الفلسفية والعقلية في التراث الفارسي ، ثم رد الفعل الذي أوجده طعيان المدرسة الشكلية عند أمثال قدامة بن جعفر ، وقد ظهر أمثال الزمخشري والمطرزي ، والسكاكي والتتوخي (١٢) . ومن الممكن التحفظ بالنسبة للزمخشري والتتوخي فالأول مع اعتزاله وعميق فكره كان أماما في الأدب والتفسير والحديث أدبيا متفننا ولذا كان تفسيره الكشاف تفسيرا بيانيا راقيا وقد اعتمد على آرائه الابداعية في التحليل البلاغي من جاء بعده لم يخالفوا عن آرائه الا قليلا كابي حيان وابي السعود والبيضاوي والشهاب الخفاجي وغيرهم (١٣) كما أن التتوخي اذا استبعدنا من كتابه « بحث الأدوات بحثا نحويا يبقى الكتاب سهل المأخذ واضح العبارة أدبي الاتجاه ولذا عدده بعض المقتدلين من المدرسة الأدبية (١٤) .

ومع أن ازدهار العلوم العقلية وسيطرة الاستدلال والمنطق على البلاغة ، مناسب تماما لهذه البيئة طبيعة وثقافة — كما أكد أكثر من

(١٢) راجع : قضايا النقد د. زكي المشاوي ٢٦٧ وموضيعة للدين بن

الأنبار د. زغلول سلام ٣١٣ .

(١٣) راجع في ذلك : منهج الزمخشري د. الصاوي الجوزي .

والبلاغة القرآنية د. محمد أبو موسى .

(١٤) راجع : البلاغة عند السكاكي د. أحمد مطوب . (١٢)

باحث - نجد أن مدرسة السككي سخطها بعض المشاهيرين كالأوزار
البلاغة ، بمعنى أنهم أصبحوا أحكاما عامة على البلاغة الغربية من خلال
هذه المدرسة ، وكأنها كل الاتجاهات البلاغية في العالم الإسلامي .

نعم انهم يهتمون البلاغة بأنها بلاغة مخاطب ، وتأكيد ومنطق ،
واغفال للوجدان ، وإهمال للصورة ، والاحاسيس وما يعبره التمايز
من لذة أو ألم ، وكذلك الصوت والمثل ولايحاء .

وهذا كله زعم باطل ، وحكم مبنون ناقص ، ذلك أن من علماء
العرفان رجلا كبارا كالجاحظ ، والرمانى والخطائى والأمدى
وعبد القاهر ، وابن الأثير الذين عالجوا الأدب على أنه ليس نتاج
العقل وحده بقدر ما هو امتاع وإثارة لكائن الانفعالات ، مع ما انفرد
به عبد القاهر من التوحيد بين فلسفة اللغة وفلسفة الفن ، وقصائده
كما يقول الدكتور الحماوى - على ثنائية اللفظ والمعنى ، والفصل
بين التعبير المادى ، والتعبير المرخوف ، بجعله النظم منبعا للجمال
الفنى (١٥) .

كما أن البحث في الحروف وأصواتها واللفظ وتلاوته تتناولها
ابن جنى والسهلى والخفاجى فى « سر القمصحة » وابن الأثير
والسيوطى وحتى السبكى فى عروس الأفراح شارحا للتخخيص .
ثم إن كثير من علماء مصر والشام (١٦) والحجاز كابن حجر

(١٥) راجع : المنيرة الطيلة ٣٥٥ ، وغياة الغرين ٢٢٧ ، وفى النقد
الأدبى د . شوقى ضيف ١٦٦ والنقد الأدبى سيد قطب ٢٢ ، وقضايا النقد
٢٣٤٠٢

(١٦) راجع : ضياء الدين بن الأثير : د . سلام ٢٢٧ .

النهضوى، وياينج أبين الأصعب، وابن مصلحوم المدفق الذين التحفوا الفرس
البياني والبديعى مذهبا فنيا له مقاييسه الجمالية التي تعتمد القوي ودقة
الاحساس، وسطوع الفكر، دون تعقيد المنطق، مع الرقة،
والصفاء والسهولة (١٦) .

وقد عاشت المدوستان أود المذهبين مذهبه المشرقة من خمسين
المفاجح وشروح القزويني والمذهب الأدبي الذي تعلمه في عموه والتمام
جنبه التي جنبه يمثلان مناهج بحثية تتعلين في ود ولا تتلفر حفسرية
رأى وفكر ثبتها الاسلام من قديم .

ونكر أن الأصوات التي ألفناها نائرة على أفكار جزئية في مذهب
المشاركة لو أحسنت قراءة التراث، وهو كل متعظم يضم علوم البلاغة
والأعجاز والتفسير والنقد والأدب وعلوم اللغة وحتى أصول الفقه
في بعض مباحثه، لو فعلوا ذلك — لراجعوا أنفسهم، ورجعوا عن
مقولاتهم ولوجدوا في التراث ما يجيب على كثير من شبهاتهم، وينتظر
منهم دفع المسيرة العلمية الواعدة .

والثير أن أحدهم لو أراد أن يتقدم خطوة في عكس ما يتقن من
نقد وثلب واستعلاء فارغ، وفهم شائه لبعض مقولات الغربيين التي
يستغرق فهم أدابهم ومذاهبهم النقدية الضاربة في أعماق تراثهم اليوناني
الوثني — عمرا بأكمله — ثم لا يكاد يفيد، لو أراد أن يعالج قضية
بلاغية من خلال الآيات القرآنية لرأيت عجا وتهافتا وبقرا علميا حادا،
ويعض ما كتبوه يتفكه به طلابنا النابهون .

كما ننبه الى أن جيل الرواد، وإن كان ذا تيارات تصل الى حيد
التعارض البين أحيانا . بدأ يقوى الآن أثر هذا الاتجاه الذي كان شديدا
الولاء للغة الشاعرة عند الرافعي والعقاد ومحمود شاعر وغيرهم، وقد

دلالة القصر

وردت مادة « قصر » في القرآن الكريم احدى عشرة مرة لأكثر من جذر منها : القصر بمعنى الكف كقوله تعالى « واخوانهم يمدونهم في الغي ثم لا يقصرون » (١) وقريب منه القصر بمعنى الأخذ من الطول ، كقوله تعالى « فليس عليكم جناح أن تقصروا من الصلاة » (٢) وبمعنى الحبس كقوله تعالى « وعندهم قاصرات الطرف عين » (٣) ، وجاءت بمعنى ما عظم من أصول النخل أو الشجر في قوله تعالى في صفة جهنم « انها ترمى بشرر كالقصر » (٤) كما جاءت بمعنى البيت الضخم الفخم كقوله تعالى « وبئر معطلة وقصر مشيد » (٥) .

وقد زاربت المعاجم اللغوية بعض المعاني للمادة ، كالقصرة : ما يبقى في المنخل بعد الانتخال ، وقصر الثوب : حوره ودقه ، وقصر المجد : معدنه ، وقصر الطعام : نقص ورخص : ضد (٦) وعلى هذا فجذور المادة لا تنحصر فيما ذكره ابن فارس في أصليين : أحدهما : ألا يبلغ الشيء مداه ، ونهايته ، والآخر : الحبس . وقد أحس بذلك القصور فقال : ومما شذ عن هذا الباب القصر : جمعه قصره ، وهى أصل العنق ، وأصل الشجرة ، وقرى : انها ترمى بشجر كلقصر بفتحين (٧) ، وقال الفراء في هذه الآية : يريد القصر من قصور ميام

- (١) الآية ٢ - ٢ الأعراف .
 (٢) الآية ٣١ النساء .
 (٣) الآية ٤٨ الصافات .
 (٤) الآية ٣٢ الأعراف .
 (٥) الآية ٤٥ الحج .
 (٦) لسان العرب ج ٥ والقاموس المحيط ج ٢ .
 (٧) مقاييس اللغة ٩٨/٥ .

(٢ - القصر)

العرب وتوحيده وجمعه عربياً ، وقال ابن منظور انها قرشية ، لأنه تقصر فيه الحرم أى تحبس . وكذلك الفيروزبادى فى البصائر (٨) .

ورأى الفراء وابن منظور والفيروزبادى - وغيرهم - عربية الكلمة ، يرد على ما ارتآه الدكتور عمر فروخ من أن القصر وهو بناء كبير من حجارة كالقلعة من الكلمة اللاتينية *Castra* انتقل إلى العربية منذ الجاهلية ، (٩) ذلك أن القصر المنزل المبنى من الحجارة مطلقاً عربى ، وبخاصة أنه قد عرف عندهم بناء البيوت من الحجارة والجبال كما فى قصة صالح « وتحتون الجبال بيوتا (١٠) » على أن القلعة وهى الحصن الممتنع فى الجبل وجمعها قلاع وقلوع عربية « (١١) » .

وقد تتوارد اللغات على لفظ واحد ، بمدلول متقارب ، ثم ان من كتبوا فى معرب القرآن ومنهم من كان متساهلاً فى عدد كثير من الألفاظ العربية معربة لكثرة نقوله كالمسيوطى لم يذكر أن هذه الكلمة قصر أعجمية (١٢) وليس فى المادة الا كلمة قيصر معربة ولا علاقة لها بدلالة المادة وأصلها .

ويبقى هنا أن تعريف البلاغيين للقصر بأنه لغة الحبس ، انما هو تعريف اللفظ بأشهر معانيه وقد يعبرون عن القصر بأنه عديم الجاوزة إلى الغير (١٣) ، وقد دقق صاحب الأطول حين قال لا يبعد

(٨) ٢٧٤/٤ .

(٩) مجلة مجمع اللغة العربية القاهرة ج ٢٥ ص ٦٦ .

(١٠) راجع تفسير أبى السعود ٢/٢٤٣ .

(١١) المعجم الوسيط ٢/٧٦١ .

(١٢) راجع الاتقان ١/١٣٧ .

(١٣) راجع هواهب الفتاح لليعقوبى وحاشية السموقى ٢/١٦٦ .

أن يكون النقل من القصر بمعنى اختلاط الظلام لأن في القصر الاصطلاحى اختلاط الحكم الايجابى بالسلبى (١٤) ، وهذا بعيد لأن من وضع هذا الاصطلاح ام يقصد هذا التعمق البعيد .

والقصر والحصر والاختصاص دلالاتها متقاربة على هذه الأساليب ومع أن بهاء الدين السبكي نقل عن والده تقى الدين . تفرقت بين الاختصاص وبين القصر والحصر بأن الأول عام يشمل أساليب القصر الاصطلاحى وغيره ومثل قولنا اختص زيد بالقيام نجسد أن العرف البلاغى سوى بين هذه الاصطلاحات .

القصر ومنابعه

احتفظت كتب التراث قبل الامام عبد القاهر باشارات وشذرات حول القصر لعل أقدمها قول سيبويه م ١٨٠ هـ في نحو ما أتاني زيد ، لتكون : ما أتاني الا زيد ، ومثله حالتا النصب والجر « دخلت الا لتوجب الأفعال لهذه الأسماء ، ولتنفى ما سواها ، فصارت هذه الأسماء مستثناه » (١) .

ونقل ابن فارس عن الفراء أن انما والنفى والاستثناء لا يأتیان أول الكلام بل لرد كلام سابق ، وينص على أن المثبت أو المقصور عليه هو المؤخر بعد انما ، ولذا يختلف المعنى بين انما قمت وقام أنا ، ويرد الفراء خطأ شاع من أن انما للتحقير اذ جاء في القرآن الكريم انما الله اله واحد فأين التحقير هاهنا » (٢) .

وينقل الزركشى عن الرماني في تفسيره : معنى الا : اللانزم لها الاختصاص بالشيء دون غيره ، فاذا قلت جاءني القوم الا زيدا ، فقد اقتصت زيدا بأنه لم يجيء ، واذا قلت ما جاءني الا زيد فقد اقتصته بالمجيء ، واذا قلت ما جاءني زيد الا راكبا فقد اقتصته بهذه الحالة دون غيرها من المشى والعدو ونحوه » (٣) .

ومن هذه الملاحظات القيمة ما سجله أبو على الفارسي في الشيرازيات وتناقله العلماء في مؤلفاتهم كعبد القاهر وابن هشام من أن العرب عاملوا انما معاملة النفي والاستثناء ولذا فصل الضمير في قول الفرزدق وانما يدافع عن أحسابهم أنا أو مثلى .

(١) الكتاب ٣١٠/٢ .

(٢) انظر : الصاحبى ١٨٢ - ١٨٣ .

(٣) انظر البرهان ٢٤١/٤ والاتقان ١٩٠/٢ .

وقال الزجاج في قوله تعالى « انما حرم عليكم الميتة : ان المعنى :
 ما حرم عليكم الا الميتة لأن انما تأتي اثباتا لما يذكر بعدها ونفيًا
 لما سواه (٤) » .

ولا شك أن هذه اشارات لا تقاس بما قدمه عبد القاهر من
 خصائص التعبير في القصر ودلالة الأدوات والطرق ، ودقائقها ، فقد
 شيد بعقله الفذ ونظراته النافذة وموهبته الأدبية ما أطلق عليه بعد
 أسلوب القصر ، وفتح الباب لمن بعده أن يكملوا الصرح ، وليس من
 وكندا أن نوزع الاتهامات لعلماء كبار فنقول ان الامام لم يحلل كثيرا
 من الشواهد القرآنية ، وام يوازن بين الأساليب المتشابهة وأنه اعتمد
 على عديد من الأمثلة المصنوعة مسجلا انطباعاته الخاصة التي تختلف
 فيها الأعراف والفهوم والبيئات بل نقول ان ما خطه يراعه في القرن
 الخامس الهجري سبق به زمانه وجعله درة في جيد التاريخ » .

تفسيرات بلاغية

عرفوا القصر بأنه تخصيص شيء بشيء بطريق مخصوص :
 ونقل في الأطول عن بعضهم « جعل بعض أجزاء الكلام مخصوصا
 ببعض بحيث لا يتجاوزه ، ولا يكون انتسابه الا اليه بطريق
 مخصوص » (٥) .

فالقصر قد يكون في الجملة الواحدة ، بين المسند والمبيند اليه
 نحو قوله تعالى « وما محمد الا رسول » (٦) ويكون وصفا لانسبة
 الاسنادية وقد يكون بين متعلق وأحد جزأى الجملة كقوله تعالى

(٤) انظر الدلائل ٢٢٨ والمعنى ٣٠٩/١ .

(٥) راجع شروح التلخيص ١٦٦/٢ والأطول للعصام ٢١٣/١ .

(٦) الآية ٤٤ آل عمران .

« وما خلقنا السموات والأرض وما بينهما إلا بالحق » (٧) ويكون وصفا للنسبة التعليلية . وقد يكون هذا المتعلق على هيئة جملة أو جمل لها محل من الأعراب كقوله تعالى « فوسوس لهما الشيطان ليبدى لهما ما وورى عنهما من سوءاتهما ، وقال ما نهاكما ربكما عن هذه الشجرة إلا أن تكونا ملكين ، أو تكونا من الخالدين » (٨) .

ولا شك أن القصر يطرأ على الأسلوب ، بطرقه وأدواته فيحدث فيه خصوصيات ومزايا تتلاءم والحال التي اقتضت طريقا خاصا وصياغة معينة (٩) .

ولما كان الكلام اما ذاتا أو معنى ، موصوفا أو صفة ، قسم البلاغيون القصر من حيث الطرفان : الى قصر موصوف على صفة وقصر صفة على موصوف .

فقوله تعالى « انما الله اله واحد » (١٠) قصر للذات المقدسة على صفتى الألوهية والوحدانية في مقام استحقاقه تعالى وحده للعباده . بمعنى اثبات هذين الوصفين له سبحانه ، ونفى أن يكون له شريك أو مكافئ أو ولد أو أنه متعدد وقوله تعالى « لا اله الا أنا فاعبدنى » (١١) . قصر صفة الألوهية على ضمير المتكلم جل وعلا ، ونفيها عما سواه .

١/ ولا ○ وعلى هذا فالقصر — كما عبر السبكي — ينتظم حكيمين في وقت واحد ، اثبات الحكم للمذكور ونفيه عن غيره (١٢) ، فكان جملة القصر

(٧) الآية ٨٥ الحجر .

(٨) الأعراف ٢٠ .

(٩) راجع تقرير الامنابى ٧٢/٣ .

(١٠) الآية ١٦ طه .

(١١) الآية ١٧٨ النساء .

(١٢) عروس الأفراح ١٦٦/٢ .

تتحل — في المعنى — الى جملتين وتغني غناءهما في المعنى العام وقوله سيد شريف « ما بعد الا من حيث المعنى جملة مستأنفة غير الجملة الأولى لأن قولك ما جاءني الا زيد بمعنى ما جاءني غير زيد ، وجاءني زيد ، فاختصر الكلام ، وجعلت الجملتان واحدة » (١٣) .

وهذا من حيث المعنى ، ذلك أن الأسلوب الذي يشتمل على القصر — كما نال عبد الحكيم — فيه حكم واحد يتضمن الإثبات القصدى ، والنفي التبعي ، وليس المقصود افادة حكمين من جملتي اللفظ (١٤) ويؤكد أنه شهادة التوحيد فيها الإثبات قصداً وان انبنى على نفي لكل ما سوى المقصور عليه ، لا ما يراه المرحوم الدكتور ابراهيم أنيس من أن أسلوب النفي والاستثناء أسلوب نفي ، وأسلوب انما اثبات (١٥) .

وتداخل النفي والاثبات في القصر يجعله مركزاً مخطوماً ، ذا اشعاع وظلال ، وقوة حسم لأنه توكيد فوق توكيد (١٦) وبخاصة انما داخله لون بياني بالمعنى العام وهذا ما يغلب على الأسلوب القرآني .

ثم انهم قسموا القصر من حيث المنفى الى حقيقي واضافي ، فاذ كان عاما شاملا في الواقع الخارجى أو في نفس الملقى فهو حقيقي كقوله تعالى — على لسان يونس عليه السلام — « لا اله الا أنت سبحانك » (١٦) وان كان المنفى خاصا فهو اضافي كقوله تعالى « قل إنما أنا نذير » (١٨) قال الأوسى : يعنى : لا سلاح ولا كتاب » (١٩)

(١٣) حاشية السيد على شرح الكافية للرضي ٢٢٦/١ .

(١٤) حاشية عبد الحكيم ٣٠٣ .

(١٥) انظر من أسرار اللفظة ١٩٢ وما بعدها .

(١٦) انظر عبد الحكيم ٣٠٤ .

(١٧) الآية ٨٧ الأنبياء .

(١٩) روح المعاني ٢١٦/٢٣ .

(١٨) الآية ٦٥ ص .

الصفة والموصوف

معنى الصفة هنا : المعنى القائم بالغير ، وليس الصفة النحوية ، لأنه لا يفصل بينهما وبين موصوفها ، ولذا لا يدخلها القصر بالاجماع اذا كانت مفردة وعلى الأرجح اذا كانت جملة - كما سيأتى فى الحال - ومثلها : التوكيد والمؤكد والمفعول معه ، والمصدر المؤكد ، أما قوله تعالى على لسان منكرى البعث : « ان نظن الا ظنا » فقد حمل السكاكى التنوين فيه على التنوين أى ظنا ضعيفا ، وهذا أولى من تقدير وصف محذوف كما نقل أبو حيان (١) .

وهذا الوصف أو المعنى قد يكون خبرا أو حالا أو تمييزا ، أو فعلا أو جملة أو جملا متعاطفة أو جامدا فى تأويل المشتق ، كقوله تعالى « والذين يظاهرون منكم من نسائهم ما هن أمهاتهم ، ان أمهاتهم الا اللاتى ولدنهم » (٢) . وقال تعالى حكاية عن منكرى البعث « وقالوا ما هى الاحياتنا الدنيا » (٣) وقولك ما بكر الا أخوك : بتأويل الكون أى كونه أخاك . ذلك أن الخبر وصف للمبتدأ فى المعنى ، ولو تأويلا .

والموصوف ما قام بنفسه ، سواء كان ذاتا حقيقة ، أو معنى موصوفا كوصف الحركة بالشدة ، أو السرعة أو البطء . (٤)

فاذا كان الطرفان موصوفين أول الثانى بالصفة ، كما تقدم ، وإذا كانا وصفين كقوله تعالى : « وما يعدم الشيطان الا غورا » (٥) ،

(١) راجع المفتاح ١٩٣ والبحر ٥١/٨ .

(٢) الأحقاف ٢٤ .

(٣) النساء ١٢٠ .

(٤) المجادلة ٢ .

(٥) الإمبابي ٤٠/٣ .

وقوله سبحانه عن ريح ثمود « ما تذر من شيء أتت عليه الا جعلته كالرميم » (٦) أول الثاني بالموصوف فهو من قصر الصفة على الموصوف •

غير أنه لوحظ في القرآن أن الطرفين اذا كانا جامدين صحب المقصور عليه وصف كاشف أو اضافة مبينة ونحو ذلك كقوله تعالى « وقالوا ما هذا الا رجل يريد أن يصدكم عما كان يعبد آباؤكم ، وقالوا ما هذا الا افك مفترى ، وقال الذين كفروا للحق لما جاءهم ان هذا الا سحر مبين » (٧) •

وكثيرا ما يقع الفعل ومتعلقاته أو الفعل وملحقاته جملة أو أكثر بعد الا ، ويؤوله العلماء بمفرد له موقع اعرابي لارتباط الفكرة بالنسق والتراكيب النحوية قال ابن هشام : فيما نقله الشهاب : اذا وقع بعد الا فعل تصيد له من لفظه اسم يكون هو المستثنى في المعنى فـقال سيبويه مصدر ، وقال المبرد اسم مشتق ، والأول أولى لقوة دلالة الفعل على مصدره بالاشتقاق ، وعلل الأخفش وقوع الفعل بعد الا ، بأنه كلام في معنى الشرط ، فأشبهه الشرط فلذا وقع بعده الفعل ، ألا ترى أن معنى « ذلك بأنهم لا يصيبهم ظمأ ولا نصب ولا مخمصة في سبيل الله ، ولا يطأون موطنًا يعيظ الكفار ، ولا ينالون من عدو نيلا ، الا كتب لهم » (٨) • أى ان أصابهم ذلك كتب لهم (٩) •

والأخفش أشار الى ملمح فنى في الصياغة حين يقع الفعل بعد الا ، هو جانب التسبب والترتب ، ووقوع الفعل ضربة لازب ، ومال ذلك

(٦) الذاريات ٤٢ • (٧) شبا ٤٣ •

(٨) الآية ١٢٠ التوبة • (٩) قوله تعالى •

من أثر في تولي الأحدث وتصوير التعلقب ، وشيء آخر هو ارتباط الفعل حسب نوعه وزمنه وهيئته الخاصة ، ودلالته المعنية ، وكونه مستثنى ، ارتباط بالتركيب ، كهذا للزوم في الماضي ، والعرض والتصوير والتمثل في المضارع ، مع ما تؤدبه متعلقات الفعل ، من اتمام التصوير الكامل لما قصد اليه من أداء .

ومن الواضح ان هذا للزوم المشابه للشرط ، يقوى هذا الجسم المفاد من أسلوب القصر وقد جاء في بعض الأساليب حين اقتضى السياق والمقام ذلك . (١٠)

وننبه هنا الى أن التقاط صفة دون سواها ، أو موصوف دون غيره ، في القصر ، انما هو تحييد وتحديد ، ونضح فنى ، يلتقط ماله خطر في تركيب العبارة ، وبناء الموقف ويدفع ما لا يبال له ، وهو الصفات أو الموصوفات المنفية ، التي قد تتسرب من خلال الأوهام والخواطر لمشارك المثبت في الإثبات ، إذ ان فن القول ودنيا الاحياء تموج بالمعاني المتداخلة ، والمشاعر المتعانقة ، والموصوفات المتجانسة ، فكان القصر بناء متكامل للمعنى ، وتمييز له ، واظهار ، ثم ان الانكار والشك وما هو من سبيلهما مما تردده البلاغة في تقسيمات القصر ليس الا رموزا للمشاعر والافكار التي يعالجها القصر في عمق ودقة وتركيز ، وحديثنا في الأدب الراقى لا تلك الأمثلة المصنوعة التعليمية فاقدة الحياة .

(٩) انظر حاشية المشهاب ١٩١/٥ والأطول ٢١٤/١ .

(١٠) راجع في فكرة التعاقب الجملة التالية ص من الكتابه

علاقة الصفة بالموصوف

والصفة والموصوف هما طرفا القصر ، مهما تعددت الصياغة ، أو تعددت الطرق التي تحمل على النفي والاستثناء فهو الأصل في هذا الباب — كما يقولون —

والسبب في افادة القصر ، في هذا الطريق ، هو أن النفي في الاستثناء المفرغ « الذي ترك فيه المستثنى منه ففرغ الفعل الذي قبله الا وشغل عنه بالمستثنى » (١) هذا أنفى يتوجه الى مقدر عام ينساق اليه الذهن ، ويرجع اليه تفصيل المعنى ، هو المستثنى منه ، مناسب للمستثنى في جنسه عرفا ، وفي صفته من الفاعلية والمفعولية فاذا استثنى من ذلك المقدر ، شئ بالآ ، كان القصر ، ضرورة بقاء ما عداه على صفته الانتفاء ، فقوله : وما محمد الا رسول : يقدر ، وما محمته حقيقته من الحقائق ، أو على صفة من الصفات الا على صفة الرسالة • (٢)

والمستثنى منه المقدر على جهة الفرض والتقدير بعيد عن الصنعة النحوية ، فان التقدير في النحو كالظاهر ، والتقدير والتفريغ لا يجتمعان ، كما أن المراد بالعام : الشامل نحو الجموع النكرة والعدد ، وأسماء الجنس ، وغيرها •

ثم انه لا بد من علاقة تصحح الاسناد ، وقد اشترطوا ألا يكون الطرفان متباينين اذ من شرط المبتدأ والخبر — وهما آجدي للصياغات

٢٧٧ رسالة في الصياغة

(١) الايضاح ٢٢٤ — والمطول ١/٢٢٠ •

(٢) راجع شروح التلخيص ٢/٢٣٢ •

— أن يكونا لعين واحدة ، وهذا معنى أن الخبر وصف للمبتدأ في المعنى ،
والشئ لا يحكم عليه بما لا يصدق عليه . (٣)

كما لا يكونان متخدين تماما لعدم الفائدة إذ لا يخبر بالشئ عن
نفسه ، ولما كان القصر فرع التغاير ، (٤) بمعنى أن يتغاير الموردان (٥)
ومن شأنه أن يحدث خصوصيات زائدة ومزايا تقنية في الأسلوب على
المعاني الوضعية ، وأن يضغط جملتين في جملة ، رأينا عديدا من ألوان
الأساليب كانت ماثرا لقرائح العلماء ، وحافزا على اكتشاف خافي
الأسرار البلاغية ، على النحو التالي : —

١ — اتحاد الطرفين :

قال الله تعالى « وأوحى الى نوح أنه لن يؤمن من قومك الا من قد
آمن ، فلا تبغض بما كانوا يفعلون » (٦) .

وقد تأول العلماء : من قد آمن : بمعنى استمر على الايمان ، لأن
للدوام حكم الثبوت ويرى الزمخشري أن معناه : وجد منه ما كان
يتوقع منه اى الا من قد استعد للايمان وضعفه الشهاب ، والاستثناء
متصل مفيد للقصر دال على اثبات الايمان مستقبلا ودوامه لن اتصف
بجه ، قبل ، ونفيه عن غيرهم ، فلا أمل فيهم ، ولا فائدة في دعوتهم ،
وجاز أن يكون منقطعا ، لا يؤمن أحد من قومك بعد ذلك ، كقولهم
« لا يذوقون فيها الموت الا الموتة الأولى » (٧) وهذا الثانى قريب .
وفي الآية تسلية لنوح عليه السلام الذى كان يطمع في ايمانهم ،

(٣) راجع الاستغناء فى أحكام الاستثناء : شهاب الدين القرافي ٢٩٧

(٤) راجع عبد الحكيم ١٧٨ .

(٥) راجع الشهاب ٣٣/٨ وتقرير الامتياز ٧٢/٣ .

(٦) الآية ٣٦ هود . (٧) الآية ٥٦ الدخان .

ويتيسر منهم ، وتمهيد للانتقام ، نفيا للحزن والأبى ، فان الدين عزيز
وان قل المستمسكون (٨) به .

وقال تعالى : على اسان منكرو البعث « ان هؤلاء ليقولون ان هي
الا موتتنا الأولى ، وما نحن بمنشرين » (٩) .

ومقتضى الظاهر أن يقولوا : ان هي الا حياتنا الأولى ، وأجاب
في الكشف وتبعه أبو حيان انه قيل لهم انكم نموتون موته تعقبها حياة ،
كما تقدمتم موته اعقبها حياة وذلك قوله عز وجل « وكنتم أمواتا
فأحياكم ، ثم يميتكم ثم يحييكم » (١٠) فقالوا ذلك أى ما الموته التى
من شأنها أن تعقبها حياة الا الموته الأولى ، كقوله : ان هي الا حياتنا
الأولى . (١١)

وتعقبه ابن المنير بأنهم لما وعدوا بعد الحياة الدنيا حالتين ، الموت
والبعث اثبتوا الأولى ، ونفوا ما بعدها ، ذلك أن الموت مراداً به ما قبل
الحياة الدنيا لم يذكر في السياق حتى يدخله الحصر ، ثم ان الموت قبل
الحياة لا يعبر عنه بالموتة ، فان الموتة فعلة : فيها اشعار بالتجدد
والطريان ، وهو أمر مستصحب لم يتقدمه حياة ، وهذا من التلاؤم في
الدلالة مع قوله تعالى في نفس السورة : « لا يذوقون فيها الموت الا
الموتة الأولى » (١١) فالمراد اذن بموتتهم موتهم بعد الحياة وتوصيفها
بالأولى ليست في مقابلة الثانية اذ الأول في اللغة — كما يقول الشهاب

(٨) راجع في الآية : الكشف ٢/٢٦٨ ، والبحر المحيط ٥/٢٢٠ .
والتفسير الكبير للرازي ١٧/٢٢٢ وتفسير أبي السعود ٤/٢٠٤ ، وحاشية

الشهاب ٥/٩٦ ، وروح المعاني ١٢/٤٩ .

(٩) الآية ٢٨ البقرة .

(١٠) الآية ٣٤ ، الدخان .

(٦) الكشف ٤/٥٠٥ والبحر ٨/٣٨ .

(١١) راجع الانصاف ٤/٥٠٥ .

— ابتداء الشيء ثم يكون له ثابن وقد لا يكون ، (١٣) كقولهم حج
 بزيد الحجة الأولى وهو الحق ذلك أن السياقات في هذه السورة تعقب
 بالنهايات في قوله مثلا « فما بكت عليهم السماء والأرض » (١٣)
 « فأتوا بأبائنا ان كنتم صادقين » (١٤) « لا يذوقون فيها الموت الا
 الموتة الأولى » (١٥) وهو متلائم أيضا مع قول واحد من المخلصين
 وهو في الجنة لقبرينه في سواء الجحيم « أفما نحن بميتين الا موثتنا
 الأولى » (١٦) .

واختاروا التعبير بالموت هنا : لأنه — في نظرهم العقيم وفكرهم
 الدهري — نهاية المطاف الصامتة لكل نامة وحركة .

ومن هذا القبيل قوله تعالى « وقالوا ما هي الا حياتنا الدنيا
 نموت ونحيا وما يهلكنا الا الدهر » (١٧) أي ما الحياة الا حياتنا
 الدنيا ، دون حياة أخرى بعدها .

وفي قولهم نموت ونحيا بتقديم الموت ، يقصدون أن أجنوا لهم
 دائرة بين موت وحياة ، وقدموا الموت لأنه أقوى الحدثين أثرا في
 النفس ثم للتلائم مع السياق — كما يرى الكرماني — في قوله « وخلق
 الله السموات والأرض » (١٨) قبل الآية وبعدها « قل الله يحييكم ثم
 يميتكم » (١٩) أما قوله بعضهم بأن المعنى نموت ونحيا بحياة أبائنا ،
 أو أنهم يعبرون عن معتقد لهم في التناسخ ، فغير قوى لا يعين عليه
 السياق . ولا واقعه العقدي (٢٠) .

- (١٢) راجع التيسير ٨/١٢١ وتفسير أبي السعود ٨/٤٤٤ .
 (١٣) الآية ٢٩ الدخان .
 (١٤) الآية ٣٦ الدخان .
 (١٥) الآية ٥٦ الدخان .
 (١٦) الآية ٥٨ — الصفات .
 (١٧) الآية ٢٤ الجاثية .
 (١٨) الآية ٢٢ الجاثية .
 (١٩) الآية ٢٦ الجاثية وراجع أسرار التكرار ١٩٣ .
 (٢٠) راجع ارشاد العقل السليم لابي السعود ٧٣/٨ .

وقال موسى عليه السلام بعد أن أخذ قومه الرجفة : « أتهلكنا
 بما فعل السفهاء منا ان هي الا فتنتك تضل بها من تشاء وتهدي
 من تشاء » (٢١) .

والاستفهام للدعاء أو الاستعطاف عن المبرد ، والضمير « هي »
 للفتنة ، أي ان الفتنة الا فتنتك ، ويجوز عود الضمير على طلب الرؤية
 أو عبادة العجل ، والأول أولى لأن معنى الفتنة الاختبار والابتلاء ، وهو
 مناسب للاهلاك ، والمعنى أنه لا أحد يقدر على امتحان العبادة حقيقة
 الا الله . (٢٢)

وقريب من اتحاد الطرفين قصر الشيء على نظيره :

كقوله تعالى ، تسلياً لنبيه محمد صلى الله عليه وسلم « ما يقال
 لك الا ما قد قيل للرسل من قبلك ان ربك لذو مغفرة وذو عقاب
 أليم » (٢٣) ليصبر على أذى قومه ، ويتأسى بالرسول الذين أودوا ،
 فالكفر ملة واحدة وهو الوجه الذي يبدأ به الزمخشري وأيده أبوحيان
 كما أجاز في الكشاف : أن يكون القائل هو الله تعالى وقوله : ما ذكر
 بعد « ان ربك لذو مغفرة . . . وذو عقاب أليم » على أن يكون بدلاً ،
 وذكره ابن هشام ، وضعفه أبو حيان بدلالة الحصر فقد أوحى إليه
 أمور كثيرة وأهم منه صياغة الفعل يقال وقيل (٢٤) فهو دال على أن
 الفاعل الكفار ، وفي الآية قصر المشبه على المشبه به لاختلاف القول
 زماناً ومكاناً .

- (٢١) الآية ١٥٥ الاعراف .
 (٢٢) راجع في الآية الكشاف ١٢١/٢ ، والشهاب ٢٢٣/٤ .
 والاستفهام ٢٧٦ .
 (٢٣) الآية ٤٣ فصلت .
 (٢٤) راجع الكشاف ٤٥٥/٣ والبحر ٥٠١/٧ ، والمثني ٤٢٥/٢ .

ومثله حديث يعقوب عليه السلام لأبنائه حين طلبوا منه أن يرسل معهم أخاهم شقيق يوسف ليمناروا من مصر « قال هل آمنكم عليه الا كما أمنتكم على أخيه من قبل فإله خير حافظا ، وهو أرحم الراحمين » (٢٥) .

والاستفهام للتوبيخ ، فهو قصر للأمن الخاص على نظيره السابق ، أمن شكلي ، لائقة فيه ، توبيخا على تفريطهم في يوسف عليه السلام وتبريرا لمنع بنيامين من الذهاب معهم لأنهم غير مأمونين ، ولما أخذوا أخذ عليهم موثقا ووصاهم بما يفعلون .

وقد يقصر الفاعل على المفعول وهما شيء واحد ، وهذا كثير

قال الله تعالى « يخادعون الله وأذین آمنوا ، وما یخدعون الا أنفسهم وما یشعرون » (٢٦) والمقصود خداع المنافقين رسول الله - صلى الله عليه وسلم - نزلها منزلة مخادعة الله ، تهديدا ، وتبشيعا (٢٧) وتأييدا لرسوله الكريم ، ولذا جاء بالمضارع المفييد للديمومة ، وفي قوله « وما یخدعون الا أنفسهم » وقرئ « وما یخادعون » والمتبادر من الأنفس : الذوات ، فالخداع لاصق بهم لا يعدوهم (٢٨) التي الرسول والمؤمنين ، الذين يطلعهم الله على أحوال المنافقين .

لأن العرب كما تنفى الشيء لنفى ثمرته ، وان كان موجودا ، وعليه قوله تعالى « وان نكثوا أیمانهم من بعد عهدهم وطعنوا فی حینکم ، فقاتلوا أئمة الكفر انهم لا أیمان لهم » (٢٩) .

(٢٥) الآية ٦٤ يوسف وراجع ارشاد أبی السواد ٢٩١/٤ .

(٢٦) الآية ٩ البقرة .

(٢٧) قاله الحسن والزجاج وراجع البحر ٥٧/١ .

(٢٨) راجع الشهاب ١١٨/١ .

(٢٩) الآية ١٣ التوبة .

فتلكك تثبت الشيء لثبوت ثمرته كناية عن انحصار ضررها
فيهم (٣٠) ، ويرى الشهاب أنه لما انحصرت ثمرة تلك المعاملة فيهم
جاز أن يدعى أن نفس تلك المعاملة مقصورة عليهم وهذا مفهوم تبعاً
لا قصداً فلا حاجة إلى تجاوز أو كناية . (٣١) وهذا الفهم بالقياس من
الإرداف وهو من أقسام الكناية فما أوردته الشهاب هنا غير دقيق .

ومثله التعبير القرآني « وما يضلون إلا أنفسهم » (٣٢)

« وان يهلكون إلا أنفسهم » (٣٣)

فهم يقصدون اضلال الغير فيستحقون العقاب ، ويهلكون أنفسهم
كقوله « وما ظلمونا ، ولكن كانوا أنفسهم يظلمون » (٣٤) والتعبير
بفعل الاضلال في الأول دال على الاخراج عن معرفة الحق ثم انهم -
كما يرى الرازي - لما اجتهدوا في اضلال المؤمنين دون جدوى صاروا
خائبين من حيث اعتقدوا شيئاً ولاح لهم غيره (٣٥) .

وقال تعالى « فقاتل في سبيل الله لا تكلف الا نفسك ، وجرى
المؤمنين » (٣٦) . أي لا تكلف نفسك الا نفسك ، أو قتال أحد إلا قتال
نفسك ، مبالغة في احتشاده صلى الله عليه وسلم لما قتال ، قتال من نوجد
لذلك ، وليس هناك سواه ، بخلاف لأقصى الإطلاق ، ومنه قبول النبي
صلى الله عليه وسلم وهو مستتر من بيان القرآن « فو الذي نفسى بيده .

(٣٠) الاستغناء ٢٣٧ . وراجع الكشف ٤٧/١ ، والبحر ٥٨/١

الرازي ٢/٢٣٥ .

(٣١) راجع الشهاب ٣١٦/١ .

(٣٢) الأنعام ٢٦ .

(٣٤) البقرة ٥٧ ، وراجع المعجم المفهرس ٧١٢ .

(٣٥) راجع الرازي ٤٧٠/٢ ، والاستغناء ٢٦٥ .

(٣٦) الاستغناء ٢٦٤ .

(٣ - القصر)

لأفئدتهم حتى تنفرد سالفتي هذه وهو غاية في تخيل انفراد النفس في طاعة الله كما قال القراني (٣٧) وهو انفراد غير مستوحش واستماتة لا تردد معها لأن الثقة والأمر كله فيها لله ومن الله كما يقول الرافعي (٣٨) ولا ينافي هذا أنه كلف غيره بالقتال « وحرص المؤمنين » لأنه صلى الله عليه وسلم أسوة باع حد الكمال في طاعات الله وبخاصة المفدائية والجهاد .

وقصر الشيء على نفسه أو ما هو قريب منه يعطى معاني نفسية ويلاغية مثيرة كعدم التوقع ، والمفاجأة ، هزة نفسية وعقلية تافت الى لون خاص من الأساليب في نسق ، ومقام خاص ، متميز متوتر — كما نلاحظ — من تبيين نوح من ايمان قومه وتسليية رسول الله محمد — صلى الله عليه وسلم — وتصبيره على أذى الاثراك ، وحيرة يعقوب ولوعته على يوسف ، والانكار المتوهج العائظ من الكفار ليوم الدين ، وارتداد الشر الكائد ، والتآمر الحاقد الى نحور أعداء المؤمنين ، وتصوير مفدائية الرسول — صلى الله عليه وسلم — مثلا يضرب وقد فطره الله على كمال الخلق وهو متلائم أيضا مع قوله صلى الله عليه وسلم « والله لو وضعوا الشمس في يميني ، والقمر في يساري على أن أترك هذا الأمر ، حتى يظهره الله ، أو أهلك دونه ما تركته » (٣٩) .

قصر العام على الخاص :

وأفراد هذا الخاص وجعله مقصورا عليه تنويه به لما يرتبط بهذا الخاص من معان تصور ، ومشاعر تؤدي ، لخطورتها في مسار الدعوة وبناء للتفهم المؤمنة .

(٣٧) الآية ٨٤ النساء .

(٣٨) اعجاز القرآن ٣٣٦ .

(٣٩) راجع الروض الأنف للسهيلى ٥/٢ .

قال تعالى : « وما كان قولهم الا أن قالوا ربنا اغفر لنا ذنوبنا
 واسرافنا في أمرنا ، وثبت أقدامنا ، وانصرنا على القوم الكافرين » (٤٠)
 والآية تتحدث عن نبي سابق جاهد مع المؤمنين أعداءهم الكافرين .
 وقد حصر قولهم في هذا الاقرار بالذنب هضما لانفسهم ، وطلب
 الغفران تطهيرا لقلوبهم ، والتضرع الى الله أن يثبت الأقدام وينزله
 النصر . اخلاصا في الجهاد ، وتقويضا وثقة بالله ، وضربا للأسسوة
 الفارعة ، وفيه تعريض بمن فر عن الرسول في أحد حين شاع أنه قتله
 بعد التصريح في قوله « أم حسبتم أن تدخلوا الجنة ولما يعلم الله الذين
 جاهدوا منكم ويعلم الصابرين » (٤١) .

وقال تعالى بيت الثقة في المؤمنين الذين يمثلون الاسلام قلبا
 وقلبا كما أراد الله ، ويبين أن كيد المشركين ضعيف مثل كيد الشيطان
 « لن يضروكم الا أذى وان يقاتلوكم يولوكم الأدبار ثم
 لا ينصرون » (٤٢) أي لن يضروكم الا ضرا يسيرا وهو المأثور عن
 قتادة والحسن ويرى الزجاج والفراء وأجازه الطبري أن يكون
 الاستثناء منقطعا والأذى يكون باللسان فليس من جنس الضرر (٤٣)
 ورجحه ابن القيم لأنه نفى الضرر في قوله « وان تؤمنوا وتتقوا
 لا يضركم كيدهم شيئا » مع أنهم لا يسلمون من أذى ياحقهم (٤٤) .

(٤٠) الآية ١٤٧ آل عمران .

(٤١) الآية ١١١ آل عمران وراجع في الآية الطبري ٧٨/٤ والكشاف

٤٦٩/١ .

(٤٢) الآية ١٤٢ آل عمران .

(٤٣) راجع في الرايين : الطبري ٣١/٤ ، والكشاف ٤٥٥/١ .

والبجر ٣٠/٣ تفسير أبي السعود ٧١/٢ ولالوس ٢٨/٤ .

(٤٤) راجع بدائع الفوائد ٧٢/٣ .

والأول أولى إذ ليس للضرر حد أدنى فيدخل فيه الأذى ، وإبطال
الضرر مشروط بالإيمان والتقوى ، بمعنى نفى أثره ، إذ مفهومه إثبات
الضرر مع عدم التقوى .

ومنه قصر الشيء على فحواه أو شكله الظاهري

قال أول كقوله تعالى على لسان عيسى يوم القيامة متبرئاً ممن عبده
وأمه من دون الله ، « ما قلت لهم إلا ما أمرتني به أن اعبدوا الله ربي
وربكم » (٤٥) .

والقول هنا بمعنى الأمر أو على بابه وقوله أن اعبدوا الله عطف
بيلين يوضح قوله نعماً أمرتني به ، وهو المقصود بالتقصر ، وهذا فحوى
رسالة عيسى عليه السلام وأتى بالأمر بعد الإدالة على التقييد الحرفي
من عيسى بتبليغ ما يكلف به تجريمها لمن أشرك ، وهو تصريح بنفى
المستفهم عنه في قول الحق : أنت قلت للناس اتخذوني وأمي المهين من
دون الله « أي إلا ما أمرتني به لا هذا كما قال الشهاب (٤٦) .

وعبر بقوله : ما أمرتني دون ما أمرتهم نزولاً على قضية حسن
الأدب ، فلا يجعل ربه ونفسه معاً أمرين (٤٧) ، ثم إن المقام شديد
رهيب فيه سطوة الألوهية وضعف البشرية ومراعاة أيضاً لما ورد في
أسلوب الاستفهام .

ويقابل ذلك قصر الشيء على الشكل وحده دون محتواه

كقول الاله تعالى على لسان يوسف عليه السلام في دعوته صاحبي
السجن الى التوحيد « ما تعبدون من دونه إلا أسماء سميتموها أنتم

(٤٥) الآية ١١٧ المائدة .

(٤٦) الشهاب ٣٠٤/٣ والكشاف ٦٥٧/١ .

(٤٨) الآية ٤٠ يوسف .

وَأَبَاؤَكُمْ مَا أَنْزَلَ اللَّهُ بِهَا مِنْ سُلْطَانٍ إِنْ الْحُكْمُ إِلَّا لِلَّهِ أَمَرَ إِيَّاهُ أَنْ تَصْبِرُوا
 (٤٨) « وَمِثْلَهُ : لِشُرَكَائِ الْعَرَبِ إِنْ هِيَ إِلَّا أَسْمَاءُ سَمَّيْتُمُوهَا أَنْتُمْ
 وَأَبَاؤَكُمْ » فِي اللَّاتِ وَالْعِزَّى وَمَنَاةَ :

فهي مجرد أسماء كاذبة باطلة لا مسمى لها في الحقيقة ، وألفاظ
 لا معاني تحتها اذ ليس لها من الالهية الا مجرد الادعاء ، فما عبدوا
 الا الاسماء العارية عن الحقائق ، مبالغة في ابطالها ، وذما لاذعا وتهكما
 ساخرا من عقولهم الأفتنة * (٤٩).

وقد يحصر الشيء في عاقبته مبالغة :

قال تعالى — يصف فتنة المشركين ويعجب من كذبهم وهم في
 موقف المسألة والحسب يوم القيامة * * « ثم لم تكن فتنتهم الا أن
 قالوا والله ربنا ما كنا مشركين أنظر كيف كذبوا على أنفسهم وضل
 عنهم ما كانوا يفترون » (٥٠) *

فالكذب — لأنهم عاشوا به صار طبعا ذاتيا — لم يفارقهم حتى
 في الآخرة حين تظهر حقائق الأشياء بذاتها ، والفتنة اما بمعنى ما يجب
 ويفتنن به مرادا به الكفر وهم كانوا معجبين بكفرهم ، مفتخرين به
 ويظنون شيئا ، فلم تكن عاقبته الا الخسران والتبرى منه ، فجعل عاقبة
 الشيء عينه * تعجيبا من حالهم ، أو أن الفتنة هي الجواب وسماه
 فتنة لأنه كذب ، وقد قصدوا الخاص بهذا الكذب ، وعلى هذا يكون
 من قصر العام على الخاص * فهم يعيشون في دائرة من الكذب دنيا

(٤٧) راجع الإلوس ٦٤/٧ *

(٤٩) راجع الكشاف ٣٢١/٢ والبحر ٣١٠/٥ *

والاستغناء ٢٩٧ *

وبدائع الفوائد ١٩/١ *

(٥٠) الآية ٢٣ — ٢٤ الانعام *

وفي الآخرة لا تفارقهم ، وهذا كشف لخصائص الاشرار الذي يسمى
الأمور بغير أسمائها • ويجعل خلائق السوء مطيئة لتحقيق أهدافه (٥١).

ومنه قول الله تعالى : وكم من قرية أهلكناها فجاءها بأسنا بياتا أو
هم قائلون ، فما كان دعواهم اذ جاءهم بأسنا الا أن قتلوا انا كنا
ظالمين « ٤ - ٥ الاعراف (٥٢) •

والاسلوب يعرى النفس البشرية الظالمة المتكبرة عن ضعف مهين
حين تتعرض للانتقام المحيط ، ومعنى دعواهم : دعاؤهم واستغاثتهم
أى ما كان دعاؤهم حين رأوا العذاب الا الاعتراف بظلمهم ، فيما
كانوا عليه ، تحسراً وندامة وهيهات حين نجاة ، (٥٣) والمثير المصور
أنهم حين يدعون ويستغيثون لا تنطلق ألسنتهم بالاستغفار والابتهاال
لأن هذا أمر ما عرفوه ، ولا ذاقوا طعمه بل يعترفون بظلمهم ان البغثة
في العذاب ، والفجأة في هول الانتقام تمحو التحايل وتطير الأفتحة
الزائفة فلا يبقى الا ما وطن في القلب ينطلق به اللسان وتأمل حال
فرعون حين أدركه الغرق لم يستطع أن ينطق شهادة التوحيد لأنها لم
تجر بخاطره ولا قلبه يوماً فجعل يعنى ذهنه ويكد فكره ، ليعثر على
المفتاح السحري للنجاة : آمنت أنه لا اله الا الذي آمنت به بنو
اسرائيل « (٥٤) يا الله العجب من هذا التصوير المعجز العجيب •

- (٥١) راجع فى الآفة الكشاف ١١/٢ ، والبحر ٩٥/٤ وأبو السعود
١٢٠/٣ والشهاب ٤٠/٤ ، والألوس ١٢٣/٧ والفتوحات الالهية ١٦/٢ •
(٥٢) الآفة ٤ - ٥ الاعراف •
(٥٣) راجع الشهاب ١٧٠/٤ والألوس ٨١/٨ •
(٥٤) الآفة ٩٠ يونس •

نظر فان المتباينان :

من المتعالم أن القصر لا يكون الا في الامتثناء المتصل دون المنقطع ، وحدث الأول عند العلماء « أن يكون المستثنى من جنس المستثنى منه وأن يحكم عليه بنقيض الحكم على جنسه » كما مر في الشواهد فان كان المستثنى ليس من جنس المستثنى منه فهو منقطع ، ولا قصر كقول الله تعالى « ومنهم أميون لا يعلمون الكتاب الا أمانى » (٥٥)

وهم جهة اليهود لا يعرفون عن التوراة الا أكاذيب أخذوها تقليدا ، أو مواعيد فارغة حسبما منتهم أحبارهم كعفو الله عنهم أو شفاعة انبيائهم لهم (٥٦) ، وليس ذلك من جنس العلم ولا مما في التوراة .

وقال تعالى « يأيها الذين آمنوا لا تأكلوا أموالكم بينكم بالباطل الا أن تكون تجارة عن تراض منكم ولا تقتلوا أنفسكم ان الله كان بكم رحيمًا » (٥٧)

فالتجارة تؤكل بالحق لا بالباطل ، وتقبيد الأموال بالباطل جعلها كأنها جنس قائم بذاته لأنها مستقلة بالحد ، دون ما حرم الشرع من المال الباطل . (٥٨)

وسواء حكم على هذا المنقطع بالاثبات أو النفي فهو استثناء بطريق الحمل على لكن في الاستدراك كما قدرها سيبويه في المنقطع ، من جهة أن لكن لا يشترط أن يكون ما بعدها بعضا لما قبلها (٥٩) . ولذا قالوا ان علامة المنقطع صحة وضع لكن موضع الا .

(٥٥) الآية ٧٨ البقرة .

(٥٦) راجع تفسير أبي السعود ١١٩/١ .

(٥٧) الآية ٢٩ النساء .

(٥٨، ٥٩) راجع في ذلك : شرح المنفصل ٧٦/٢ وشرح الكافية ١/١٤٩ .

وإستغناء ٣٨٣ والشهاب ١٣٣/٢ ، ١٨٩/٢ .

ومن المنقطع ما يكون المستثنى فيه من جنس ما قبله ، وحكم عليه
بغير نقيضه كقوله تعالى « وما كان لمؤمن أن يقتل مؤمناً الا خطأ » (٦٠)
وقد جاء ما سبق كثيراً في القرآن وهناك نوع يجعل فيه المنقطع كالمثال
« على البدل من مثل قولهم « مالى عتاب الا السيف » وقول النابغة :

ولا عيب فيهم غير أن سيوفهم بهن فلول من قراع الكتائب

فقم جعل من المتصل مبالغة في المدح ، اى ان كان ولا بد من العيب
ففيهم عيب واحد وهو فلول السيف وهو مروى عن سيبويه (٦١)

ولواقع ان هذا اللون من الأساليب على خلاف مقتضى الظاهر
ويدخل تحت ما يسمى بالتتويج ويشمل هذا اللون وهو كما يقوى
الشهاب « أن ينزل ما يقع في موقع شيء بدلا منه منزلته بلا تشبيهه
ولا استطرده كما في الاستثناء المنقطع وما يضاهيه ، سواء كان بطريق
الحمل كما في قوله : تحية بينهم ضرب وجيع •

• أو بدونه كما في أعنوا بالصيلم » (٦٢) •

وقد نبه عليه العلماء سيبويه وعبد القاهر والسكاكى ونبه عليه
الزمخشري في قوله تعالى « يوم لا ينفع مال ولا بنون الا من أتى الله
بقلب سليم » (٦٣) •

والاستثناء في الآية اما منقطع بمعنى لكن ، أو من جعل المنقطع
متصلاً تأويلاً دليلاً على عدم نفع الأموال والبنين ، أو متصلاً على
تقدير مضاف أى سلامة من أتى الله •

(٦٠) الآية ٩٢ النساء • (٦١) راجع الشهاب ١٨٩/٢ •

(٦٢) راجع شرح المفصل ٨٠/٢ وشرح الكافية ٢٢٩/١ •

(٦٣) راجع الشهاب ٦١/٢ •

أو الا وبنى من أتى الله • أو أن الاستثناء من أعم الأحوال أو
المفاعيل أو الاستثناء مما دل عليه المال والبنون أى لا ينقطع غنى الا
غناء من أتى الله بقلب سليم • (٦٤)

وهذه الآراء العديدة للعلماء والتأويلات المختلفة تدل على وقوفهم
أمام أمثال هذه التعابير الخاصة وقد كثرت التقديرات وصولاً الى
المعنى المتسق ، وأحرى هذه الآراء هو ما بدأ به الكشف من جعل
المنقطع متصلاً وتأويلاً وجعل ما بعد الا حالاً أى الاحال من أتى الله
بقلب سليم (٦٥) وهو واضح من التركيب ولو حاولنا التقدير في
المنقطع دائماً لكان الاستثناء كله متصلاً وهو خروج على طبيعة
الاساليب العربية •

وهذا اللون يدخله العلماء تحت ما يسمى تأكيد المدح بما يشبه
المذم في علم البديع وفيه خلاصة وإثارة وشفاعة نفسية وذهنية غير متوقعة
وتأكيد لأنه كدعوى الشيء بدليله • (٦٦)

وقد استدرك بعض المتأخرين أنه من تأكيد الشيء بما يشبه
نقيضه (٦٧) وهو أدق لأن شواهد أعم من تأكيد المدح •

وقد جاء هذا اللون التنزيلى الذي نزل فيه التضاد منزلة التجانس
في عديد من الآيات التى تثير التعجيب والدهشة الغالبة من محاولة
الالتئام بين المتقابلات قال تعالى يصف قوم لوط ورددهم على دعوته
« وما كان جواب قومه الا أن قالوا أخرجوهم من قريبتكم انهم أناس
يتطهرون » (٦٨) •

(٦٤) راجع الكشف ١١٨/٣ ومفتاح العلوم ٥٠٨ والشهاب ٢٠/٧ •

(٦٥) الكشف ١١٨/٣ •

(٦٦) راجع الايضاح للقزوينى ٥٢٤ •

(٦٧) راجع الأطول ٢١٦/٢ • (٦٨) الآية ٨٢ الاعراف •

« وما كان جواب قومه الا أن قالوا أخرجوا آل لوط من قريبتكم » (٦٩) .

« فما كان جواب قومه الا أن قالوا اتتنا بعذاب الله ان كنت من الصادقين » (٧٠) .

قال بعض علماء التنزيل ان ردهم في سورة العنكبوت كان في بدء الدعوة ، ثم لما امتلأت قلوبهم غيظا من تكرار دعوته اجتمعوا على اخراجه وآله من القرية (٧١) .

ومثل هذه الآيات رد الكفار على ابراهيم الخليل بعد أن أدركوا أنه حطم آلهتهم واستمر يدعوهم « فما كان جواب قومه الا أن قالوا اقتلوه أو حرقوه ، فأنجاه الله من النار » (٧٢) .

والآيات تصور موقف الكاذبين فقد جاءوا بما لا يكون جوابا (٧٣) ذلك أن الايمان عندهم أصبح معدن عذاب ، ونبع انتقام فهو قلب حاد للمواضعات والحقائق دال على تشويه الفطر وشذوذ الطباع ، وما للمواصفات والحقائق دال على تشويه الفطر وشذوذ الطباع ، وما أصابهم من جنون الانفعالات ، ان الآيات هنا تثير فيضا من المشاعر المتداخلة أبسطها أن تمنح القارئ شيئا من الاستعلاء الاخلاقي والتطهير النفسي والاستواء في المشاعر الذي على ضوءه يكون نقد الباطل ونصرة الحق .

وفيه شبه من السخرية كهذه السخرية التي نحصيها في الآية

- (٦٩) الآية ٥٦ النمل
- (٧٠) الآية ٢٩ العنكبوت
- (٧١) راجع الشهاب ٩٩/٧ والاكوس ١٥٥/٢٠
- (٧٢) الآية ٢٤ العنكبوت
- (٧٣) راجع الكشاف ٩٢/٢

الكريمة التالية من كفار قريش « واذا تتلى عليهم آياتنا بينات ما كان
حجتهم الا أن قالوا ائتوا بآبائنا ان كنتم صادقين » (٧٤)

وتأمل النسق وقت تلاوة القرآن الكريم عليهم وقد أضاف
فيه الآيات الى ضمير العظمة ووصفها بالبيان والوضوح في دعوتها
للسادقة واعجازها القاهر وقت التلاوة يفرون الى طلب غريب محال
وهو احياء آبائهم ليشهدوا بصدق النبوة وقد سمى طلبهم حجة لأنهم
لغبايهم ساقوه مساق الحجة تحديا ، ولا حجة فيه ، وحصر هذا المطلب
الغبي في هذا القول الآسن تهكما بهم وسخرية بعقولهم لأنهم يعطلون
مداركهم، ثم يقترحون خوارق الآيات ، دون فهم لطبيعة الدعوة
ولا لطبيعة الآيات ، التي وضحا القرآن كثيرا .

ومن الأساليب المصورة ، التي تداخل فيها القصر مع الكناية
الدالة ما قاله الله في ختام آيات فضح بها المنافقين حين بنوا مسجد
الضرار الذي أسس على شفا جرف هار .

« لا يزال بنيانهم الذي بنوا ريبة في قلوبهم الا أن تقطع
قلوبهم » (٧٥) أى لا يزال ريبة في كل وقت أو في كل حال مدة حياتهم
الا وقت تقطيع قلوبهم ، وهي كناية مصورة تتغلغل القلوب لتصور
دقائقها ، فالريبة قارة لاصقة لا تزول من قلوبهم الا اذا ماتوا ومزقت
القلوب وقطعت ، اذ لا أمل في ضياعها طالما بقيت القلوب مجتمعة
متماسكة وكأن الريبة صارت جزءا من هذه القلوب مع انها من المعانى
النفسية لكنها ثابتة مسيطرة وهذا — كما يقول الشهاب — على سبيل

(٧٤) الآية ٢٥ الجاثية وراجع فيها الشهاب ٢١/٨ .

(٧٥) الآية ١١٠ التوبة .

التصوير والفرض (٧٦) . لكتها على كل خارقة التصوير الذي لا ينتهي مداه .

أما تأكيد المدح بما يشبه الذم فقد جاء في الاستثناء المفرغ متصلا - كما ذكر القزويني (٧٧) في قوله تعالى - على السنة السحرة الذين آمنوا بآيات موسى ، وتوعدهم فرعون بالتقتيل والتصليب والمثلية « وما نتقم منا الا أن آمننا بآيات ربنا لما جاءتنا ، ربنا أفرغ علينا صبرا ، وتوفنا مسلمين » (٧٨) .

ومادة نقم التي جاءت بطريق القصر في القرآن أتت في أربعة مواطن . (٧٩) .

وتنقم بمعنى تكره وتعيب ، أو تنتقم وتعاقب ، ورجحه أبوحيان الذي رأى أن نقم اذا تعدى بعلى ، كان معناه الغلبة ، واذا تعدى بمن ، كان بمعنى انتقم ، أى ناله بمكرهه ، واستدل بتفسير عطاء رضى الله عنه في هذه الآية « مالنا عندك ذنب تعذبنا عليه الا أن آمننا » (٨٠) والواقع أن نقم ذات دلالة عامة وهى الانكار ، اما باللسان كقوله تعالى « وما نقموا منهم الا أن أغناهم الله ورسوله من فضله » (٨١) وقد نزلت في عبد الله بن أبى ، وقد أغناه رسول الله صلى الله عليه وسلم بدية كانت تغلظت عليه ، قال عكرمة : اثنا عشر ألفا وأن ابن أبى لم يملك الا الكره والعيب ، وقيل نزلت في غير من المنافقين وهو الجلاس بن سويد فاستغنى ثم تاب حين نزلت الآية « فان يتوبوا يك

(٧٧) الايضاح ٥٢٥ .

(٧٦) الشهاب ٣٧٦/٤ .

(٧٨) الآية ١٢٦ الاعراف .

(٧٩) المعجم المفهرس ٧/٧ .

(٨٠) راجع الكشاف ١٢٤/٢ ، والبحر ٣٦٦/٤ .

(٨١) الآية ٧٤ التوبة .

خيراً لهم» (٨٢) وذكر لفظ الجلالة هنا كما يذكر كثيراً في نظائره من الأمور التي يعاشرها رسول الله - صلى الله عليه وسلم ، أيذانا جزئنا ، سبحانه ، وتأبيده ، وأن العطاء - في هذه الآية من الله ، أصالة ، ومن نبيه بالباشرة • وما سبق لنكار وعيب باللسان ، وأما بمعنى العقوبة كآية السحرة ، وقول أبي حيان : ان نقم كننقم مثل « قدر واقتدر » في الدلالة : غير دقيق لاختلاف المبنى واختلاف المعنى تبعاً ، وفي رد السحرة الذين آمنوا نحس ثقة بالله ، وتهكما بفرعون ، وحسماً لطمعه في عودتهم الى الكفر بوسائل تهديده الرعيب • (٨٣)

كما جاءت المادة في معرض أصحاب الأخدود في أسلوب شفيف ، عميق الأسى ، لهذا العذاب الوحشي الملقن بالمؤمنين « قتل أصحاب الأخدود ، النار ذات الوقود ، اذ هم عليها قعود - وهم على مايقعون بالمؤمنين شهود ، وما نقموا منهم الا أن يؤمنوا بالله العزيز الحميد » والصورة العامة بالغة الرهبة والهول مزدحمة الألوان والأصوات ومثيرة للاحاسيس التي تصل حد التضاد من استسلام المؤمنين المحققين وما يغلفه من حزن كسيف ، ثم الطغاة غلاظ الاكباد • يخذون أخدوداً يشتعل ناراً وقودها أهل الأيمان وهم ينظرون في تشف وقسوة فاقت افتراس الكواسر » وما نقموا منهم الا أن يؤمنون بالله العزيز الحميد » الآيات •

وكون الايمان بالله بلفظ الجلالة الأقدس وما تبعه من اسمائه الحسنی سبباً لا للرضا وهو المسبب المنطقي ، بل لما هو أسمى من نقيضه ، وهو الابداء والتحريق ، يصعد الاحتقار ، والاستبشاع للطفلة ، بل يرسخ عاطفة الكره لكل طاغية •

(٨٢) راجع مفردات الراجز ٥٠٤ ، ومفردات اللغة ٤٤٤/٥ ، والكشاف ٢٠٣/٢ والشهاب ٢٤٦/٤ .
(٨٣) راجع الشهاب ٣٤٦/٤ ، والألوسی ٢٨/٩ ، والبحر ٧٣/٥ .

ومنه الآية « قل يا أهل الكتاب هل تتقون منا الا أن آمننا بالله ، وما أنزل اليينا وما أنزل من قبل وأن أكثركم فاسقون » (٨٤) والاستثناء من أعم لعل ، ونقم بمعنى عاب ، وكرة ، والجملة « وأن أكثركم فاسقون » أجازوا أن تعطف على آمننا ويكون المستثنى مجموع المتعاطفين ، وعبر عن مخالفتهم بالفسق الثابت لأكثرهم توبيخا وحكما صادقا ، وبيانا للأسباب النفسية لأحقادهم وهو احساسهم بطهارة قلوب المؤمنين بالايمن ، وفساد بواطنهم هم لبعدهم عن كتابهم • أى ما تتكرون الا تخالفنا نحن فى جهة الكفران (٨٥) •

وقد يتوقف العلماء عند أساليب ، فيها هذا التباين المثير ، بين الطرفين ، فتختلف الآراء بين اتصال الاستثناء أو انقطاعه ، وفى كل محاولة لكشف اللمحات الفنية ، والأسرار البلاغية ، طى الأسلوب •

قال الله تعالى « قل لا يعلم من فى السموات والأرض الغيب الا الله » (٨٦) قالوا يجوز فى الاستثناء الانقطاع أى لكن الله يعلم ، أو على تأويل أنه ان كان الله فى السموات والأرض ففيهما من يعلم الغيب ، مبالغة فى نفيه لتعليقه على المحال والله مرفوع على البديل وهو على نية تكرار العامل ، ذلك أن المبدل منه على نية الطرح فصار العامل كأنه مفرغ له ، وهو لغة بنى تميم ورجحه الزمخشري الذى رأى أن الآية فى الاستعمال كالبيت المشهور :

وبلدة ليس بها أنيس الا اليعافير والا العيس

(٨٤) الآية ٥٩ المائة •

(٨٥) وفى الآية وجوه أخرى اعرابية وراجع : - الكشف ١/٦٢٤

والشهاب ٢/٢٥٨ والالوش : ١٧٣/٦ •

(٨٦) الآية ٦٥ النمل •

واليعافير : الأطباء ، والعيس : النوق ، فهي بلدة رحيل عنها الأحباب فلم يعد بها من يؤنس الا زرافات من الحيوانات ضاربة ، هنا وهناك ، فاذا كانت الطباء والنوق أنيسا ففى البلدة أنيس ، فهو كالتعليق على المحال ، كناية مصورة عن خلوها ورحيل أهلها تومىء الى الحزن الشفيف من فقد الأحبة تلك القضية الوجودية القاهرة التى تلهب المشاعر قضية الموت والرحيل .

وفى الآية الكريمة وضع حدود حاجزة بين الشهادة وعالم الغيب ذلك العالم المجهول الذى لا يستكشف أسرارہ مخلوق ، وبيان شاف ان علم المخلوق للغيب محال كاحالة أن يكون الجليل العظيم المطلق محدودا بالكون تعالى عن الزمان والمكان ويرى بعضهم اتصال الاستثناء ويكون الغيب بدل اشتمال من (من) والله فاعل والمعنى : لا يعلم غيب من فى السموات والأرض الا الله ، وحسنه أبو حيان وتخصيص الغيب بالمعقل لا دليل عليه .

وتم رأى على الاتصال بتوسعه فى معنى « من » ليكون من تعلق علمه بالسموات والأرض واطلع عليهما ، وهو يعم الله تعالى ثم أولى العلم من خلقه .

غير أن التعبير بفى الظرفية وجعل من عاما فيما سبق تكلف ، وجراءة ، ونقل القرانى عن العز بن عبد السلام أن فى تستعمل فى حق الله مجازا كقوله « وهو الذى فى السماء اله وفى الأرض اله » وهى فى آية الغيب مستعملة فى حقيقتها ومجازها ويكون متصلا ، والواقع أن الجمع بين الحقيقة والمجاز لا يقباه جمهرة العلماء ، على أن ما استدل به ليس متعينا : ذلك أن الظاهر أن الاله بمعنى معبود أى معبود فى

الكون ، غير أن بعضنا من الأئمة يرى أن التعبير في الآية حقيقة ، كما يطبق بالله تعالى بوصفات كماله (٨٧) .

ورأى الكشاف أظهر والمذهب التميمي هنا أبلغ .

وقال الله تعالى - عن إبليس لعنه الله « قتال رب بما أغويتني لأرزين لهم في الأرض ولأغوينهم أجمعين إلا عبادك منهم المخلصين ، قال هذا صراط على مستقيم ان عبادى ليس لك عليم سلطان الا من اتبعك من العاوين » (٨٨) .

وبدءا فان الاضافة في « عبادى » في القرآن الكريم قد تجيء للتشريف والتخصيص كقوله تعالى « قل لعبادى يقولوا التى هى أحسن » (٨٩) « يا عبادى الذين آمنوا ان أرضى واسعة فايأى » (٩٠) يا عباد لا خوف عليكم اليوم ولا أنتم تحزنون » (٩١) وقد تجيء الملكية والربوبية كقوله تعالى للملائكة أمام من عبدوهم من البشر يوم الدين « أنتم أضلّاتم عبادى هؤلاء أم هم ضلّوا السبيل » (٩٢) .

ودلالة المقام حاسمة في تعيين الدلالة .

ومن هنا يؤخذ من كلام الزمخشري وذكره ابن القيم أن الاستثناء متصل لأن العاوين بعض العباد ، وكأنه يحمل الاضافة على الملكية ، ورأى غيره وأيده أبو حيان وابن القيم أن الاستثناء منقطع بمعنى لكن

(٨٧) راجع في تحليل الاستثناء هنا في الكشاف ١٥٦/٣ والبحر
 ٩١/٧ وإشهاب ٥٥/٧ والإستغناء ٤٣٦ .
 (٨٨) الآيات ٣٩ - ٤٢ الحجر .
 (٨٩) الآية ٥٣ الأسراء .
 (٩٠) الآية ٥٦ العنكبوت .
 (٩٢) الآية ١٧ الفرقان .

وعلى هذا فالإضافة للتشريف ، أما تجويز ابن القيم رحمه الله الاتصال فهو تجويز غير قوى ، فسياق الآيات يرجع الانقطاع « ولا يؤمنونهم أجمعين إلا عبادك منهم المخلصين » فهي إضافة تخصيصية ، وأتم أمر آخر هو أن المستثنى هنا « إلا من اتبعك » الأكثر والمستثنى عنه الأقل وفي المتصل أجازه الكوفيون وبعض البصريين ومنعه غيرهم أما في هذه الآية فالذي يظهر - كما قال أبو حيان - أن إبليس لما استثنى العباد المخلصين ، كانت الصفة ملحوظة في الآية بعدها في قوله « إن عبادي » أي عبادي ، المخلصين تلاؤما في التراكيب أو كما يقول العلماء طردا للأسلوب على وتيرة واحدة وتلحظ في الآيات أن إبليس عكس الوضع الطبيعي في الترتيب فقدم الغاوين اهتماما بهم لأنهم أكثر لنبث غوته من الاغواء ، وفي قول الحق تعالى انتظم الترتيب عدلا واستحقاقا فقدم من تقدم وآخر من أبطأ به عمله فأشركه ، رتبة وأسلوبا .

وقال الله تعالى على لسان زكريا عليه السلام « قال رب اجعل لي آية ، قال آيتك ألا تكلم الناس ثلاثة أيام إلا رمزا » (٩٤) والرمز الإشارة أو إيحاء وأصله التحرك ، ومنه الرموز لاجرو ، وبالاسئلة مشاء منقطع ، إذ الرمز ليس من جنس الكلام ، وقد أجاز الرمخشري وغيره أن يكون الرمز مؤولا بالصوت الحقي ، أو الكلام مؤولا بمطلق الدلالة المفهومة على الاتصال (٩٥) وهو خلاف الظاهر والحق أنه منقطع إذ ما لا يحتاج إلى تأويل أولى دون داع سياقي أو معنوي أو عقيدى .

(٩٣) راجع في الآية الكشاف ٣٩١/٢ والبحر ٤٥٤/٥ ويطلع الفوائد

٠ ٦٧/٣

(٩٤) الآية ٤١ آل عمران .

(٩٥) راجع الكشاف ٤٢٩/١ والبحر ٤٥٢/٢ والشهاب ٢٥/٣

والألوسي ١٥١/٣

(٤ - القصر)

آيات في النعيم والعذاب يوم القيامة :

وفي الجانب الأول جاء قوله جل ذكره « جنات عدن التي وعد الرحمن عباده بالغيب انه كان وعده مأتيا ، لا يسمعون فيها لغوا الا سلاما ولهم رزقهم فيها بكرة وعشيا » (٩٦) .

وقال تعالى « لا يسمعون فيها لغوا ولا تأثيما الا قيلا سلاما مسلاما » (٩٧) .

والسلام ليس من جنس اللغو فهو منقطع لا قصر فيه ، وأجاز الزمخشري ومن تبعه كالبيضاوي وأبي السعود وغيرهم أنه متصل على طريق الغرض والتصوير ، والتعليق على المحال ثقة في تأكيد المعنى ولذا وقع موقعه من الحسن والمبالغة ، فهو من تأكيد المدح بما يشبه الذم أى ان كان السلام لغوا ففى الجنة لغو ، تصويرا وبرهانا وترغيبا محببا شائقا .

كما أجازوا أن يكون لسلام دعاء بالسلامة من الآفات ، ولا آفة فى الجنة ، فيكون هذا بحسب الظاهر لغوا ، لكن المقصود الاكرام ، وظهر التحاب .

ورده ابن المنير لأنه يقتضى أن الجنة يسمع فيها لغو وفضول وحاش لله ، يقصد أن تحليل الكشاف يوحى بنسبة مطلق اللغو ولو سوريا لنعيم الجنة ، ثم انه أيضا يخالف الدلالة الخاصة للسلام فى

(٩٦) الأيتان ٦٢ - ٦٣ مريم .

(٩٧) راجع الكشاف والانصاف ٥١٥/٢ والبحر ٢٠٦/٨ والشهاب

هذا المقام ، ذلك أنه تحية تكريم جاء بها القرآن الكريم كثيرا . كقوله تعالى « سلام عليكم بما صبرتم » (٩٨) « سلام عليكم ادخلوا الجنة » (٩٩) « سلام قولاً من رب رحيم » (١٠٠) فالسلام اذن في آيتي مريم والواقعة مقصود به التحية التي شرعها الاسلام للمؤمنين دنيا بدعاء به وجعاه وصفا لواقع مدرك لأهل النعيم وأطلقه على الجنة « لهم دار السلام عند ربهم » (١٠١) .

ومما يتصل بالخلود في الجنة قوله تعالى : « لا يذوقون فيها الموت الا الموتة الأولى ، ووقاهم عذاب الجحيم ، فضلا من ربك » (١٠٢) ولما كانت الموتة الأولى قد سبقت نهاية لما مضى من الدنيا ، فهو منقطع ، وقد وضع « الا الموتة الأولى موضع لا يذوقون فيها الموت أبدا » اذ ما مضى لا يذاق فيما يستقبل .

والانقطاع على طريقة الحجازيين أما طريقة بنى تميم الجوز فيها البديل من غير الجنس فالزمخشري كثير الاتباع لها ويجعل الاستثناء متصلا على سبيل الفرض وسرها تأكيدا لنفى على وجه لا يبقى فيه مطمع في الاثبات . (١٠٣)

وننبه هنا الى ان أسلوب النفي المغيا بالمستحيل ، أو المعلق على الحال ظاهرة أسلوبية جاءت كثيرا ، في سياقات خاصة ذات خطر واثماع حسي كتصوير هذا الانتقام الكافر من المؤمنين بسبب نقائهم

• (٩٩) الآية ٣٢ النحل

• (٩٨) الآية ٢٤ الرعد

• (١٠١) الآية ١٢٧ الانعام

• (١٠٠) الآية ٥٨ يس

• (١٠٢) الآية ٥٦ اللخان

(١٠٣) راجع الكشاف والانتصاف ٥٠٧/٣ والبحر ٤٠/٨ والشهاب

• ١٤/٨ وتفسير أبي السعود ٦٦/٨

وايمانهم أو تصور لقطات من النهيم الأخرى في أفق من الجمال والكمال لم يسم اليه خيال ، أو وصف ألوان من عذابات الكافرين في عالم آخر له قوانينه التي تعذب عن محاولة لفهم من عقل البشر في الدنيا وكذلك في تقرير انفراد الله تعالى ببعض الصفات كصفة علم الغيب التي قد يدعى بعض محتالي البشر الكذبة معرفة بشيء من هذا المجهول . كما سبق في تحليل الآيات .

كما لم تختص هذه الظاهرة بالاستثناء فقد جاءت مثلا في حتى الغائبة كقوله تعالى : « ان الذين هذبوا باياتنا واستكبروا عنها لا تفتح لهم أبواب السماء ، ولا يدخلون الجنة حتى يلج الجمل في سم الخياط ، وكذلك نجزي المجرمين » (١٠٤) .

وهذه الأساليب المركزة المديدة والقوية الايحاء ذكر العلماء من أسرارها ما يتصل بالوجدان والفكر من جعل المنقطع متصلا فرضا وتصويرا وتقديرا وتنويعا والتعليق على المحال ، وتأكيده الشيء بما يشبه تقيضه وفيه خلافة واستيلاء على العقل أو اثاره طاقات المرء على الأقل .

ثم هناك أيضا اخراج ما يعقل - في أكثر الأساليب - في صورة المصنوع تأثيرا في الخيال البشري شعلا لمنافذ الحس البصري ألوانا وظلالا ومشاهد متنوعة أو السمعى أو الذوق المتعدد أو رسم مشاهد كاملة متحركة دائبة ، أو ساكنة فهي أساليب خاصة لها ايحاء معين في سياقات معينة وأما ما يتعلق بعذاب أهل النار - أعادنا الله منها - فقد جاء من متباين الطرفين قوله تعالى « ليس لهم طعام الا من ضريع ، لا يسمن ولا يغنى من جوع » (١٠٥)

(١٠٤) راجع في الآية ٤٠ الاعراف الكشاف ٧٨/٢ والبحر ٢٩٧/٤

والارشاد ٢٢٦/٣ والتصوير الفنى ٣٨ .

(١٠٥) الآيتان ٦ ، ٧ الفاشية .

* — ولا طعام إلا من غسلين ، لا يأكله إلا الخاطئون « (١٠٦) .

— لا يذوقون فيها بردا ولا شرابا إلا حميما وغساقا « (١٠٧)

والمعذوبون طوائف ، ولكل لون خاص مناسب من العذاب .

ثم ان الطعام له دلالة لغوية عامة هي مطلق تذوق الشيء وكل ما يطعم حتى الماء كقول الله تعالى : ان الله مبتليكم بنهر فمن شرب منه فليس مني ، ومن لم يطعمه فانه مني « (١٠٨) . ويقال تطعمت منه أي ذمته قال العلماء في آية طالوت اختيار هذا اللفظ (يطعم) لأنه أبلغ . لأن نفى الطعم يستلزم نفى الشرب ، ونفى الشرب لا يستلزم نفى الطعم اذ يحصل من مجرد ذوقه دون شربه وبلعه (١٠٩) وهناك دلالة عرفية وهي تخصيص الطعام بما يؤكل ، وبين الداللتين كان اختلاف

الآراء . (١٠٦) ط

*) فقد أجاز الزمخشري أن يكون المعنى : أنهم لا طعام لهم أصلا ، لأن الاضريح ليس بطعام للنهائم فضلا عن الناس ، كما يقصا لئتين الخلان ظل الا الشمس ، أي لا ظل له فهو من التعليق بالخال ، أريد به النفي على أبلغ وجه ، وقد حمل ابن القيم ارادة النفي المؤكدة على الكناية بالاردا ف . ويرى بعض العلماء أنه كناية عن الطعام المكروه ، اذ ليس من طعام الانسان ولا فيه فائده وهي السمن والغناء من الجوع ، بل هو شر الطعام وأخبثه وأبشعه ، سواء فسر الضريح بالصبر أو اليابس ، وهي شجرة ذات ثوك ، اذا يبست سميت خريفا ،

الآياتان ٣٦ ، ٣٧ العاقبة .

(١٠٧) الآية ٢٥ النبا .

(١٠٨) الآية ٢٤٩ البقرة .

(١٠٩) راجع مقاييس اللغة ٤١٠/٣ ، والنهاية في غريب

١٢٦/٣ والبحر المحيط ٢/٢٦٤ .

تعافه الابل وتتحمأه وهو سيم قاتل أم مسر بشجر من نار أو حجارة أو غيرها فالاستثناء على رأى الكشاف من المتصل تأويلا ، وعلى المرأى بعده • منقطع ، كما نظر أبو حيان إلى الدلالة اللغوية فرجح الاتصال لأن الطعام ، ما يطعمه الانيسان وهو قدر مشترك بين المستأذ والمكروه • أما الآية الأخيرة : فالبرد ما فيه روح وراحة • أو مطلق البرد ، والحميم الماء الحار ، والغساق : ما يسيل من صديدهم ، وهما مستثنيان من (شرابا) على الاتصال وجاز أن يكون الغساق هو الزمهير ، فيكون مستثنى من (بردا) ففيه لف ونشر غير مرتب ، قال البقاعى هنا فالاستثناء على هذا موزع : الحميم من الشراب ، والغساق من البرد ، فالحميم شرابهم فى دولة السعير والغساق فى دولة الزمهير وأجاز الشهاب وابن القيم الانقطاع على أن فيه نفى الشىء وأثبتا ضده (١١٠) •

ونعتقد أن ما ذكر القرآن الكريم من ألوان الاطعمة والأشربة للمعذبين كالزقوم والمهل ، والحميم والغسلين والضريع والغساق إنما هى مدلولات حقيقية امعانا فى التعذيب ، جزاء وفاقا فى مقابلة ما نعم به المؤمنون •

ففيه القصد إلى وصف ضروب من العذاب كالأطعمة والأشربة تتناولها الأفواء وتمتلىء به، البطون ليكون العذاب محيطا شاملا ، خارجا وداخلا تقاسمته الجوارح ، والأعضاء ، ففيه التصريح النافذ لا الكناية المستترة ، وأثبت الطعام لانفيه ، وفي ذكر الطعام والأكل وهو فى العرف ما يلذ ويفيد ويمتع بل هو هدف أكبر للكافرين فى الدنيا الأكل تمتعا « ذرهم يأكلوا ويتمتعوا ويلههم الأمل » •

(١١٠) راجع : الطبرى ١٠٣/٣٠ ، والكشاف ٢٠٩/٤ ، ٢٧٤/٤ والبحر ٢٤٦/٨ ، ٤٦٣/٨ وبدائع الفوائد ٧٠/٣ ونظم الدرر ٣٧٣/٢٠ ، ٢٠٦/٢١ والبيضاوى والشهاب ٣٠٧/٨

ثم بقاء الاسم والعنوان وتغيير المسمى والمحلوك الى ما هو أبعد من الضد . فما كان منبع متعه صار مصدر عذاب . خارق مهول ، تهويلا وترهيبيا ، وتصويرا يصدع الأفتدة وفيه هذا التهكم القادر المستعلى .

الفعل زاد وأسلوب الاستثناء

حكى سيبويه وغيره : قولهم : ما زاد الا ما نقص ، وما نفع الا ما ضر ، والمعنى : ما زاد النهر الا النقصان ، وما نفع زيد الا الضر ، قام النقصان مقام الزيادة والضر مقام النفع ، كما يقال الأجوع زاد من لا زاد له ، والنكتة فيه كما قال ابن يعيث « ان الاستثناء من الجنس تخصيص وفي هذا الباب استدراك » (١١١) .

فهو ملحق بالمنقطع من تأكيد الشيء بما يشبه ضده ، كناية دالة على نفى الزيادة والنفع .

غير أن الفعل « زاد » في القرآن الكريم ذو شأن متنوع في أساليب القصر « (١١٢) .

فقد جاء على الاتصال في مدح المؤمنين ووصفهم بما هو خير كقوله تعالى : « ولما رأى المؤمنون الأحزاب قالوا هذا ما وعدنا الله ورسوله ، وصدق الله ورسوله وما زادهم الا ايمانا وتسليما » (١١٣) فأصل الايمان والتسليم موجود ، وهي الآية الوحيدة التي جاء الفعل في أسلوب القصر في جانب المؤمنين ، وباقي الآيات في هذا المعنى جاءت

(١١١) راجع شرح المفصل ٨١/٢ . والكتاب لسبويه ٣٢٦/٨ .

(١١٢) المعجم المفهرس ٣٣٤ .

(١١٣) الآية ٢٢ الأحزاب .

بدون قصر نحو : « والذين اهتدوا زادهم هدى وأتاهم تقواهم » (١١٤) .
 « الذين قال لهم الناس ان الناس قد جمعوا لكم فاخشوهم فزادهم
 ايمانا وقالوا حسبنا الله ونعم الوكيل » (١١٥) .

ولعل انفراد آية الأحزاب بالقصر - والله أعلم - للتعبير عن موقف
 الابتلاء المزلزل للمؤمنين في غزوة الأحزاب ، حين انبعث الكفر بقيافته
 وطوائفه ، وأحاطوا بالمدينة كما وصف الله « اذ جاءكم من فوقكم
 ومن أسفل منكم ، واذا زأغت الأبصار وبلغت القلوب الحناجر » (١١٦)

ومع كل هذا كان التصديق المطلق من المؤمنين ، والتسليم الكامل
 بالقصر يركي ثبات العقيدة ، ورسوخ التوحيد والهداية في هذه القلة
 الصابرة الفريدة .

كما جاء الفعل « زاد » وصيغه كثيرا في جانب الكافرين من كل
 الأمم على طريق القصر ، واقعا على ألوان من الضلال والتبار والخسار
 والفرار ، والمقت ، والنفور ، والتثيب ، والتخسير (١١٧) .

ومن المثير أن تستأثر قصة نوح في سورة نوح عليه السلام
 بعدد من هذه الأساليب تلاؤما مذهلا مع قصة الدعوة المتطاولة من
 نوح فقد مكث يدعوهم ألف سنة الا خمسين عاما وفي كل أجداب القصة
 زيادة على اليهود ايجابيا وسلبيا ، زيادة في الدعوة زمانا وحدثا .

وزيادة في فرارهم وفقارهم . وزيادة في النعم التي زادتهم
 خسارا ، وفي دعاء نوح عليهم ، كان بالزيادة الضلال ، ثم التبار ،

(١١٤) الآية ١٦ محمد عليه الصلاة والسلام :

١١٥ الآية ١٧٣ آل عمران .

(١١٦) الآية ١٠ الأحزاب .

(١١٧) المعجم المنهري ٣٣٤ .

والاستئصال حتى الانتقام الالهى زاد على المعهود « مما خطيئاتهم
 أغرقوا فأدخلوا نارا فلم يجدوا لهم من دون الله أنصارا » (١١٨)
 وحتى اغراقهم لم يكن كإغراق فرعون وملئه بل كان بطوفان طم وعم
 الأرض بأمواج كالجبال • فالسورة مبنيه على زياده الأحداث الفاظا
 ودلالات •

والأسلوب الأول فى السورة : قال رب انى دعوت قومى ليلا
 ونهارا فلم يزدهم دعائى الا فرارا « (١١٩) وهنا التعجيب فما كان
 سببا للهدى والاقبال انقلب لديهم سببا لا للاعراض فحسببل للفرار
 تصويرا حركيا لادبارهم المستمر ، ومن حديث نوح فى سورته وهو
 تقرير مفصل أو اعتراف كامل بقصته على سبيل الايجاز نحس الأسى
 والحزن والشكاة الجريحة ، والتفويض الواثق ومنه « واتبعوا من لم
 يزدده ماله وولده الا خسارا » وهنا أيضا التناقض الحاد فى موقفهم
 فالمشئء أصبح نبعاً للنقيض : فالمال والولد وهما نعمة تبصر بالمنعم
 تلك التى لم تزدهم الا وجاهة ، ومنفعة زائدة فى الدنيا كانت سبب
 خسار ابتداءً بنهايتهم واستمر فى آخرتهم وزيادة الخسار الأخرى
 توحي بأن الخسار كالعصاة اللازمة لهم ، بل سمة يعرفون بها تحقيقا
 وتصويراً مؤكداً للخسار (١٢٠) •

والمقصود بقوله : اتبعوا من لم يزدده •• الآية هم الملا الأشراف
 من رؤسائهم وكبرائهم وقد قادوهم فى طريق الضلال حتى أخسروهم
 وأهلكوهم (١٢١) •

(٢٧)

- (١١٨) الآية ٢٥ نوح عليه السلام •
 (١١٩) الآية ٦ نوح •
 (١٢٠) الآية ٢٤ نوح عليه السلام •
 (١٢١) المرجع

ثم كان دعاء نوح عليهم « ولا تزد الظالمين الا ضللا » (١٢٢) « ولا تزد الظالمين الا تبارا » (١٢٣) .

وقد وسمهم بالظلم مرتين لأنهم تجاوزوا الحد في الكفر وزادوا في الطغيان وهو سبب لهذا الدعاء عليهم الذي انتهى بطلب الهلاك الزائد تناسباً كما قلت مع الزيادة في أحداث القصة .

وصف الكافرين بزيادة المقت أو النفور أو الخسار قريب المأخذ لأن أصل الحدث موجود بوجود أس البلاء وهو الكفر بالله تعالى .

كقوله تعالى « ولا يزيد الكافرين كفرهم عند ربهم الا مقثا . ولا يزيد الكافرين كفرهم الا خساراً » (١٢٤) وكقوله تعالى : « ولقد صرفنا للناس في هذا القرآن ليزكروا وما يزيدهم الا نفورا » (١٢٥) .

والمراد بالناس الكفار والنفور من صفة الدواب (١٢٦) وهو المعهود في ذم الكفار في القرآن . لكن المشكل وصف المؤمنين بزيادة الخبال أو وصف صالح عليه السلام بزيادة التخصير في بعض المواقف قال تعالى — وقد قعد المنافقون مع الخالفين عن غزوة تبوك في جيش العسرة ، واختلقوا اعدارا ففضح الله نفاقهم ، وعرى بواطنهم ، ثم بين أنهم لو خرجوا لكانوا فتنة وبلاء « ولو أرادوا الخروج لأعدوا له عدة ، ولكن كره الله انبعاثهم فثبطهم ، وقيل اقعدوا من الخالفين ، لو خرجوا فيكم ما زادوكم الا خبالا ، ولأوضعوا خلالكم بيغونكم الفتنة وفتنكم سماعون لهم ، والله عليم بالظالمين . » (١٢٧) .

• (٢٢) الآية ٢٤ نوح

• (١٢٣) الآية ٢٨ نوح

• (١٢٤) الآية ٣٩ فاطر

• (١٢٥) الآية ٤١ الاسراء

• (١٢٦) واجع على الآيتين ٦٥ ، البحر ٤٠/٦ ، ٣١٧/٧ والاستغناء

• ٣٢١

• (١٢٧) الآية ٤٧ التوبة

ولما كان أصل الخبال غير موجود في معسكر المؤمنين فقد أورد بعض العلماء رأياً بالانقطاع أى ما زادوكم قوة ولا شدة لكن خبالاً (١٢٨) كما رأى الزمخشري وغيره انه من المتصل وليس المنقطع لأن المستثنى منه مقدر بأعم العام وهو شيء ، والخبال بعضه ومعنى الخبال الفساد والشر وعلى هذا فمعنى زادوكم أو ثوكم عندهم (١٢٩) ، وأحسب - والله أعلم - أنه عبر بالفعل زاد ، لبيان خطر المنافقين الجسيم على الطائفة المؤمنة ، كما يجوز أن يراد بالمخاطبين « بعضهم » بدليل « وفيكم سمعون لهم » أى فيكم قوم ضعفة نامون أو يسمعون للمنافقين كما أولها أبو السعود (١٣٠) وهؤلاء الضعاف قد يسيئون فيسببون مع المنافقين البلبلة والفساد وتفريق الكلمة . كما جاء في مقالة صالح عليه السلام لقومه :

ويا قوم من ينصرنى من الله ان عصيته فما تزيدونى غير
تخسير « (١٣١) » .

أما ان عصيت بالمساهلة في تبليغ الرسالة ، ومجاراتكم فيما تأتون وتذرون لا تفيدونى غير تخسيرى وابطال عملى ، وقد أول بعضهم تزيد بمعنى تفيد اذ لم يكن فيه أصل الخسران حتى يزيدوه - كما قال أبو السعود -

ولم يوضح أحدهم سر استعمال الفعل زاد دون سواه ، ويبدو - والله أعلم - أنه لزيادة التهويل ، واستبعاد عصيان الله تعالى ، وأن مجرد التفكير في ذلك يوقعه في الخسر العظيم ، بله المعصية المرة ،

(١٢٨) راجع البحر ٤٩/٥ وتفسير أبى السعود ٧١/٤ .

(١٢٩) راجع الكشاف ١٩٤/٢ والمراجع .

(١٣٠) تفسيره ٧١/٤ .

(١٣١) الآية ٦٣ هود عليه السلام .

ويعمل مما يصعد هذا الشعور بالاستبعاد والتهويل أنه عبر بلفظ الجلالة
 بعد ذكر « ربي » في الآية قبلها - وذكره تقدس وجل - أدل على
 موافقه الأخذ والانتقام . ولذا نفهم دلالة الصياغة « تخسير » دون
 خسار مثلا ، أي يجعلوني أكثر خسارا . فكان اتباعهم يصاعف الخسار
 مرتين بالفعل : « تزيد » والمصدر « تخسير » وهو مناسب للمعروف في
 القرآن من تضعيف الجزاء حيرا حقيقة أو شرا تقديرا وفرضا للرسل
 والأنبياء ونسائهم .

وتم رأي آخر وهو أن التفسير معناه نسبتهم إلى الخسران
 فتكون صيغة نسب نحو كفر وفسق : أي نسبة للكفر والفسق والمعنى :
 لا تريدونني بهذا الرأي الفائل الآسن الا أن أؤكد حكمي عليكم
 بالخسران ، والأول أقوى وأقرب (١٣٢) .

(١٣٢) راجع في الآية : الكشاف ٣/٣٧٩ ، البدر ٥/٢٣٩ ،
 والارشاد ٤/٢٢٢ .

القصر بين الحقيقي والاضافي

وهو تقسيم راجع الى اعتقاد المتكلم ، وقصده وواقعه النفسى ،
والى الواقع الخارجى ، لأن قصر شيء على شيء اما بحسب الواقع
بحيث لا يتعداه الى غيره ، وهذا الغير المنفى اذا كان عاما كان القصر
حقيقيا واذا كان خاصا معينا كان قصرا اضافيا ، والواقع — كما نبه
غير واحد من الفضلاء — أن القصر كله اضافى لأنه بالاضافة الى
ما يقابل المثبت ، سواء كان هذا المقابل عاما أو خاصا • وليكنه اصطلاح
ولا مشاحة فيه (١) • وذكر المخاطب فى القصر الاضافى انما هو من
أسباب اتنوع فى الصياغة لان الأساس والأهم هو المتكلم الذى يدير
الكلام فى قلبه وفكره حسبما يظن فى المتلقى أو المخاطب وحاله الخاصة
التي قد تكون حقيقية أو تنزيلية بمعنى أن يفترض له المتكلم حالا خاصة
اثارة له أو تناسباً مع الموقف العام قال عبد الحكيم ان « المتكلم لا يورد
الكلام الا على حسب اعتقاده » (٢) •

القصر الحقيقي:

كقول الله تعالى لنبيه عليه الصلاة والسلام « فاعلم أنه لا اله الا
الله » (٣) وخطابه تعالى لموسى عليه السلام « اننى أنا الله لا اله الا أنا
فاعبدنى » (٤) •

بقصر صفة الألوهية على الله تعالى ، بمعنى نفى كل فرد فرد من
الآلهة ثم حصر ذلك المعنى فيه تبارك وتعالى (٥) •

(١) راجع شروح التلخيص ١٦٨/٢ والأطول ٢١٢/١ •

(٢) راجع حاشية عبد الحكيم ٣١١ •

(٣) الآية ١٦ محمد عليه الصلاة والسلام •

(٤) الآية ١٤ طه • (٥) راجع البحر ٤٦٣/١ •

ونلاحظ في نظائر هذا الأسلوب أنه إذا ذكر افظ الجلالة الأقدس مقصوراً عليه اختفى وانتهى ما يقابله ، كما نلاحظ أن لفظ « اله » في أصل استعماله موصوف كقوله تعالى ، اله مع اله « (٦) وقال « ولا فزع مع اله اله آخر » ، وقال « على لسان موسى عليه السلام للمسامري » وانظر الى الهك الذي ظلت عليه عاكفا لنحرقنه ثم لننسنفنه في اليم نسفا » (٨) .

وقد يراد به الوصف تأويلاً في بعض الأساليب كشهادة التوحيد وفي الآية « أنا اله لا اله الا أنا » ومثلها عديد : « هو الله الذي لا اله الا هو » نجد في الأسلوب قصرين : أنا الله — هو الله : بتعريف الطرفين واتحادهما ذاتاً ومدلولاً ، بقصر لفظ الجلالة على المقدم أنا — هو — دون غيره قصراً حقيقياً تحقيقياً ، ويؤول الضمير (أنا — هو) بالمشق بجعله خبر الكون .

والقصر الثاني : لا اله الا أنا — الا هو ، بقصر الألوهية على أنا وهو — دون غيره قصراً حقيقياً ، والجمال والجلال هنا أن القصرين كونا دائرة واحدة تبدأ بالضمير وتنتهي به والمقصور والمقصور عليه متحدان فهو سبحانه « الأول والآخر » والأسلوب يشع جلالاً وحسماً وتوجيهاً ولا بأس هنا من وقفة قصيرة عند آية قرآنية شريفة قوله تعالى « ان هذا لهو القصص الحق ، وما من اله الا الله . وان الله لهو العزيز الحكيم » (٩) .

وقد جعل في الكشف الآية رداً على النصارى في دعواهم التثليل فانتهى خاص وقد ردد عبارته « البيضاوي وأبو السعود والنيسابوري

- (٦) الآية ٦٠ النمل
- (٧) الآية ٨٨ القصص
- (٨) الآية ٩٧ طه وانظر الاحصاء في المعجم المهرس ٢٨
- (٩) الآية ٦٢ آل عمران

والألوسي وأوله الشهاب بأنه قصر اضافي ، وقد يوحى السياق والمناسبة بذلك ذلك أن نصارى نجران جاءوا يجادون النبي صلى الله عليه وسلم في شأن عيسى عليه السلام ، فرد عليهم ثم دعاهم الى المباهلة فتراجعوا وقد ذكر القرآن ذلك ثم عقب بالآية ، لكننا من التتبع السابق نرى أنه اذا جاء لفظ الجلالة مقصورا عليه اختفى مقابلة تماما وكان قصرا حقيقيا يقوى هذا الملحظ ما ذكره الطبري من أن الآية حكم فاصل وأن المعنى : ليس للخلق معبود الا معبودك وهو الله العزيز الحكيم وما قاله أبو حيان من أن « هذا » صدر الآية إشارة الى القرآن على رأى الجمهور ثم قال وفيه رد على الثنوية والنصارى وكل من يدعى غير الله الها . وهذه لمحة ذكية موفقة واذن فالقابل المنفى ليس خاصا بعيسى وأمه عليهما السلام بل هو عام والله أعلم ولهذا فان شهادة التوحيد مهمم اختلف المقصور عليه لفظا أعنى لفظ الجلالة (١٠) أو الضمير أنا أو أنت أو هو خاصة بالله تعالى من القصر الحقيقى ، ذلك أن لا لتأكيد نفى الجنس ولفظ الجلالة أو ضميره ، ليس له مقابل أو مكافئ وكذلك اذا جاء لفظ الجلالة بعد ما النافية كقوله : « وما من اله الا الله الواحد انقهار » (١١) فهو حقيقى أيضا وقد سوى بين العبارتين الزمخشري لأن كل واحدة منهما اشتملت على نفى واثبات ومن المؤكدة للاستعراق ملفوظ بها فى الثانية وقد تضمنت الجملة معناها فى الأولى وهى شهادة التوحيد ، ورد الزركشى بأن شهادة التوحيد أبلغ ، ولذا اختيرت ، لأن « لا » أقعد بالنفى العام ، لأن المقصود من لا نفى الذوات ، لأنها انفى الجنس والماهية، ايذانا بأن الغرض الاسم لا الخبر ، وخبر ما هو المقصود بالنفى ، ولا يمكن حذفه ، ثم ان دلالة الاسم الذى ركبت

(١٠) راجع فى الآية : الطبري ٢/٢١٠ ، والكشاف ٢/٤٣٥ ، والبحر ٢/٤٨٢ والارشاد ٢/٤٧ والشهاب على البيهقاوى ٣/٣٢ والألوسي ٣/١٩١ (١١) راجع فتح تقرير رأى الزمخشري والرد : رسالة الزركشى فى معنى لا اله الا الله ، ص ٩٧ - ٩٨ .

معه لا ، على الاستعراق أمكن من دلالة الحرف « ما » على أن التركيب من لا واسمها يحدث زيادة لا توجد في غيره (١٢) .

ومعنى هذا أن دلالة لا على التوكيد أقوى من ما ، لنفيها الجنس وعلى شمول النفي أيضا وكونه مطلقا ، وينبغي أن تعدل عبارة الزركشى فيبديل بأبغ أقوى ، لأن كل جملة في سياقها بليغة بل هي وحدها انبليغة .

وقال تعالى « وعنده مفاتيح الغيب لا يعلمها الا هو ، ويعلم ما في البحر والبر ، وما تسقط من ورقة الا يعلمها ، ولا حبة في ظمات الأرض ولا رطب ، ولا يابس الا في كتاب مبين » (١٣) .

وقد تواتت - في الآية - أساليب القصر ، لتحقق أن الغيب مختص بالله تعالى ، لا يعلمه سواه من مخلوقاته ، فهو قصر حقيقي ، بدأ بقوله « وعنده مفاتيح الغيب » وهي قضية كلية معقولة ظهرت في معرض بياني ، فالغيب مخازن ما مفاتيح ، استأثر الله بها ، والمعنى المجرد أن الله متحكم في علم الغيب ، وأن المقدورات الغيبية مختصة به تعالى ، وقدم الظرف (الخبر) فأفاد القصر بطريق التقديم ، والنقطة عام في الأسلوب والخارج جميعا ، وأكد بالقصر بعده « لا يعلمها الا هو » قصر صفة على موصوف ، وأقصران يمثلان حلقة دائرية تبدأ بالموصوف وتنتهي به رمزاً أي احاطته تعالى ، وهذه ظاهرة - كما سبق - تستأهل التأمل .

ثم قدم القرآن تملذج محسوسة في لوحة طاقت بعالم البر وهو مشاهد ، وعالم البحر وما فيه من عوالم وأحياء ، متطرقة الى أدق ما يعطر بالبطلان من كل ورقة تساقط من منبتها ، بهذا العموم وهو استعراق مذهل ، يحار فيه العقل والخيال في عالم مطرد التغير والاحالة

استمر الحركة ، ولذا كانت الإعمال خالية ، مع هذا التلوين الغريب في قوله حية ، بأنواعها ومذاقاتها ، وألوانها ، مع تصورهما — في ظلمات الأرض بعيدا عن المحس . ثم طوى هذه اللوحة الواسعة المنبسطة على ساحتها الوجود ليعود الى القضية موجزا في أسلوب آخر « ولا رطب ولا يابس الا في كتاب مبين » وهو القصر الرابع والأخير بدل كل أو استعمال من الأسلوب الأول وفيه احاطة وشمول يناسب التذييل المقرر « كتاب مبين » وهو علم الله المحيط أو اللوح المحفوظ (١٤) وأنظر الى هذا المطابق المصور المتعدد ، واتساع الصورة ، مع الايجاز المذهل والاستيلاء على طاقات النفس تأثيرا وعلوا .

وحين يكون المنفى عاما شاملا يسمى القصر تحقيقيا ، وهناك وهناك مقابله وهو غير التحقيقي ، أو الحقيقي على سبيل المبالغة . ويسمى مجازيا ، أو ادعائيا في غير القرآن الكريم ، وذلك حين يكون في الواقع ما يقابل المثبت ، ولكن ضرب عنه صفحا ، وأعرض عنه لقللة جدواه ، وعدم خطره في بناء المعاني ، كهول الله تعالى — على لسان هوسى — عليه السلام . بعد أن نجى الله بنى اسرائيل من فرعون ، وقد دعاهم — عليه السلام . الى دخول الأرض المقدسة مدينة المقدس ، ولكن فيها قوم جبارون قالوا « لن ندخلها أبدا ما داموا فيها فاذهب أنت وربك فقاتلا ، انا ههنا قاعدون . قال رب انى لا أملك الا نفسى وأخى فأفارق بيننا وبين القوم الفاسقين » (١٥) فقله لا أملك الا نفسى وأخى فيه لمسة أسى ، ونبرة حزن ضارعة ، وشكاة لاجئة الى الله ، فهو من قصر الصفة وهى الملك بمعنى التحكم على موصوف هو نفسه وأخوه وعطف أخى ، اما لأن هارون نبي مطيع لله ، فهو من عطف المفردات ، أو من عطف الجمل أى وأخى لا يملك الا نفسه (١٦) والمعنى متقارب

(١٤) راجع ارشاد أبى السعود ١٤٢/٣ (١٥) الآية ٢٥ الثالثة .

(١٦) الارشاد ٢٥/٣ وغرائب التيسابورى ٧٦/٦ .

وجوز ارازي أن يكون المراد بالأخ من يواخيه في الدين (١٧) ، وهذا بعيد لأن أخى جاءت في القرآن على لسان موسى مراداً به هارون عليهما السلام .

والقصر حقيقي ولكنه غير تحقيقي . ذلك أن الآيات وضحت ، أن ثم رجلين من بني إسرائيل كانا مع موسى وهارون « قال رجلان من الذين يخافون أعم الله عليهما ادخلوا عليهم الباب فإذا دخلتموه فإنكم غالبون » (١٨) لكن موسى أهمه أمر الجماعة العصية فلم يعن بذكر هذين الرجلين ، بعدما صنع الله لبني إسرائيل من النجاة والخير . والقصر شكوى اسمية ضاربة (١٩) ولذا أجاب الله دعاءه « فافرق » فكتب عليهم التيه والتشريد في سيناء أربعين عاماً .

وقال تعالى لنبيه محمد صلى الله عليه وسلم في تألب المنافقين عليه ، وتقصير بعض المؤمنين في طاعته لإذاعتهم بعض أسرار المؤمنين وسراياهم عن قصد حسن ، « فقاتل في سبيل الله لا تكلف الانفسك وحرص المؤمنين » (٢٠) أى لا تكلف إلا فعل نفسك فجملة القصر مقررة لما قبلها ، فإن اختصاص تكليفه صلى الله عليه وسلم بفعل نفسه من موجبات مباشرته القتال وحده ، وفيه كناية عن أن تشبيط المنافقين لا يضره ، ولا يؤاخذ به ، وقرىء تكلف مجزوماً على النهي بالقانون واليقين على البناء للفعل ، والنفس مقصور عليه قصرًا حقيقياً غير تحقيقي ، لأن المؤمنين كفوا أيضاً بالقتال ، ولكن لما كان المقام هنا خاصاً وبالجملة كيد المنافقين وغفلة قلة المسلمين جاء الأسلوب قويا مبنياً على الالتفات ضارياً الصفاح عن المؤمنين في التكليف تعريضاً لإذاعتهم الأفرار من المسلمين ، وبث الثقة العميقة في قلب النبي بأن الله كفيظ بنصر الدين . (٢١)

(١٧) راجع التفسير الكبير ٣/٣٨٩ .

(١٩) راجع الكشاف ١/٤٨٣ .

(٢٠) الآية ٢٢ من سورة النساء .

(٢١) راجع تفسير ابن السعدي ٢/٣٠٩ والشهاب ٣/١٦٢ والألوسي

ومنه قوله تعالى - داعيا المؤمنين الى القرآن وأنه هداية ، وحجة عليهم « فاتبعوه وانقوا لعلهم يرحموا » ، أن تقولوا إنما أنزل الكتاب على طائفتين من قبلك ، وأن كنا عن دراستهم لعافين » (٢٢) وأن نقولوا ، أى لئلا تقولوا يوم القيامة فقيه قصر انزال الكتاب - وال فيه للمهد - على طائفتين : اليهود والنصارى بالتوراة والانجيل ، ولم يذكر تساوها كصحف إبراهيم ، والزبور وغيرهما لشهرة التوراة والانجيل بين الكتبات السماوية بالاستتمال على الوصايا العشر المذكورة قبيل هذه الآية ، ثم ان غيرهما لا أحكام فيهما ، وفي قواهم « وأن كنا عن دراستهم لعافلين » وصف صادق لوقفهم من كتب السابقين لأنهم أميون وليست هذه الكتب بالعربية . (٢٣)

فهو قصر غير تحقيقى ترك فيه ما عدا المقصور عليه لعدم خطره ، والشواهد السابقة من قصر الصفة على الموصوف وهو كثير فى الأساليب ، لأن تفرد الموصوف بصفة لا يتنازك فيها ممكن عقلا وواقعا وكثير على سبيل التخيل والمبالغة .

أما قصر الموصوف على الصفة فقد نصبت مدرسة السكاكى أدلة عقلية صارمة على استحالتها فقالوا انه لا يكاد يوجد من التبليغ المتحرى للصدق لعدم وجوده خارجا ، ولتعدد الاحاطة بصفات الشيء ثم احتمال رفع النقيضين اذ اثبات القيام فى قولك ما زيد الا قام يستلزم الا يتصف بصفة القعود ولا بنقيضها ، وهى عدم القعود وهكذا باقى الصفات (٢٤) وقد استدرك بعضهم بأن المراد اختصاص الموصوف بالصفة

(٢٢) الآية ١٥٥ - ١٥٦ الانعام .

(٢٣) راجع زبا السعوى ٢٠١/٢ والشهاب ١٤٠/٤ والالومى ٦١/٨

(٢٤) راجع شرح التلخيص ١٧٢/٢ والأطول ٢١٤/١ ، وعبد الحكيم

٢٢٩ والامباى ٤٣/٣ .

بالإضافة الى ما يصح أن يتصف به ذلك الموصوف ، مما يدور في إطار تلك الحقة ، ولو بحسب زعم باطل ، ففي قولك : ما هذا الثوب إلا أبيض انما يعنى نفى ما عدا الابيض من الألوان ، ويقدر المستثنى منه ما هذا الثوب ملونا الا أبيض ، دون قصد الى ما يمكن أن يتصف به الثوب من صفات كالأطول وعكسه ، ونوع النسيج ، الى غير ذلك مما هو خارج عن دائرة القصر ، (٢٥) وهذا ترجمة لقول عبد القاهر رحمه الله : المنفى في القصر ما يكون بسبيل المثبت من الصفات القريبه منه ، ففي : ما زيد الا قائم : المنفى : أن يكون جالسا أو مضطجعا أو متكئا أو ما شاكل ذلك لا أن يكون أسود أو أبيض . . . (٢٦)

وقد ترك كثير من مدرسة السكاكي هذا النبع الصافي ، والتحليل الذوقى المتكفي علي الوجدان والفكر معا الى اتجاهات عقلية كثيرة الاحتمالات لأنهم أبناء بيتهم وعصرهم ثم قد يرجعون الى لمحات عبد القاهر في الفينة بعد الفينة تأثرا بالمدرسة الأدبية الفارعة عند ابن الأثير وعلماء الاعجاز والبديع القرآنى والتحليل الأدبى .

واسندرك الامبابي بتحديد دائرة من الصفات المتقاربة تأثرا بعبد القاهر سبيلا لوجود قصر الموصوف على الصفة يمكن أن يقفنا على عديد من الشواهد القرآنية في هذا النوع : قال تعالى : عن قيام الساعة « وما أمر الساعة الا كلمح البصر أو هو أقرب » . (٢٧) وقال « وما أمرنا الا واحدة كلمح بالبصر » (٢٨) فهو وصف لقيام الساعة وأنه يكون خارقا في بعثته وسرعته ، على أسرع ما يمكن أن يتخيله بشر

(٢٥) ثم ان عبد الحكيم نازع في هذا المثال وجعله من قصر الصفة الى قصر تلوين الثوب على بياض وراجع عبد الحكيم ٢٢٩ وتقرير الامبابي ٤٣/٤ .

(٢٦) الدلائل ٢٢٤ . (٢٧) الآية ٧٧ النحل .

(٢٨) الآية ٤٠ القمر وراجع أبا السعود ٨٦/٨ والأوسى ٩٤/٢٧ .

— من ضربهم المثل في سرعة الشيء وانقضائه بأنه لمح البصر ، وقد ترقى الأسلوب مصعدا المعنى فقال : « أو هو أقرب » ليعم ما يدخل تحت الامكانات العقلية والعلمية ، والصفة المثبتة : السرعة الخارقة والمنفى : غير ذلك مما يدور في اطارة من درجات السرعة والتوسط والبطء ، والمقام لا يلتفت الى هذا المنفى لأنه غير مراد تماما .

أما قصر الموصوف على الصفة قصرا حقيقيا على سبيل المبالغة فلا حد له ، تقول ما شوقى الا شاعر تدعى أنه بلغ في الشعر المدى ، حتى كأنه لا صفة له سوى الشعر ، وان كان كاتباً ، وينبغي أن تعلم أن قولك ما زيد الا شاعر لمن ينكر صفة الشاعرية لا لمن يثبت صفة مقابلة كالكتابة والخطابة والا كان قصرا اضافيا ، والقصر الحقيقي في القرآن يرد كثيرا لاوصف الصادق وتأكيد هذا الوصف في مقام قوى ذي ايجاء وظلال متولدة مديدة .

قال تعالى : يصف انتقامه القاهر من قوم عاد بالريح المهلكة « وفي عاد اذ أرسلنا عليهم الريح العقيم ، ما تذر من شيء أتت عليه الا جعلته كالرميم » (٢٩) .

والآيتان من سورة الذاريات وهي مكية ، قصيرة الآيات ، شديدة الجرس ، عنيفة الوقع والايقاع ، مشعة المعانى ، وآيات الانتقام فيها ذات هول ورهبة وتلحظ هنا : أن الفعل يذر جاء كثيرا في معرض الغضب والنتمة ، لأنه بحركاته المتواليه وحروفه الذلقة الخفيفة يصور السرعة الخارقة في الأخذ ومنه : في الوليد : « ذرنى ومن خلقت وحيدا » (٣٠) وفي دعاء نوح عليه السلام : « رب لا تذر على الأرض من الكافرين ديارا » (٣١) .

(٢٩) الآية ٤١ ، ٤٢ الذاريات .
(٣٠) الآية ١١ المدثر . (٣١) الآية ٢٦ نوح .

ومع أن الطرفين في الأسلوب فعلاذ واصفان للريح يؤول الفعل الأول مع الريح بمعنى قصر الريح على تدمير الأشياء فهو وصف لعنفها ، وتدميرها الشامل بأنها ما تترك شيئا قابلا للدمار إلا جعلته زميما ، وقوله « من شيء » يقيد عمومها بنحو من نفوسهم وأموالهم ومساكنهم - كما فعل أبو السعود. ومعه حق « (٣٢) تناسبا مع آية الأحقاف «ندم كل شيء بأمر ربها فأصبحوا لا يرى إلا مساكنهم» (٣٣) «تبقى هذه المساكن عبرة للأجيال» .

وقال تعالى : « وما كان لبشر أن يكلمه الله الا وحيا أو من وراء حجاب أو يرسل رسولا فيوحي بأذنه ما يشاء » (٣٤) والمراد بالوحي: الصوت الخفي ، ليكون الاستثناء متصلا (٣٥) وقد قصر تكليم الله للبشر واتصاله بهم على هذه الطرق قصرا تحقيقا ، نفيا لكل ما يمكن أن يزعم من الاتصال بالملأ الأعلى ، وسبك الأسلوب في صورة حقيقة ناصعة يزهق كل باطل يروجه دعي آفك أو ماكر ماجن أو عدو للأديين وقد ابتلى بهم زماننا أكثر من أي زمان .

وقال تعالى في آكلى الربا « الذين يأكلون الربا لا يقومون الا كما يقوم الذى يتخبطه الشيطان من المس » (٣٦) فهو اون من جزائهم حين يقومون من قبورهم يوم الدين ، فيقصر قيامهم على هذا المشهد الفريد والقيام الغريب ، وهو قيام المصروع المتخبط أو المجنون (٣٧) .

والمصروع من به داء الصرع وكان العرب ينسبونه الى عس من الشيطان فهو مفزع مضطرب مذهب به اكل مذهب ، لا تتحكم ارادته

(٣٢) تفسير أبى السعود ٨/ ٨٦ .

(٣٣) الآية ٢٥ الأحقاف (٣٤) الآية ٥١ الشورى .

(٣٥) راجع الشهاب ٧/ ٤٢٩ .

(٣٦) الآية ٢٧٥ البقرة .

(٣٧) راجع البحر ٢/ ٣٣٤ والشهاب ٢/ ٢٤٧ .

أو عقله في حركات أعضائه المتخالفة ويضاف الى هذه الصورة المتداخلة الحركات هذا البطن المتضخم بسبب الربا في الدنيا الذي تشمله الحركات أيضا تشبيهاً وتنقيراً مقررًا ، والتشبيه وصفٌ لمخدر محذوف أى الا قياما كقيام الذي يتخبطه الشيطان جزاءً وفاقا بينه الحديث الصحيح .

طول الطرفين :

والموصوف أو الصفة — في القرآن الكريم — قد يكون ذا أجزاء متوالية مستوعبة ، تشمل مفردات متعاطفة ، أو جمليتين ، أو جملاً — وفرة في الدلالة ، وصدقاً في الأداء ، ووفاء بالأغراض كقوله تعالى : في غزوة العسرة يصف أحوال المؤمنين ، ويرصد تحركاتهم ، ويشيد ببذلهم في سبيل الله « ذلك بأنهم لا يصيبهم ظمأ ولا نصب ، ولا مخمصة في سبيل الله ، ولا يظأون موطئاً يعيظ الكفار ولا ينالون من عدو نيلاً الا كتب لهم به عمل صالح إن الله لا يضيع أجر المحسنين ، ولا ينفقون نفقة صغيرة ولا كبيرة ولا يقطعون وادياً الا كتب لهم ليجزيهم الله أحسن ما كانوا يعملون » (٣٨) . وقد كان صيفا قائظاً ، وشم قصران ، شمل الأول خمس حالات متعاقبة تبدأ ، بالظمأ ، فالنصب فالجوع والمسغبة ثم احتلالهم مواطن تغيظ عدوهم وهذا معنى « يظأون » أو يوقعون بهم ، والأول أولى حتى لا يتكرر مع : ينالون من عدوهم ، وهى المرحلة الخاتمة وقد جاءت لا النافية مع كل حال ، أفراداً لها ، وأئسادة بها . ولذا وحده الضمير في « به » أى بكل واحد مما تقدم . وقد قصر ذلك على كتابته عملاً صالحاً ، كناية عن الرضا وجزيل الثوبة ، وقصر في الآية الثانية : الأنفاق وقطع الفيافي والوديان سمياً لهم أعدائهم على كتابته بذاته ، وأفاد القصران الاستحقاق اللازم بمقتضى

وعده الكريم تعالى — وللعلماء في تحليل الصياغة في القصصين نظراته
خاتمة :

فالترتيب في القصر الأولى : حسب كثرة الوقوع وقلته ، وشدة
الأثر في النفس ، فالظماً أشد وأكثر مما يليه وأعتقد ان التسلسل أعم
من ذلك : فهو تسلسل زمانى متعاقب ومكانى وترتيب في الأحداث
حسب وقوعها فالظماً أول ما يصيبهم — في سفرهم الشاق — ثم
احساس بالتعب ولذلك ولطبيعة الأسفار في الهجرة ، وشعور بالجوع
الحاد بعد عناء ولكنه يهون لأنه في سبيل الله ان قوة الايمان تنسى
التعب وها هم أولاء يقتطفون اوائل الثمار فيطأون موطئاً مغيظاً للكفار
وهو تصوير للشدة والعزة على الكفار ثم النهاية للواعدة بالنيل والظفر .

وفي الآية الثانية يصور حدثين أحدهما انفاق المال تغلباً على
حقبات النفس وتصفية لها من الأكدار . والثانى : قطع الفيافي والوديين
ركضاً الى أعدائهم ايماناً واحتساباً ، وذكر العمل في الآية الأولى
« عمل صالح » لأنها مشتملة على ما هو من عملهم وهو الوطاء والنيل
من العدو وعلى ما لا دخل لهم فيه من متطلبات الجسد كالتسلسل
بالظماً والنصب والمخمة وقد أجراه الله بفضل مجرى عملهم لما كان
يسبب من جهادهم في سبيله :

والآية الثانية مشتملة على الانفاق ، والمشاق وقطع المسافات ،
فكتب ذلك لهم بعينه وقال ليجزيهم الله أحسن ما كانوا يعملون ،
وختم الأولى بقوله « ان الله لا يضيع أجر المحسنين » فألحق بعملهم
ما ليس منه ، ثم جازاهم عليه كله أحسن الجزاء ، وراقهم فجعلهم
محسنين ، واضحا المظهر موضع المضمرة اشادة به واشتعلوا بسببه
الجزاء وقدمهم لكثرة ما عانوا في سبيله اعلاء لكلمته (٣٩) .

(٣٩) راجع في الآيتين : الكشاف ٢/٢٠ ، والبحر ٥/١١٢٣ ،

== (١١١) - (١١٢) - (١١٣) ==

ومنه قول الله تعالى « وما تكون في شأن ، وما تتلو منه من قرآن ولا تعملون من عمل الا كنا عليكم شهودا اذ تفيضون فيه » (٤٠) وفيه قصر لهذه الحالات الثلاث التي تشمل كل أمر النبي صلى الله عليه وسلم — وسلوكه ثم اعمال البشر على وجه العموم على كونها مشهودة مراقبة من الله تعالى ، تربية للضمير ، وغرسا للمراقبة في أعماق الانسان ، وهو من خطاب الواحد المراد به العموم (٤١) •

وقال الله تعالى من قصة آدم عليه السلام « فوسوس لهما الشيطان ليبدى لهما ما وورى عنهما من سواتهما وقال : ما نهاكما ربكما عن هذه الشجرة الا أن تكونا ملكين ، أو تكونا من الخالدين » (٤٢) •

فالشيطان بكذبه الناعم ، وخداعه الأملس ، يحاول أن يزرع الشك ، ويحل الحرام ، بتبرير ، واه ليكونوا سواء في غضب الله ، وما بعد الا : مضاف محذوف واقع مفعولا له : أى كراهة أو خشية أن تصيرا من الملائكة أو يكتب اكما الخلود — وهى رغبة بشرية فطرية — فهو استثناء من المفعول لأجله قصر موصوف على صفة ، وهو قصر يعبر عن ختل الشيطان وسوسته وكيدته •

وقد يكون المقصور عليه في معرض صورة بيانية كالتشبيه ، تمثل حالا خاصة لها جمال التصوير والتأثير متعاقبا مع فورة التوكيد كقوله تعالى « له دعوة الحق ، والذين يدعون من دونه ، لا يستجيبون

وأبى السعود ١١١/٤ والشهاب ٣٧٦/٤ ، والاسكافي ٢٠٤ والكرمانى ١٠١
والألوسى ٤٧/١١ •

(٤٠) يونس ٦١ •

(٤١) الجملة بعد الاحال والأحاط قبلها تفيد اللوام وراجع البحر

١٧٣/٥ ، والألوسى ١٤٤/١١ •

(٤٢) الأعراف ٢٠ وراجع الشهاب ١٥٨/٤ وغرائب النيسابورى

٩٠/٨ •

لهم بشيء الا كباسط كفيه الى الماء ليبلغ فاه وما هو ببالغه وما دعاء الكافرين الا في ضلال» (٤٣) فبعد أن ذكر آيات القدرة والكبرياء في سورة الرعد ذكر ما تدل عليه هذه الآيات وهو أن الله تعالى - وحده - دعوة الحق والصدق والتوحيد ، ثم صور بطريق الطباق : أن الاصنام والشركاء باطلة لا تنفع ولا تجيب دعاء ، وقد جمعها جميع عاقل لأنها في أرواهم عاقلة ، وقد نفى عنها الاستجابة الا في حال واحدة ذكرها فاذا هي حال ميثوس منها • تأكيداً لنفى الاستجابة ، إذ المعلق على المحال محال ، والطرفان في غاية التباين والتجاذب ، وقد جاء المقصور عليه صورة تشبيه غريبة غرابة تفكيرهم ، فالمشبه به هيئة انسان غرثان يكاد يهلكه الظماً لكنه لعبائه المستحکم يقف أمام الماء للنجارى باسطاً كفيه في جلاهة وسذاجة طائفاً أن بسط الكفين سيوصل الماء الى فمه وينقع غلته والماء في طريقه لا يلوى على شيء ، انه تشبيه طريف يرسم صورة هازئة هائلة أبداً للعين والخيال تفجر ظلالات متولدة للقدامة والغباء وضياع المقصد والنتفع ، والاستثناء مفزع من عموم الأحوال أو عموم المصادر ، أى لا يستجيبون لهم بشيء الا استجابة كاستجابة الماء لمن يبسط كفيه ، قصر موصوف على صفة وقد يومىء هذا الطول في المشبه به الى أن مسعى الكافرين وحركة حياتهم المرتبطة بالوثنية ، وطول دعائهم لاصنامهم مده أعمارهم هباء في هباء لا يحقق رغبة ، ولا يلبي مطلب الفطرة ، فهم بالعبث وله يعيشون •

حذف الموصوف

والموصوف في القصر لا يخلقه الا الله فكان محاماً وتدل عليه صفتها الخاصة كقول الله تعالى عن الملائكة « وما منا الا له مقام معلوم » (٤٢)

(٤٩) الرعد ١٤ وراجع الشهاب ٥/٢٣-٢٤ والوسى ١٣/١٢٥ والتفسير

الفين ٤١ •

(٤٤) الآية ١٦٤ الصافات ، وراجع البيضاوى وتعليق الشهاب ١/٢٩٠

وهو اعتراف من الملائكة بحد معروف في المعرفة والعبادة يفتخرون
اليه دون تجاوز بل طاعة ونزول على أمر الله في تدبير العالم .

وهو إقرار بالعبودية ورد على من عبدهم ذلك أنهم خلاق من
الخلق له طاقات معينة موهوبة من الله لأداء رسالة خاصة وما وراء ذلك
لا تتأله قدرهم بل هو العجز الكامل أما الكمال المطلق في الذات والصفات
فهو لله الخالق المعبود .

وقال تعالى «وان منكم الا واردها كان على ربك حتما مقضيا» (٤٥)

والضمير عائد على النار : ومعنى الورد الدخول اذا كان الخطاب
للمؤمنين وتكون عليهم بردا وسلاما . كقار ابراهيم .

وجاز أن يكون الخطاب عاما للناس والمراد بالورود الجواز على
الصراط أو الجثو حولها بدليل : ثم تنجى الذين اتقوا ونذر الظالمين
فيها جنيا » .

والموصوف محذوف تقديره : وان منكم أحد . . . وقد كثر حذفه
لعمومه وللقصد مباشرة الى الصفة التي تخصص الموصوف وتحدده .
استثمار الفائدة .

القصر الاضافي

هو تخصيص شيء بشيء دون غيره ، أو مكانه ، فالنفي المتقابل
للمقصود عليه ، خاص معين وقد جعلوا اعتقاد المخاطب أساسا لتقسيم
الاضافي ، فاذا كان المخاطب يعتقد الشركة بين المقصود عليه ، وما يقابله
أي شركة صفتين في موصوف واحد ، أو موصوفين في صفة واحدة كان

من القصر لافراد المقصور بالمقصور عليه ونفى ما يقابله ، ويسمى قصر افراد .

وإذا كان المخاطب يعتقد عكس ما يثبت المتكلم ويراه ، من صفة أو موصوف ، يسمى القصر قصر قلب ، لقلبه حكم المخاطب ، وتبديله ، وإذا كان مترددا في اثبات الصفتين أو الموصوفين أو إحداهما أو جزم بأحدهما وتردد في الآخر يسمى قصر تعيين لتعيينه ما هو غير معين عند المخاطب (٤٦) .

على هذا سار التلخيص وشراحه وحواشيه وما ألف من كتب بلاغية حديثة .

موقفنا من قصر التعيين :

والواقع أننا لم نقنع بجعل التعيين من أنواع الإضافي ذلك الذي اقتضته القسمة العقلية لهذه الأسباب :

١ - لم ينص عليه الأمامان عبد القاهر والسكاكي ، اللهم الا ألفاظا توضيحية جاءت في تحليل عبد القاهر كقوله « اذا رأيت شخصا من بعيد فقلت : ما هو الا زيد ، لم تقاه الا وصاحبك يتوهم أنه ليس بزيد ، وأنه انسان آخر ويجد في الانكار أن يكون زيدا » ولخص ذلك قائلا « وبالجملة : النفي لا يجيء لمعلوم الا لمعنى صار به في حكم المشكوك فيه ونحو وما أنت الا نذير » (٤٧)

والشك والتوهم في عبارة الامام خاص ببدء الاحساس حين يكون شكاً ثم يتصاعد حتى يكون انكاراً ، على أن ما استشهد به من

الآية الكريمة واضح في قصر الافراد التتريخي أى أن رسول الله صلى الله عليه وسلم نذير لاهاد لانهم أموات تحقق موتهم كأصحاب القبور، وفيه تعريض ودود بالنبي العظيم .

وكذلك قال السكاكى « زيد قائم لا قاعد لمن يتوهم زيذا على أحد الوصفين من غير ترجيح ويسمى هذا قصر افراد بمعنى أنه يزيل شركة الثانى » (٤٨) .

وقد أولوا عباره السكاكى بأن ازالة الشركة المتيقنة افراد ، والشركة الاحتمالية تعيين ، ويرى آخر أن المتردد المتوهم مطلقيا فى التعيين سواء كان فى الاشتراك أو العكس ، وهذا كله من باب الاحتمالات المنطقية وهى بعيدة عن دنيا الاساليب بمراحل كما أنه وهم ان كان استنتاجا من كلام عبد القاهر والسكاكى .

٢ — أننا نم نعثر على شاهد أدبى معتبر لقصر التعيين كما لم يذكر واحد من المفسرين المهتمين بالبلاغة القرآنية شاهدا له . وقد وقعت على نص وحيد للشهاب الخفاجى موهم فى حواشيه عند تفسير الآية الكريمة « هو الذى جعل لكم الليل لتسكنوا فيه والنهار مبصرا ان فى ذلك لايات لقوم يسمعون » (٤٩) .

قال رحمه الله « تعريف الطرفين (هو الذى) أفاد القصر بمعنى دلالة القدرة على التحكم فى الليل والنهار على العبادة ، وحصر العبادة أو قصرها على هو » . قال : انه قصر تعيين « (١) .

والقدرة الكاملة والنعمة الشاملة لا تدل على العبادة ، بل على استحقاق العبادة كما قال أبو السعود ، ولعل التعيين الذى عناه الشهاب

اشارة الى رأى الرازى من أن لتسكنوا لا يدل على أنه لا حكمة فيه الا ذلك ، بل ذلك يقتضى حصول تلك الحكمة ، اذ قوله « ان فى ذلك آيات لقوم يسمعون » يدل على أنه أراد بتخليق الليل والنهار أنواعا كثيره من الدلائل » (٥١) كما نبه ابو السعود الى سبب تخصيص الآيات بالذين يسمعون مع أنها منصوبة لمصلحة الجميع لا أنهم المنفكسون بها « (٥٢) » .

فقد أشطر الأبهامان اللذين من ثلوان التعيين بمعناه اللغوى أى تعيين بعض الدلائل فى الليل والنهار ، وتعيين المنتفعين بهذه الآيات ، وليس المراد قصر التعيين بل ان قصر الموصول بصلته على الضمير (هو الذى) - قصر حقيقى تحقيقى الحاقه بنظائره من هذه الأساليب المتكاثرة فى الذكر الحكيم وليس هنا تردد حتى على فرض أن الخطاب علم أو خاص بالكافرين لأنهم معترفون بالخالق أو وحدة الربوبية . « ولئن سألتهم من خلق السموات والأرض ، وسخر الشمس والقمر ليقولن الله » (٥٣) .

٣ - التردد عملية نفسية عقلية تزول بأدنى تأكيد ولا تقتضى أسلوب القصر الذى هو تأكيد فوق تأكيد أو قل لا تتجمله ، وقد حاشى الدسوقى والعضام والامبايى حول هذا المعنى حين ذكروه عن النفس والاستثناء وأنه فيما يجمله المخاطب ويذكره : « استعماله فى قصر التعيين على خلاف الأطلل اذ المتردد لا انكر جنده » (٥٤) ولم تستثمر هذه الاشارة الواعية .

(٥١) تفسير الرازى ١٣/٥ .

(٥٢) العنكبوت ٦١

(٥٣) تفسيره ١٦٢/٤

(٥٤) الأطول ٢٢٦/١ وحاشية الدسوقى ٢١٤/٢ وتجويد الامتابى

فكرة المخاطب :

شهد النصف الأول من هذا القرن جدلاً عنيفاً ، ومعارك نقدية بين حماة التراث وتلامذة المستشرقين الذين رددوا آراءهم المفتراه على الأدب العربي والبلاغة العربية بحجة البحث العلمي وحرية الرأي وحباً مزعوماً للتجديد والتطور ، ومن الناحية النفسية فانبهارهم بحضارة الغرب المادية جعلت منهم أبواقاً لغزوه الثقافي ، ومن هنا انبعثت دعوات غريبة جريئة فمن قائل ان بلاغة العرب صورة مبتسرة من بلاغة اليونان ومنهم من دعا إلى تحطيم البلاغة العربية بالنقد الغربي ، كما دعا بعضهم إلى نبذها لتموت مع الماضي وبعث علم جديد أعم يأخذ من النقد والأدب وعلم اللغة والاجتماع كالأسلوب والأسلوبية والبنوية وقد واكب ذلك الدعوة إلى التفكير بالصورة ومحاولة تحطيم الشعر العمودي ونصرة الشعر الحر سواء فهمت رموزه المثلثية أم ظلت تهيمت وأحلام يقظة وتنفيس العقل الباطن أو اللاوعي وحينذاك لا يحتاج ناقدنا بل محلاً نفسياً ، وكثير من هذه الدعوات مشبوهة وتدين لغير العربية والإسلام . ثم ان كثيراً من جيل الرواد ومن بعدهم وقف لهؤلاء بالمرصاد وهم كثير جداً كالعقاد والرافعي وسيد قطب ومحمود شاكر وأنور الجندي وغيرهم .

ثم كان البعث الإسلامي الحديث والنهضة اللغوية التي تلتهم بالتراث وتبلى عليه وتتفر من كل غريب الوجه والبيان ذلك الذي يقوم على تراث وثني أو غير إسلامي ولا تتاح لنا مناسبة إلا ونبهنا فيها على زيف الدعاوى الوافدة ، ذلك أن عديداً من الكتب المناهضة للبعث العربي تطبع كما أن بعضاً ممن وفر على نفسه عناء البحث والاطمأن بجزء من التراث مازال يروج لهذا الزيف وكأنه أم يخرج من مسيرته في دنيا العلم والثقافة إلا بالأسنة من النقد والتلب والتجريح وفكرة المخاطب

التي ادعى ان البلاغة العربية بلاغة مخاطب مما يهمنها هنا وقد رد الدكتور محمد أبو موسى بأسلوبه المتأمل وحججه الدامغة (٥٥) .

ولا بأس هنا أن تفرع وأن نصيف وجوه من الرأي استقيناها من التراث النقدي والبلاغي وعلوم القرآن . حصانه لابنائنا من زمن يقال فيه كل شيء . وأصل الفكرة - في القصر الاضافي - أنه مرتبط في مدرسة السكاكي بالمخاطب ، كما أن التوكيد مرتبط - في بعض جوانبه - بالمخاطب أيضا .

ومع أن اتجاه السكاكي يقابله الاتجاه الأدبي وقد نبه مثل عبد القاهر الى أهمية المتكلم في الصياغة بوجه عام وفي التأكيد بوجه خاص نلاحظ هنا :

١ - فكرة المخاطب في التراث البلاغي وغيره - فكرة افتراضية تعليمية ، ووسيلة من وسائل التوضيح والبيان ولذا تفترض كثير من الكتب مخاطبا ، ضمنا لاهتمام المتلقى ، والتأثير فيه .

٢ - فكرة المخاطب في الأدب جاءت على نهج أدبي اختطه القدماء ، فقد كان الشاعر مثلا يقطع الفيافي وحيدا فيفترض صاحباً أو صاحبين ، ومنبع هذا الافتراض أن أقل الرفقة - كما يقولون - (٥٦) ثلاثة يخاطب أحدهم صاحبيه ، وقريب من ذلك أن يجرد الشاعر من نفسه شخصا يخاطبه أو يلتفت اليه ، وقد يخاطب ناقته أو عينه أو قلبه ، أو أحد مظاهر الطبيعة ، وذلك في حالات الانفعال المتوقد ، أو الانتشار الوجدان وعلى ذلك سار النهج الأدبي منذ امرئ القيس وحتى يوم الناس هذا امتلات به الدواوين وغصت به كتب البيان .

وعلى ذلك جاء قوله تعالى « ألقيا في جهنم كل كفار عنيد » (٥٧)

(٥٥) انظر دلالات التراكيب .

(٥٧) ق ٢٤

(٥٦) راجع البحر ١٢٦/٨

مع أن الخطاب لملك خازن النار أو للممكن أو لواحد على تنزيله تنبيه
الفاعل منزلة تنبيه الفعل وتكريره كقول بعضهم :

فلن تزيروا مني يا ابن علقم أنزجروا . . . وان قد عاني أحم عرضة ممنعا

ومع أن التفسير الأول غير متعين ولا هو أقوى الآراء يدل على ما استقر
في قلوب الأئمة من نهج عربى هو مخاطبة الصاحبين واقفا أو افتراضا
كقول الججاج الثقفى يا جرس اضربا عنقه (٥٨) .

٣ - ما ذكره أصحاب الحواشى كعبد الحكيم وهو أشدهم
إغراقا في العمق «لن المتكلم لا يورد الكلام إلا على حسب اعتقاده» (٥٩)
لكن لا بد من مخاطب ، وهو أمر بدهى - إذ لو لا ما احتيج إليه التمييز
عما في نفس المتكلم كما يقول السهلى (٦٠) .

٤ - في التراث الإسلامى مئات من المؤلفات في اعجاز القرآن ،
وبلاغته وبديع القرآن وعلوم القرآن ، والتفاسير التى تترسم خطا
الكشاف في اتجاهه البيانى بالاضافة الى كتب النغم الأدهى وشرح
النصوص أعنى القصائد والدواوين ، والبلاغة ذات الأقسام الأدبى
التحليلى وكتب شرح الحديث ذات الاتجاه البلاغى الى غير ذلك حشد
ضخم رائع لا نجد لفكرة المخاطب المزعومة تأثيرا في التأليف أو التقسيم
والتحليل ، على أننا لو نظرنا بدقة الى فروع البلاغة عند السكاكى
ذاته وقد حمله بعض المعاصرين أوزارا لا تتخلها الجبال من دمار
البلاغة ونضوب الذوق ولا غيب الا أنه ليس غريبا مقبعا رجحانه
الله أقول لو دققنا النظر لوجدنا أن فكرة المخاطب بمنأى عن علم البيان
بفروعه ، وعلم البديع بألوانه ولا يدخل من أبواب علم المعانى الثمانية

(٥٨) راجع أبا السعود ١٢١/٨ والبرهان للزركشى ٢٣٩/٢

(٥٩) حاشيته ٣١١ راجع نتائج الفكر ٢١٨

(٦٠) (٦٠) (٦٠) (٦٠)
(٦٠ - القصر)

إلا في نكتف من القصر الإضافي وجانب من الإسناد الخبري والخبر
تأكيدا .

نعم يتقاسى الناقمون كل ذلك بله قل يتجاهله قليله ويجهله كثير
ولا يتقنون الا ارسال الاحكام الخاطئة في كثير منها دون علم ولا بصيرة
ولا احتياط يتجمل به العلماء .

ومن الطريف أن نجد في القصر الإضافي ذاته افرادا أو قلوبا — في
الأسلوب — القرآني ما هو بعيد عن المخاطب .

تأمل من خطابات البشر لله تعالى العليم بما تخفى الصدور : قول
عيسى عليه السلام لربه جل وعلا بمحض من أشرك به : براءة منهم
وادانة « ما قلت لهم الا ما أمرتني به ان اعبدوا الله » (٦١) — أى معنا
أمرتني به من التوحيد لا هذا الاشرار فهو قصر قلب للصفات بعيد عن
المخاطب سبحانه .

وقالته امرأة العزيز — حين فجأها زوجها وكان خالي الذهن تماما
« ما جزاء من أراد بأهلك سوءا الا أن يسجن أو عذاب اليم » (٦٢)
وقد عرضت بيوسف ثم أجملت السوء حياء ، ثم اقترحت ليوسف عقابا
ببيقيه حيا ، فمازالت اليه حاجة ولذا قدمت السجن ، وقولها عذاب اليم
تهويل نساء ، وقناع فيه كيد ودهاء ، وقول النسوة لرايين يوسف :
« ما هذا بشرا ان هذا الا ملك كريم » (٦٣) قصر قلب ولا مخاطب
هناك ان القلب هنا يتكلم بمشاعره في غيبة عقل ذهول .

هذا قل من كثر وان أردت المزيد مما جاء فيه القصر الإضافي بعيدا

(٦١) المائة ١١٧

(٦٣) يوسف ٣١ .

(٦٢) يوسف ٢٥

عن المخاطب فإليك بعضاً من الآيات ونحريك على المراجع لتعرف أننا لو
أحسننا قراءة التراث لوجدنا فيه زادا ومعينا . مثلا في سورة البقرة
٢٠٣ - قال تعالى « فكيف إذا أصابتهم مصيبة بما قدمت أيديهم ثم
جاءوك يحلفون بالله ان أردنا الا احسانا وتوفيقا » (٦٤) .

٢ - وقالوا لن يدخل الجنة الا من كان هودا أو نصارى تلك
آياتهم » (٩٥) .
٣ - ولو فتحنا عليهم بابا من السماء فظلوا فيه يجرون تلقاوا
انما سكرت أبصارنا » (٦٦) .

٤ - وتأمل قول الكافرين بعد أن وجدوا أعمالهم غير الكفر
مسطرة في صحفهم : « يا ويلتنا مال هذا الكتاب لا يغادر صغيرة ولا
كبيرة الا أحصاها » (٦٧) . فهو تجسيد لحسرتهم وندمهم ومشاعرهم
الداكنة ، والاحصاء كناية عن الاحاطة التامة ، وليس هنا خطاب
ولا مخاطب ، بل ان معظم أقوال المعذبين - وقد جاء بعضها في أسلوب
القصر - جوار وصرخات وحسرات - ولم يبق لهم من حرية - في بعض
المواطن - الا حرية التعبير عن آلامهم الزاعقة ونفوسهم المحطمة ولات
حين صراخ . وهذا غيض من فيض .

(٦٤) الآية ٦٢ النساء وراجع فيها : الكشاف ٤١٧/١ والارشاد

١٩٦/٢ والنيسابورى ٧١/٥ والشهاب ١٥٠/٣ .

(٦٥) الآية ١١١ البقرة وراجع الارشاد أبى السعود ١١٩/١

والشهاب ٢٢٤/٢ .

(٦٦) الآية ١٥ الحجر وراجع الشهاب ٢٨٦/٥

(٦٧) الآية ٤٩ الكهف وراجع الشهاب ١٠٨/٦ .

ولا يعنى ذلك أن نجذف ما يتعلق بالمخاطب أو الملقى أو المستمع
فشطر كبير جدا من الفنون والعلوم ، والصحافة وسائر أجهزة الأعلام
موجهة للمخاطب لا يفكر ذلك إلا من به مس وانما نعني - حتى في
ضوء هذه الحقيقة .

ان البلاغة العربية أدبا وفنبا وعلميا كانت أوسع دائرة
وأشمل اتجاها ، منذ كانت وقبل أن توجد التيارات الفنية الحديثة
من الفن للفن أو الرومانسية أو الرمزية ويبدو أن النقد للنقد والثلث
للثلاث أصبح هدفا بعد أن كان وسيلة كذرة .

بمستطاعنا ان نرى ان سبب زوال البلاغة العربية عن
أرضها قديم جدا ، فالبلاغة العربية لم تكن يوما
مستقلة مستوحاة وهادئة ومعتدلة ، بل كانت
مربطتة بلسانها في سائر العلوم والفنون
والادب ، بل كانت البلاغة العربية هي التي
كانت تخلق الفنون والفنانات ، بل كانت
البلاغة العربية هي التي كانت تخلق
الفنون والفنانات ، بل كانت البلاغة
العربية هي التي كانت تخلق الفنون
والفنانات ، بل كانت البلاغة العربية
هي التي كانت تخلق الفنون والفنانات .

بمستطاعنا ان نرى ان سبب زوال البلاغة العربية عن
أرضها قديم جدا ، فالبلاغة العربية لم تكن يوما
مستقلة مستوحاة وهادئة ومعتدلة ، بل كانت
مربطتة بلسانها في سائر العلوم والفنون
والادب ، بل كانت البلاغة العربية هي التي
كانت تخلق الفنون والفنانات ، بل كانت
البلاغة العربية هي التي كانت تخلق
الفنون والفنانات ، بل كانت البلاغة
العربية هي التي كانت تخلق الفنون
والفنانات ، بل كانت البلاغة العربية
هي التي كانت تخلق الفنون والفنانات .

بمستطاعنا ان نرى ان سبب زوال البلاغة العربية عن
أرضها قديم جدا ، فالبلاغة العربية لم تكن يوما
مستقلة مستوحاة وهادئة ومعتدلة ، بل كانت
مربطتة بلسانها في سائر العلوم والفنون
والادب ، بل كانت البلاغة العربية هي التي
كانت تخلق الفنون والفنانات ، بل كانت
البلاغة العربية هي التي كانت تخلق
الفنون والفنانات ، بل كانت البلاغة
العربية هي التي كانت تخلق الفنون
والفنانات ، بل كانت البلاغة العربية
هي التي كانت تخلق الفنون والفنانات .

بمستطاعنا ان نرى ان سبب زوال البلاغة العربية عن
أرضها قديم جدا ، فالبلاغة العربية لم تكن يوما
مستقلة مستوحاة وهادئة ومعتدلة ، بل كانت
مربطتة بلسانها في سائر العلوم والفنون
والادب ، بل كانت البلاغة العربية هي التي
كانت تخلق الفنون والفنانات ، بل كانت
البلاغة العربية هي التي كانت تخلق
الفنون والفنانات ، بل كانت البلاغة
العربية هي التي كانت تخلق الفنون
والفنانات ، بل كانت البلاغة العربية
هي التي كانت تخلق الفنون والفنانات .

قصر القلب

وقصر القلب يكون في الصفات المتقابلة (١) أو الصفة ونقيضها ، أو الموصوفات المتقابلة — لا بذواتها — فان الذوات لا تتقابل ، بل بما تحمل من صفات كالمؤمنين والكافرين والمنفقين والملائكة والشياطين والجزاءات المتقابلة .

وقد جاء هذا النوع كثيرا في أساليب كثيرة يمثل كثير منها قضايا قرآنية خاصة أسهم فيها القصر بدور واضح : ومن ذلك :

القرآن الكريم بلاغة ورسالة :

والقرآن الكريم وما جاء به من وحدانية الله وصفات كماله والايمان به تعالى ، وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر وسائر قضائيه التي تمثل رسالة الاسلام الخاتم جاء في أسلوب معجز تحدى العرب — وهم أولو البيان — ببلاغته ان يأتوا ولو بمثل سورة من سورة — كما هو معلوم من آيات المعاجزة — ولكنهم أبلسوا وعجزوا وعصوا أناملهم غيظا . وقد بقى الرسول يتحداهم مدة عشرين سنة مزريا عليهم أديانهم ، مسفها آراءهم وأحلامهم ، حتى ناصبوه الحرب ، فأريقت المهج وقطعت الارحام كما يقول الخطابي (٢) : ولم يتفقوا اراء القرآن على كلمة سواء لان قهر النظم القرآني كان غالبا فهم يقولون « ان هذا الا قول البشر » (٤) ان هذا الا افك افتراه وأعانه عليه قوم آخرون « (٥) «ان هذا الا أساطير الأولين » (٦) « ان هذا الا

(١) راجع الأيضاح ٢١٤ .

(٢) بيان اعجاز القرآن : الخطابي ٢١ ضمن ثلاث مسائل في اعجاز

(٣) الملائمة ١١٠ .

القرآن .

(٤) المدثر ٥٤ — ٢٥ .

(٥) الفرقان ٤

(٦) المدثر ٥٤ — ٢٥ .

(٦) المؤمنون ٨٣

اختلاق « (٧) ان هو الا رجلا به حنيفة « (٨) » ان تتبعون الا رجلا مسحورا « (٩) » بل قالوا اضغاث أحلام بل افتراه بل هو مسخر « (١٠) » الى غير ذلك كثير بأساليب متنوعة ، ونلاحظ في هذا الصدد :

١ - أن القرآن الكريم نسب هذه الأقوال الى جمهورتهم « الذين كفروا غالبا بهذا الوصف الدال أو ضميرهم - دليلا على اشتراكهم في هذا الوزر ، وعلى بالغ اهتمامهم وحيرتهم وقد مهد لهم ذلك أحكامهم وهو الوليد بن المغيرة في قصة ذكرتها سورة المدثر تلك التي ترسم صورة فذة ساخرة لتفكيره ، ومراحل هذا التفكير ، واستعراقه فيه وحيرته ، وما أخذه من زمن وشمله من عناء واجهاد عقل تلونت به بيئته من عبوس وبس « ثم نظر ثم عبس وبسر ثم أدبر واستكبر فقال ان هذا الإسجر يؤثر « (١١) ثم صار على كل لسان ومثل ذلك زيغ النضر بن الحارث وكان كثير الأسفار يحكى قصص الأعاجم ويقول عن القرآن « لو نشاء لقلنا مثل هذا » فقد جعله الله قولا لهم ، لأنهم رضوا به ، وكان يعبر عن حقدهم وجريهم وراء من ينسب للقرآن العظيم أى سوء « واذا تتلى عليهم آياتنا قالوا قد سمعنا لو نشاء لقلنا مثل هذا ان هذا الا أساطير الأولين « (١٢) » .

وقد جاء موقف المشركين من القرآن في أساليب متفاوتة لينا وعنفا وتفاوتا بين عدم التأكيد أو التوكيد قليلا أو كثيرا حسب المقامات وعلى قمتها القصر الذى يترجم عن الأنفعال الناثر المتوتر حين تغلى الأحاسيس بالغیظ والكمد والضيق فيطلقونها عنيفة في سرعة لاهثة ،

(٧) ص ٧

(٨) المؤمنون ٢٥ (٩) الإسراء ٤٧ (١٠) الأنبياء ٥ (١١) المدثر ١٤ - ٢٢ وراجع بيان الخطابى ٢٨ (١٢) الأنفال ٣١

كانهم يتخففون من عبء ثقل ظانين أن كلماتهم تلك قد تخفق أثر القرآن للغلاب ، أو تطفئ نوره الدائم ، بل كانوا يتواصون أن يفروا عند سماعهم الغاء له أو يحدثوا لغوا وأصواتا تغطي على صوته محاولة صغيرة طفولية عابثة « وقال الذين كفروا لا تسمعوا لهذا القرآن والغوا فيه لعلكم تغلبون » (١٣) .

وهم في أساليب القصر يقصرون (هذا) وما له من دلالة معبرة يقصدون القرآن وما جاء به ، على الواقع بعد الا من ضقة : وقد تقاربت دلالتها ، والغالب صوغهم هذه الصفات على هيئة المصائر فهو ذات السحر وعين الافك والاختلاق ونفس الأساطير تحقيقا للخبر دون تشبيهه . ولنفى صفتة القاهرة ، وهي أنه حق وصدق ، اثاره لغيار من الأوهام ، كما أنهم وصفوه - صلى الله عليه وسلم - بصفات مشابهة لما وصفوا به القرآن من أنه عليه الصلاة والسلام - وحاشاه - ساحر أو مفتر ، أو به جنة أو شعر أو انما يعلمه بشر لينفوا علاقته بمصدره القدسي وهو أنه من عند الله وهو ما يروج له أعداء الاسلام الآن فسادا وغلوا وجقدا .

قال الدكتور دراز رحمه الله معلقا على آية الأنبياء « فهذه الجملة القصيرة تمثل لك بما فيها من توالي حروف الاضراب ، مقدار ما أصابهم من الحيرة والاضطراب في رأيهم ، وتريك من ضلالها صورة شاهد الزور إذا شعر بحرج موقفه : كيف ينقاب ذات اليمين وذات الشمال ، وكيف تتفرق به السبل في تصحيح ما يحاوله من محال » (١٤) نعم فالاختلاف أقوالهم كما في الكتاب والاستخفاء للقرآني رحمه الله « حسب تلونهم »

(١٣) فصلت ٢٦ وراجع الكشاف ٤٥٢/٣ والتلويح القنى ١٤ .

(١٤) راجع النبأ العظيم ٦٨ (من خلال الفصل للطيب في بيان مصدره

٥٠١ راجع الكشاف

القرآن ٢٠ - ١٠٠ - ١٠١

وتغير أحوالهم في أنفسهم فكانوا لا يثبتون على ذلك واحدة لأنهم ليسوا على يقين فيما يقولون ولا فيما يعتقدون » (١٥) وهو تحليل متخالم عند أهل التراث .

ويؤكد هذا الملحظ ذكر لفظ قالوا دون اعتقدوا ايدانا بأنه يأفواهم دون أن يكون له همداق وحقيقة (١٦) .

٢ - ما نفاه المشركون عن القرآن ورسوله هو ما حققه القرآن وأكثر منه في أساليب تفاوتت كينا وعنفا حسب المواقف والأسباب : وفي أساليب القصر جاء نحو قوله تعالى « ان هذا لهو القصص الحق » (١٧) « ان هو الاذكر للعالمين (١٨) « ان هو الا ذكرى للعالمين » (١٩)

« ولا يأتونك بمثل الا جئناك بالحق وأحسن تفسيراً » (٢٠) « حقيق على الا أقول على الله الا الحق » (٢١) كما جاءت بعض الأساليب لتقرير حقيقة ماثلة تمحو كل ريب ومشاعبة لأنها قائمة على غير أساس « ذلك الكتاب لا ريب فيه هدى للمتقين » وتلحظ في الجملة الأخيرة حذف المبتدأ والاكتفاء بالخبر الذي هو ذات المبتدأ وهو مصدر قصداً إلى أن الهداية ذاتية للقرآن تشع من كل حرف فيه .

وقال تعالى : هذا هدى « (٢٢) « ان هذا القرآن يهدى للتي هي

(١٥) الكشف ٢/٢٦٨ والاستغناء للقرافي ٣٠٩ .

(١٦) راجع ارشاد أبي السعود ١٩٥/٥

جاء قصر القرآن على كونه أساطير كما جاء في آية النحل قصر القول بالبحث على الأساطير والمقصود القول المنزل به في القرآن مكان الوصف جاء لجميع القرآن كما جاء لبعض فلا تعارض .

(١٧) قوله تعالى « ان هذا لهو القصص الحق » (١٧) سورة القصص الآية ٦٤

(١٨) قوله تعالى « ان هو الاذكر للعالمين » (١٨) سورة القصص الآية ٦٤

(١٩) قوله تعالى « ان هو الا ذكرى للعالمين » (١٩) سورة القصص الآية ٦٤

(٢١) قوله تعالى « ان هذا هو الحق » (٢١) سورة القصص الآية ٦٤

أقوم « (٢٣) « هو الذي أرسل رسوله بلهدي ودين الحق » (٢٤) وقد استفاض وصف القرآن - في القرآن - بأنه حق وأنه هدى وإن كان وصفه بالحق في أكثر من مائة آية وهي ضعف ما وصف به من الهدى (٢٥) ذلك - والله أعلم - لأن ما رماه به المشركون من نفثات صدورهم يدخل تحت الباطل وهو نقيض الحق أكثر من الضلال الذي عكس الهدى .

كما تشير آية قرآنية إلى ما به كان القرآن معجزاً في قوله تعالى « فإن لم يستجيبوا لكم فاعلموا أنما أنزل بعلم الله » (٢٦) أى لا بطم غيرهم ، وهو اثبات - كما يذكر أبو السعود - لما فيه من اعجاز بسبب المزايا والكيفيات ، ونفى العلم يستلزم نفى القدرة أى لا يقدر أحد أن يأتي بمثله (٢٧) .

٣ - لم يكن رسول الله صلى الله عليه وسلم بدعا من الرسل فقد تشابهت مواقف الكفار من رسلهم كما قال الله « كذلك ما أتى الذين من قبلهم من رسول إلا قالوا ساحر أو مجنون أتواصنوا به بل هم قوم ضالون » (٢٨) من نحو قولهم عن نوح عليه السلام « ان هو إلا رجل به جنة » (٢٩) وعن شعيب وهود عليهما السلام « انما أنت من المسحرين » (٣٠) وعن موسى عليه السلام « ان هذا إلا سحر

(٢٣) الاسراء ٩ (٢٤) الصف ٩

(٢٥) المعجم المفهرس ٢١٢ / ٧٣٥

(٢٦) هود ١٤ .

(٢٧) الأرشاد ٤ / ١٩٢ / الأوسى ١٢ / ٢٢ . ٦٦ راجعاً (٢٨)

(٢٨) الذاريات ٥٢ - ٥٣ .

(٢٩) المؤمنون ٢٥ (٣٠) الشعراء ١٥٣ ، ١٨٥ .

« هيين » (٣١) وعين آية عيسى عليه السلام « ان هذا الاسحر هيين » (٣٢) وفي الأساليب كما في سابقها اثبات صفة ونفى ما يقابلها فهو قصر قلبه منسوخ في قوله

لكننا نلاحظ أن وسم القرآن الكريم بالسحر قد كثر عددا في القرآن على السنة المشركين العرب عن الأمم السابقة ، وهذا راجع الى طبيعة الاعجاز البياني في القرآن ذلك الذي استهوى الأفتدة وغلب على القلوب وروعهم بفائق بيانه ، الذي لا يشبه كلام الأتس أو الجن ويحطم ما تحته كم قال الوليد بن المغيرة ، وسواء كانت مقولاتهم تلك صادقة في التعبير عن تأثير القرآن العميق الذي لا ينازعه طبع سوى ، وليس ثم أكثر من السحر والشعر عندهم تأثيرا وتلك التفاتة اعتبرها بعض المعاصرين يمكن استثمارها هنا (٣٣) أم كان تبريرا مقهورا لجليل التأثير القرآني الذي استقطب نفوسا بينها من التفاوت ما بين طبع أبي بكر وعمر وسعد بن أبي وقاص وبلال وابن مسعود وغيرهم ونفى الله عنهم ويتضم الى ذلك تبعاً له التخليل المظلم عند الوليد لما فكر وقال ان هذا الاسحر يؤثر أما رأيتموه يفرق بين الرجل وأهله ومواليه (٣٣) .

٤ - وثم آية في السحر على لسان موسى عليه السلام ، للسحرة حينما ألقوا حبالمهم وعصيتهم على مشهد من الناس يوم الزينة وقت الضحى وكانت أشبه بمباراة شائقة لعب فيها التعصب القومي دورا مشجعا ، وكانوا يعتقدونها مباراة بين سحر السحرة وبن آيات موسى

٧٧٧ ٧٧٧ ٧٧٧

٧٧٧ ٧٧٧ ٧٧٧

(٣١) النمل ١٣ (٣٢) المائدة ١٠١ (٣٣) راجع اعجاز القرآن للرافعي ١١ والتصوير الفني ١١ - ١٥ وان كان المعاصرون يعنون السحر تشبيها كما في الحديث أن من البيان لسحرا ، بلما يعني الكفار حقيقة السحر دون تصوير

التي سموها سحرا فهم يجمعون ذلك كله على أنه سحر أعني اعتقاد
الشركة .

ولذا قال موسى لاسحرة : « مَا جِئْتُمْ بِهِ السِّحْرُ إِنَّ اللَّهَ سَيُطْفِئُ
أَنْ لَّيْلَهُ لَا يَصْلِحُ عَمَلُ الْمُفْسِدِينَ (٣٤) وطريق القصر : تعريف الطرفين
وهما متحدان والمقصود عليه هو المقدم ، فهو قصر صفة السحر على
ما جاءوا به لا الذي سماه فرعون وملاؤه من آيات الله سحرا ، وعلى
قراءة عبد الله بالتتكير في « سحر » يفاد القصر من التعريض ، لوقوعه
في مقابلة قول فرعون وملائه ان هذا لسحر مبين (٣٥) فالمعنى على
القصر في التعريف والتتكير (٣٦) ، وعلى هذا يكون القصر غير
اصطلاحي . وهو قصر افراد .

ولا بأس من عقد موازنة بين آيتين تشابهتا حكما وألفاظا واختلفتا
في المعرض فجاءت احدهما غفلا من التأكيد والثانية توالت فيها
أساليب القصر بالنفي الخاص والاستثناء :

قال الله تعالى : من سورة الأحقاف « واذا تتلى عليهم آياتنا
بينات قال الذين كفروا للحق لما جاءهم هذا سحر مبين » وفي سورة
سبأ « واذا تتلى عليهم آياتنا بينات قالوا ما هذا الا رجل يريد أن
يصدكم عما كان يعبد آباؤكم ، وقالوا ما هذا الا افك مفترى وقال الذين
كفروا للحق لما جاءهم ان هذا الا سحر مبين » (٣٨) .

وآية الأحقاف — ضمن آيات — تناقش في هدوء فكرة الخلق
والوحدانية ، وابطال عبادة الأصنام وفي النسق اشارة الى معاداة

(٣٥) يونس ٧٣ .

(٣٤) يونس ٨١

(٣٦) راجع الشهايد ٥٢٦/٥٥ والألوسی ١١/١٦٧

(٣٨) آية ٤٣ .

(٣٧) آية ٧

بشرية الرسل عليهم الصلاة والسلام

وهي شبيهة من شبه المكذبين الواهبة ، تمسكوا بها الحاف في العقاد والجدال ، وقد بنوا جدلهم التمسكي على ان الرسول المبعوث لا يكون بشرا اذ لا يمكنه الاتصال بالمالا الأعلى في زعمهم وانما يكون ملكا ، انتهاء الى نفي الرسالة ، والبقاء على الكفر وتزيينه كما قال القرآن :

« فقالوا ابشر يهدوننا فكفروا وتولوا » (١) .

وقد كان يمكن أن نورد بعض الشواهد ونحلها مرورا الى قضية اخرى ، لولا ما رأينا من كلام مؤهم لآئمه البلاغة فأثرنا التريث وتناول الموضوع بعمق واشتمول به يعون عن الله في واقع جاء عند الامام عبدالقاهر ثلاثة أساليب : آيتان من سورة ابراهيم عليه السلام (٣) الأولى في جدال الكفر توصلنا الى نفي الرسالة « ان أنتم الا بشر مثلنا » والثاني على السنة الرسل مجارة واستدراجا والتزاما بالحجة « ان نحن الا بشر مثلكم ولكن الله يمين على من يشاء من عباده » وزاد الامام السكاكي هنا آية ييس تويد الآية الأولى « ما أنتم الا بشر مثلنا وما أنزل الرحمن من شيء » وهو قصر تنزيلي - كما سيأتي - لأنهم جعلوا الرسل « كأنهم باتيانهم النبوة قد أخرجوا أنفسهم أن يكونوا بشرا مثلهم وادعوا أمرا لا يجوز أن يكون لمن هو بشر » ويعنى عبدالقاهر بهذا الأمر الملكية كما ذكر في حديث آخر في الفصل والوصل وتبعه السكاكي والقزويني وشراح التلخيص (٣) وانفراد الامام بذكر آية « بانما » وهي « قل انما أنا بشر مثلكم » في معرض الموازنة بين النفي

(١) التغابن ٦

(٢) ابراهيم ١٠ ، ١١

(٣) راجع الدلائل ١٥٥ ، ٢١٨ ، والمفتاح ٢٩٤ والايضاح ٢١٩

والشروح ٢١٤/٢ . ٥٥٠ . ٢١٠٢ مشقة زين العابدين بن علي بن ابي طالب

والاستثناء، ونعمه قل «إن جاءت هذه الآية في كلام قد أمر النبي صلى الله عليه وسلم بأن يبلغه إياهم ويقوله معهم وليس هو جواباً لكلام سابق .. كآية الأولى» أي التي جاء رد الرسل مراعى فيه حدود ما سبقه من كلام المشركين « وقد ترددت أيضاً هذه الأحكام في كتب المؤلفين حديثاً (٤) وتوجز ما لحظناه من كلامهم :

١ - الآيات التي وردت على السنة الكفار لاثبات البشرية دون الملكية المفترضة .

٢ - أن الأسلوب وإنما ابتداء كلام وليس رداً لكلام سابق .

وهو كلام شديد الإيهام : فقد يظن أولاً أن كل أسلوب فيه اثبات البشرية إنما هو لغوي الملكية ، كما أن الأسلوب وإنما لا يكون رداً لما سبقه هذا مع أن التعمير «إنما أنا بشر مثلكم» جاء في آيات عدة في مقامات مختلفة ، ولهذا كله وغيره نقدم ما يلي :

٩ - جاء في قضية البشرية ثلاثة عشر أسلوباً تنوعت طرقها وأكثرها على السنة الكافرين وأقلها مما أمر نبي الإسلام صلى الله عليه وسلم أن يقوله رادا عليهم ، وجاء أسلوب واحد فيه قصر ظاهري على السنة الرسل مجازاة واستدراجاً في الحجج والأزمان لأهوامهم .. على التخصيل التالي :

١ - جاءت ثلاثة أماليب على لسان نبي الإسلام صلى الله عليه وسلم :

(أ) في سورة الكهف : قل لو كان البحر مدادا لكلمات ربي لنفد

٥/٧ تاريخ علي سبيل التواضع للعلوم والبلاغة للمراعي ١٣٩٤ هـ ، ومن البلاغة النظم العربي دة عبد العزيز عرفه ٣٠/٢ ، ٥٥ .

البحر قبل أن تنفذ كلمات ربي ولو جئنا بمثله مددا ما نقل انما انا بشر
مثلكم يوحي الى انما ألهم الله واحد « (٥) » .

فقد قصر نفسه الشريفة على البشرية الموحى اليها بالوحدانية
مقيدة بهذا الوصف وهي بشرية محدودة العلم ، واضحة العجز
والمنفى هنا هو ادعاء الاحاطة بكلمات الله التي تنفذ مياه البحار — على
فرض أن تكون مدادا — قبل نفاذها فهو تطبيق على الفرض المحال ،
فعلم الله محيط لا ينفذ (٦) .

(ب) قال تعالى في سورة الاسراء : ضمن آيات تتضمن اقتراحات
خارقة من كفار قريش شرطا للايمان ومنها « أو يكون لك بيت من زخرف
أو ترقى في السماء ولن نؤمن لرقيك حتى تنزل علينا كتابا نقرؤه ، قل
سبحان ربي هل كنت الا بشرا رسولا » (٧) .

وهذه الاقتراحات ذاللة على افلاسهم ، وتعننتهم ، وابلاسهم اذ
يتعللون بما لا يمكن في العادة وجوده ، وقد قالها عبد الله بن أمية ،
وتلقفوها منه لجاجا ومكابرة أو جمع منهم وكان الرد على طريق
الاستقهام المثير للتعجب : أى ما كنت الا بشرا مؤيدا بالرسالة فليهن
أمر الاقتراحات الى أو الآيات انما هو الى الله تعالى (٨) .

(ج) قال تعالى في سورة فصلت : « وقالوا قلوبنا فى أكنة مما

(٥) الكهف ١٠٩ - ١١٠ .

(٦) راجع تفسير أبى السعود ٢٥١/٥ وذكر الألوسى رحمه الله : هنا
أن انا مقصور عليه والبشرية مقصور ولعله خطأ في النسخ أو سهو في النقل
فراجع ٥٣/١٦ .

(٧) الاسراء ٩٣ .

(٨) راجع الكشاف ٤٦٧/٢ وأبى السعود ١٩٥/٥ وأصله في

الطبرى ١١٠/١٥ .

تدعوننا اليه ، وفي آذاننا وقر ومن بيننا وبينك حجاب ، فاعمل اننا عاملون ، قل انما أنا بشر مثلكم يوحى الى انما الهكم واحد فاستقيموا اليه واستغفروه » (٩) فهو تلقين للجواب وهو أنني بشر ولست من جنس مغاير لكم حتى يكون بيني وبينكم حجاب وتباين مبرر اتباين الأعمال والأديان كما ينبيء عنه « فاعمل اننا عاملون ، بل انما أنا بشر مأمور بما أمرتم به ونفى الجنيس المغاير نقله أبو السعود كما نقل رأياً مقارناً وهو نفى الملكية وهو رأى الزمخشري (١٠) .

وأوماً ابن المنير الى أن المنفى قدرته صلى الله عليه وسلم على اظهار المعجزات (١١) .

والموتى ما أراه الامام الرازي وهو نفى قهرهم وجبرهم على الايمان كأنه يقول : أنا بشر مثلكم ولا امتياز بيني وبينكم الا بالوحي ، أما الهداية الى التوحيد أو الخذلان بالكفر والحرمان فلا يتعلق برسالتى وواضح من كلامه أنه يعنى باختصار « أنني بشر لا هاد » .

ويدل عليه أنهم صمموا على الكفر فأثبتوا لأنفسهم ثلاثة حجب: على العين والسمع والقلوب ووقع الاقتصار - كما يقول الرازي - على هذه الأعضاء الثلاثة لأن القلب محل المعرفة وسنططان البدن والسمع والبصر هما الآلتان المعينتان لتحصيل المعارف . فلما بينوا أن هذه الثلاثة محجوبة كان ذلك أقصى ما يمكن في هذا الباب . (١٢) .

ولعلى أطلت هنا تحليلاً ونقلاً لأوضح أن اثبات البشرية على طريق القصر لا يعنى أن المنفى هو الملكية ضربة لازب ، فقد يكون غير

(٩) فصلت ٥ - ٦

(١٠) راجع الكشاف والاتصاف ٣/٤٤٣ وأبا السعود ٢/٨٠

(١١) راجع التفسير الكبير ٢٧/٢٧٧ - ٢٨٠

(١٢) راجع التفسير الكبير ٢٧/٢٧٧ - ٢٨٠

ذلك حسب المقامات ، وان كثرت الأساليب التي جاء النفي فيها
المكثية نسبياً ، كما ثبت أن الأساليب التي تنصدرها انما لأثبات
البشرية : انما هي رد لما نسبها بل ان هذا السابق من انسياق هو ما يعين
النفي المقابل للمثبت .

٢ - أما باقى الأساليب فقد جاءت على النحو التالي مرتبة الدلالة
والقوة من صياغة الأسلوب ، والانفعال المختطرم حسب المقامات وكلها
أساليب جاءت على السنة كفار الأمم تعرى بواطنهم ، وتبرز خفتهم
وقد صاحبت الأساليب حسب السياق انفعالات أو معان آخر كالتأمر
أو العيظ أو السخرية والتعالى :

وقد جاء منها ما طريقه التقديم : كقوله تعالى على السنة ثمود
« أبشرا منا واحدا نتبعه انا اذا لفي ضلال وسعر » (١٣) ولأن الأسلوب
شديد التركيز والتداخل والتصوير فقد قام الطرف (منا) مقام
« مثل » في باقى الأساليب لأن فيها شيئاً من البسط . والاستفهام ،
انكارى تعجيبى :

كما جاء منها بالاستفهام بمعنى النفي والاستثناء : كقول الله
تعالى كاشفاً أسرار الكفار من قريش « وأسروا النجوى الذين ظلموا
هل هذا الا بشر مثاكم » (١٤) والقصر بدل من النجوى ، وهذا الاسرار
والبلاغ في الاخفاء تحاور وتشاور وتآمر لهدم الاسلام وأمر الرسول
صلى الله عليه وسلم وعادة المشاورين كما يقول في الكشاف
يتجاهدوا في طى سرهم (١٥) .

(١٤) الأنبياء ٣ .

(١٣) القمر ٢٤

(١٥) ٢/٢٢٢ هـ وأبو السعود ٦/٥٥

والاستفهام للتقرير والتعجب واذا كنا نلمح السخرية المستعلية
يدعما اسم الاشارة فان مجيء الاستفهام هنا بدل النفي يومئذ الى
حيرتهم وعدم حسمهم في اتخاذ قرار كما يقال ولذا ضرب عنه بعد :
بل قالوا أضغاث أحلام بل افتراه بل هو شاعر « (١٦) » .

والباطل كما يقول الزمخشري - لجاج والمبطل رجاع غير ثابت .

- جاء بما النافية مع الاستثناء وهو نفى قوى قاطع في

هذه الآيات :

- ١ - « ما هذا الا بشر مثلكم يريد أن يتفضل عليكم (١٧) » .
- ٢ - « فقال الملأ الذين كفروا من قومه ما نراك الا بشرا
مثلنا (١٨) والآيتان لقوم نوح عليه السلام .
- ٣ - « ما هذا الا بشر مثلكم يأكل مما تأكلون منه ويشرب مما
تشربون » (١٩) في هود عليه السلام .
- ٤ - « ما أنت الا بشر مثلنا فأت باية ان كنت من الصادقين » (٢٠)
في صالح عليه السلام .
- ٥ - « وما أنت الا بشر مثلنا وان نظنك ان الكاذبين » (٢١) في
شعيب عليه السلام .
- ٦ - « ما أنتم الا بشر مثلنا وما أنزل الرحمن من شيء ان أنتم
الا تكذبون » (٢٢) في رسل عيسى عليه السلام أما الأسلوب الوحيد

• (١٧) المؤمنون ٢٤

• (١٩) المؤمنون ٢٣

• (٢١) الشعراء ١٨٦

(١٦) الأنبياء ٥

(١٨) هود ٢٧

(٢٠) الشعراء ١٥٤

(٢٢) يس ١٥

الباقي فقد جاءت ان النافية فيه من سورة ابراهيم عليه السلام على لسان موسى عليه السلام يذكر قومه بنى اسرائيل وقد ارهقوه من أمره عسرا ، وينذرهم مضارع المكذبين قبلهم ، وقد استعزقت مفاولته عليه السلام آيات عديدة تصاعد فيها نبرة الانفعال والتهديد ومع ان المرحوم سيد قطب رأى في موسى عليه السلام من خلال الأحداث الكثيرة في قصته التي هي أطول القصص القرآني رأى فيه نموذجا للمزعيم المندفع العصبى المزاج كثير الانفعال والحنق والتوتر (٢٣) حسب الداعي الى ذلك نرى ان سمة الانفعال الثائر في أسلوب موسى عليه الصلاة والسلام انما كان مناسبا لما يصنع اليهود من أحداث تذهب حلم الحليم كطلبهم منه بعيدهم نجاتهم من فرعون أن يجعل لهم صنما يعبدونه حينما رأوا قوما يعكفون على أصنام لهم ، وحينما تقاعسوا عن دخول الأرض المقدسة وعوقبوا بالتيه ، بل حينما صنعوا عجلا من ذهب اه خوار يعبدونه على مرأى من هارون ، وحينما آذوه ورموه بالنقائص فبرأه الله مما قالوا وغير ذلك ان هذه المواقف العجيبة تتطلب هذا الأسلوب القوي العنيف الأحاسيس ثم انه اجابة لدعاء ربه بشرح الصدر « واحلل عقدة من لساني يفقهوا قولي » .

وقد يوهم وصف موسى عليه السلام بأنه عصبى كما وصف الرافعى أسلوب النبي صلى الله عليه وسلم بأنه أسلوب عصبى (٢٤) قد يوهم ذلك أنه شبيه بما يذكره علماء التحليل النفسى من تقسيم الطبائع الى أربعة أنواع منها العصبى وانفعاله يغلب عقله وأخطأه تغطى محاسنه ومن الأفضل أن نرقى بالأسلوب القرآني والأسلوب النبوى والرسلى فوق هذه التقسيمات المفترضة التى تتبدل وتتغير

(٢٣) راجع التصوير الفنى ٢٠٠ - ٢٠٣ .

(٢٤) اعجاز القرآن

حَسِبَ أَذْوَاقَ الْمُؤَلِّفِينَ أَوْ مَدَارِسَهُمْ أَوْ ثِقَاتِهِمْ • وَنَعُودَ إِلَى لِنْسِيْقِ
فَيَقُولُ اللَّهُ تَعَالَى عَلَى لِسَانِ كَلِيمِهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ :

« الْمَسِيحُ يَأْتِكُمْ نَبَأَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ قَوْمَ نُوحٍ وَعَادَ وَثَمُودَ وَالَّذِينَ مِنْ
بَعْدِهِمْ لَا يَعْلَمُهُمْ إِلَّا اللَّهُ جَاءَتْهُمْ رُسُلُهُمْ بِالْبَيِّنَاتِ فَرَدُّوا أَيْدِيَهُمْ
فِي السَّمَوَاتِ هُمْ يَرْفُكُلُوا إِنَّا كَفَرْنَا بِمَا أَرْسَلْتُمْ بِهِ وَإِنَّا لَفِي
شَكٍّ مِمَّا تَدْعُونَنَا إِلَيْهِ مُرِيبٌ » (٢٥) فَهُوَ يَنْذِرُ بِفِكْرٍ
حَسَدٍ مِنَ الرُّسُلِ الْكِرَامِ جِبْتَهُمْ أَقْوَالَهُمْ بِالْجَدَالِ وَالرَّقْصِ
الْعَتِيفِ ، فِي بَدَأَ مُحْتَرِمًا يَعْقُبُ دَعْوَةَ الرُّسُلِ « فَرَدُّوا أَيْدِيَهُمْ فِي أَمْوَاهُمْ »
وَالجُمْلَةُ مَشْعَرَةٌ تَشْمَعُ لَوْفِيرٍ مِنَ التَّأْوِيلَاتِ الَّتِي أَتْبَعَهَا الْعُلَمَاءُ أَى عَضُوهَا
غَيْظًا ، أَوْ وَضَعُوهَا اسْتِهْزَاءً مَعَالِجَةً لِلصَّحْحِ فَعَلَّ الْمَاجِنُ السَّاحِرُ أَوْ
وَضَعُوا أَيْدِيَهُمْ عَلَى أَمْوَاهِ الْأَنْبِيَاءِ اسْكَاتًا وَطَبَاقًا لِلأَقْوَامِ أَوْ الْجَاوِ
الرَّسُلِ إِلَى وَضَعِ أَيْدِيَهُمْ فِي أَمْوَاهِهِمْ تَعْجِبًا مِنْ عَتُوهِمْ وَغَلْظَتِهِمْ ، أَوْ
تَعْبِيرًا كِنَائِيًّا مَصُورًا لِلْحَقِّ وَالغَيْظِ وَالضَّجْرِ وَاقْتِنَاطِ الرُّسُلِ بِدَلِيلِ تَأَكِيدِ
الْكُفْرِ وَالشَّكِّ بَعْدَهُ وَرَجْحَهُ ابْنَ الْمُنِيرِ وَهُوَ تَرْجِيحٌ غَيْرُ قَوِيٍّ لِأَنَّهُ مِنْ
التَّعْبِيرَاتِ الْمُرَكَّبَةِ الَّتِي تَتَنَاوَلُ عَدِيدًا مِنَ الْمَعَانِي وَالظَّلَالِ كَقَوْلِهِ تَعَالَى
« وَاللَّهُ يَرْزُقُ مَنْ يَشَاءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ » (٢٦) •

وَيُصِيحُ الرُّسُلُ وَقَدْ بَغْتُوا بِجَرَاءَةِ الْكُفْرِ عَنِّي الْخَالِقِ « أَلَيْسَ اللَّهُ
شَكَّ فَاطِرِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ يَدْعُوكُمْ لِيَغْفِرَ لَكُمْ مِنْ ذُنُوبِكُمْ وَيُؤَخِّرَكُمْ
إِلَى أَجَلٍ مُسَمًّى » أَنهَا صِيحَةٌ مَزَلْزَلَةٌ مُنْكَرَةٌ : أَيْ كَوْنِ الشَّكِّ فِي اللَّهِ الْجَلِيلِ
الظَّاهِرِ الَّذِي لَهُ فِي كُلِّ خَلْقٍ آيَةٌ وَحَدَانِيَّتُهُ : فَالْهَمْزَةُ لِلانْكَارِ الشَّدِيدِ •

فَاطِرِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ مَبَالِغَةٌ — كَمَا يَقُولُ أَبُو السَّعُودِ : فِي تَنْزِيهِهِ
سَاحَةُ السَّبْحَانِ عَنِ سَائِبَةِ الشَّكِّ « فَيُرَدُّ عَلَيْهِمُ الْكَافِرُونَ : مَعَ اخْتِلَافِهِمْ

(٢٥) ابراهيم ٩

(٢٦) الكشاف ٣٦٨/٢ وأبو السعود ٣٧/٥ •

زمانا ومكانا وطبعا لاتفاقهم على القلب المظلم والكلمة الخبيثة المظلمة
« ان أتمم الا بشر مثلنا تريدون ان تصدونا عما كان يعبد آباؤنا فأتونا
بسلطان مبين » ونلاحظ البدء بجملة القصر بالمقاطع المعلقة ، وبأن النافية
التي هي أكثر توكيدا من ما النافية دلالة على غليان الغضب والهياج
والجملة بعدها كثرت حروف لينها « تريدون ان تصدونا عما كان يعبد
آباؤنا فأتونا بسلطان مبين » تجسيدا لارتفاع الأصوات والصياح
والسوقية وحرارة ما يتأجج في صدورهم ، والقصر هنا قصر قلب
تنزيلي ، ذلك أن المكذبين نزلوا الرسل المصيرين على دعوى الرسالة
منزلة من ينكر البشرية لأنها منافية في اعتقادهم للرسالة اذ الرسول
لا يكون بشرا بل ملاكا في زعمهم ، وقد ذكر الزمخشري في تحليل بعض
الآيات المتعلقة باثبات البشرية « ما نراك الا بشرا مثلنا » في شأن نوح
عليه السلام ذكر وجهها للقصر بجعل الوصف «مثلنا» محط الانكار أي
المماثلة في المزية والفضيلة على التنزل والفرض تعريضا بأن المماثلة
في مطلق البشرية والا فهم أحق بالمزية لظنهم أنها بالجاه والمال ،
فوجه الشبه الارتقاء بسبب الجاه والمال ، وقد يدعمه في الظاهر أن
الملا الأغنياء وأنهم يستخدمون الفعل نرى دلالة الثقة والاستعلاء .

وقالوا في الضعفاء تحقيرا « الذين هم أراذلنا » ولم يقولوا أراذلنا
وأجاز في الانتصاف ارادة الأمرين جميعا أي بشر لا ملك و « مثلنا »
لا تفوقنا جاها ومالا والحق أن لا مانع من رأى ابن المنير وأن ذلك خاص
بنوح عليه السلام لا يناسب بقى السياقات (٢٧) على أن بعض
العلماء وضع أن المنفى في الآيتين الملكية أيضا (٢٨) في الآيتين .

(٢٧) راجع في آية هود : الكشاف ٢/٣٦٥ والانتصاف . والرازي

٢/١٤٤ و٢/١٤٥ و٢/١٤٦ والاسود ٤/٢٤٠ والرازي ١٤/٢٧

(٢٨) راجع تفسير الرازي ١٧/٢١٢ ، ١٩/٩٥ وأبو السعود ٩/٣٧

وقد رد الرسل على المكذبين — في هدوء نسبي — ان نحن الا بشر مثلكم ولكن الله يَمُن على من يشاء من عباده ، وما كان لنا ان نأتيكم بسلطان الا باذن الله وعلى الله فليتوكل المؤمنون . . الأيات (٢٩) وقد جاء لفظ الجلالة في رد الرسل خمس مرات لجا اليه سبحانه وشكرا على نعمة الرسالة . ثم انهم ردوا كلامهم وطريقة صياغتهم « ان نحن الا بشر مثلكم » مع ان الموقف النفسى متباين . مجازاة لهم واستدراجا وتساويا ببعض المقدمات ارضاء للعنان توصلا الى افحامهم (٣٠) ، والرسل في الواقع يستخدمون كل فنون القول ومذاهبه وعظا ، وترغيبا وتحببا وجدلا اقتناعا أو تأثيرا حسب المواقف ، وأسلوب القصر هذا يمكن ان تسميه بالقصر الصوري الذى لا يفيد الا مجرد التأكيد ولا يستدعى انكارا ولا مانع أن يأتى القصر فى الأسلوب لمجرد التأكيد كما يرى الدسوقى وأجاز بعض العلماء وتبعهم الدسوقى أيضا أن يكون المعنى فى رد الرسل : ما نحن من الملائكة بل بشر مثلكم وكأن الكفار نزلوا منزلة من يدعى الملكية للرسل دون البشرية فهو قصر قلب تنزيلي كسابقه (٣١) وهذا اغراق فى المتحمل والتأويل المغلق ، والأول هو المهيح الواضح عند العلماء .

وهذا القصر الصوري مبنى على ترديد عبارات سلفه للمخاطب فيها قصر ويكون فى الحجاج والمغالبة ، وقد رأيت له نظيرا فى قوله تعالى « واذا قالوا اللهم ان كان هذا هو الحق من عندك فأمطر علينا حجارة من السماء أو ائتنا بعذاب أليم » (٣٢) .

(٣٠) واجمع للدلائل ٢٢٨ .

(٢٩) إبراهيم ١٢ . راجع الكشف ٣٦٨/٢ وأبا السعود ٣٧/٥ وشروح التلخيص

٢١٩/٢ .

(٣٢) الأنفال ٣٢

فقد ذكر في الكشاف أن هذا ، أسلوب من الجحود بليغ ، وأن التخصيص وقع على سبيل المجازة لقول المؤمنين أنه هو الحق ، لا على قصد الحصر ، والا لكان المنكر انحصار الحقيقة فيه وليس مرادا بل مراده أن حقيقته محال وهذه الصياغة توحى بالتهكم من قولهم « هذا هو الحق » على سبيل الحصر ، فتعريف الحق جنسى ويرى الشهاب أنه عهدى خارجى أى الحق المعهود المنزل من عند الله هذا لا أساطير الأولين كما يدل عليه قوله للنضر بن الحارث فأفاد تخصيص المسند إليه بالمسند وأكده بالفصل (٣٣) .

ويرجح رأى الزمخشري أن هذا كلام النضر ذلك أنه لما قال : ان هذا الا أساطير الأولين قال له النبي صلى الله عليه وسلم : ويلك أنه كلام الله تعالى ، فقال ذلك والمعنى : ان كان حقا منزلا فأمطر علينا الحجارة والمراد بالتهكم واظهار اليقين أنه ليس كذلك وحاشاه ، وهذا أيضا يرى الزمخشري أن النضر وضع « حجارة » من السماء موضع السجيل وهى الحجارة المسومة يريد أن التعبير كناية عن موصوف خاص ولم أقتنع به اذ لا يعرف عن السجيل الا ما أخبر به القرآن ، وموقفهم منه معروف ، والظاهر انه يريد العموم والتحقيق أى من كل نواحيها والله أعلم .

ويتصل باثبات الملكية ونفى البشرية تشبيها قول النسوة حين رأين يوسف عليه السلام « ما هذا بشرا ان هذا الا ملك كريم » (٣٤) والحقيقة لا تسلب الا باعتبار صفة زائدة مقدرة فى النفس أى ما كما له كمال بشر بل كمال ملائكة ونفى البشرية فى موقف الاعجاب والتعظيم

(٣٣) راجع الكشاف ١٥٥/٢ والشهاب ٢٧١/٤ وأبا السعود

(٣٤) يوسف ٣١

١٩/٤

والتعجب من حسن الخلق يدل على الملكية وإظهارها تعيين وتبيين إذ من المحال كما يقول عبد القاهر أن يخرج من جنس البشر ثم لا يدخل في جنس آخر (٣٥) وأسلوب القصر هنا مصدر بأن النافية لتأكيد هذه البلاغة الانثوية المبهورة فهو من قصر القلب ومن المتشابه قول الله تعالى في سورة الاسراء : « وما منع الناس أن يؤمنوا إذ جاءهم الهدى إلا أن قتلوا . أبعث الله بشرا رسولا ، قل لو كان في الأرض ملائكة يمشون مطمئنين لنزلنا عليهم من السماء ملكا رسولا » (٣٦) مع آية الكهف « وما منع الناس أن يؤمنوا إذ جاءهم الهدى ويستغفروا ربهم إلا أن تأتيتهم سنة الأولين أو يأتيهم العذاب قبلا » (٣٧) .

وقد حصر المانع - في الآية الأولى - من الايمان في فكرة البشرية مع أن له موانع شتى عندهم نفسية واجتماعية وتراثية أعنى التكبر والحقذ والخوف على عوائلهم ومكاسبهم والتعصب لعادة الآباء ، أما لأنه أهمها أو أنه المانع بحسب الحال عند سماع الجواب المحمدي قبله « هل كنت الا بشرا رسولا » وقد تخطر على بالهم شبهة يتمسكون بها دون سواها مع كثرة شبههم وعلى كل فهو سبب عادي ، أو مانع عادي ضعيف مع ظهور المعجزات (٣٨) .

أما آية الكهف : ففيها « ويستغفروا ربهم » لاتصاله كما قال الكرماني بقوله « سنة الأواین » وهم قوم نوح وهود وصالح وشعيب أمروا بالاستغفار على السنة انبيائهم . فلما خوفهم سنة الأولين أجرى المخاطبين مجراهم (٣٩) .

(٣٥) راجع الدلائل ١٥٤ والاستغناء ٢٩١ .

(٣٦) الكهف ٥٥ .

(٣٦) الاسراء ٩٤

(٣٨) راجع أبا السعود ١٩٥/٥ ، والاستغناء ٣٠٥ ومشكل القرآن

المنع من عبادة الأصنام ١٧٥

(٣٩) راجع أسرار التنوير ١٣٠

والمراد بسنة الأولين : نزول العذاب والاستئصال أو انتظار عذاب الآخرة .

وأوله الواحدى بتقدير العذاب عليهم فى بدر وأحد وقد انفرد به وليس هو الملائم . والجملة بعد الا حال فهو من الحصر فى الحال، وقد قدر العلماء مضافا أو متعلقا محذوفا يقتضيه المعنى وهو : ارادة أو انتظار أو طلب والأخير عن الزجاج ، بينما أجاز الرازى ، وأبو حيان عدم التقدير : أى عند نزول العذاب (٤٠) .

ومعنى الآية فى رأى : التأسف عليهم والتنبية على فساد حالهم لأنهم لا يمتنعون لغرض العذاب ولا اعتقدوه بل يعتقدون أنهم مصيبون ولا يأتيهم العذاب أصلا كما تقول ما نام زيد فى هذه البرية الا ليأكله الأسد فهو مانع — كما نقل القرافى عن العز بن عبد السلام باعتبار ما يتول إليه أمرهم وآية الاسراء مانع باعتبار ما فى صدورهم » .

وذكر العز فى كتابه مشكل القرآن أن المانع فى آية الكهف عادى وهو فى سبحان حقيقى ولا تنافى بين قولنا : ما منعهم حقيقة الا كذا وما منعهم عادة الا كذا فزال التناقض « (٤١) » .

والرأى الثانى — وقد أخذناه من جملة تأويلهم : وهو أن طلبهم سنة الأولين وهو قوله : ان كان هذا هو الحق من عندك فامطر علينا حجارة من السماء « كقول السابقين « اثنتا بعذاب الله ان كنت من الصادقين » فالمراد كفار عصر النبوة المحمدية بياننا لعنادهم الذى يدفعهم الى الهلاك فيجيئهم العذاب (٤٢) .

(٤٠) راجع الطبرى ١٧٣/١٥ والبحر ١٨١/٦ ، ١٣٧/٦ والرازى

٦٠/٢١ ، ١٤١/٢١ والألوسى ١٧١/١٥ . (٤١) راجع الإستغناء ٣٠٦ وفوائد فى مشكل القرآن للعر ١٧٥ .

(٤٢) راجعه البحر ١٣٩/٦

وواضح من الآية نفى الموانع من الايمان على جهة الحقيقة فليس هناك ما يحول بينهم وبين الهدى :كنهم لم يفعلوا فهو قصر للمانع على انتظار العذاب استئصالا أو أنواعا منه تهديدا ووعيدا وفي صيغة المنع جاء قوله تعالى :

« وما منعنا أن نرسل بالآيات الا أن كذب بها الأولون » (٤٣) •

والمراد بالمنع الترك والمراد ما منعنا الا اتباعهم مذهب الأولين في تكذيبهم فاذا كذبوا بالآيات عاجلهم الاستئصال لكن اقتضت الحكمة رحمة بأمة الدعوة أن يؤخر جزاءهم ليوم الدين (٤٤) فأمنهم عذاب الاستئصال وجاء من أصلابهم من يعبد الله وحده •

الكفر صفات وجزاء :

والمنافقون والمشركون - وهم ملة واحدة - وصفوا بصفات كثيرة لازمة في القرآن الكريم هي ذات صفاتهم في واقع الحياة من المكر والخداع ومحاولة الاضلال والكيده لاهلاك المؤمنين ، والظلم ونحوها ، وأساليب القرآن في مناسبات وصور مختلفة تؤكد أن أثر هذه الصفات لا تصيب المؤمنين بل ترتد الى الكافرين والمنافقين كقوله تعالى : « يخادعون الله والذين آمنوا وما يخدعون الا أنفسهم وما يشعرون » (٤٥) ونحوه : وان يهلكون الا أنفسهم » (٤٦) « وما يمكرون الا بأنفسهم » (٤٧) « وما يضلون الا أنفسهم » (٤٠) مما اتخذ فيه الفاعل والمفعول • قال الرازي

• (٤٣) الاسراء ٥٩ •

• (٤٤) راجعه الكشاف ٤٥٤/٢ والبحر ٥٣/٦ والرازي ٢٣٤/٨

الى أبي السعود ٢٣١/٥

• (٤٦) الأنعام ٢٦ •

(٤٥) البقرة ٩

• (٤٨) آل عمران ٦٩ •

(٤٧) الأنعام ١٢٣

في الآية الأخيرة « لما اجتهدوا في اضلال المؤمنين ثم لم يلتفت اليهم المؤمنون ، فقد صاروا خائبين خاسرين من حيث اعتقدوا شيئاً ولاح لهم غيره » (٤٩) والمنفى المقابل للمقصود عليه في هذه الأساليب هو المؤمنون خاصة فهو قصر قلب من قصر الصفة ، ذلك أن الموصوف هنا متقابل بماله من صفات متعاكسة • عدا مادة ، الظلم في أساليبها التي جاءت بطريق العطف غالباً ولكن كقوله تعالى : « وما ظلمهم الله ولكن أنفسهم يظلمون » وقد تكرر هذا التعبير تقريراً لأحداث سابقة حاق فيها المكر السئ بأهله ، ورد كيد الظالم الى نحره - كقوله تعالى عن أنفاق الكافرين في وجوه الخير وقد فقدوا أساسها وهي الايمان بالله الواحد « مثل ما ينفقون في هذه الحياة الدنيا كمثل ريح فيها صر أصابت حرث قوم ظلموا أنفسهم فأهلكته وما ظلمهم الله ، ولكن أنفسهم يظلمون » (٥٠) فقد حقق بهذا التمثيل المصور المنتزع من عالم الزرع والعواصف ضياع ما قدموا فهو هباء منثور كما جاء في آية أخرى وقال تعالى ضمن آيات عديدة متوالية تعدد على بنى اسرائيل نعم الله عليهم وصفائح الله لهم ثم ما واجهوا به آلاء المنعم بالكفران فاستحقوا ما نزل بهم « وظللنا عليكم الغمام وأنزلنا عليكم المن والسلوى كلوا من طيبات ما رزقناكم ، وما ظلمونا ولكن كانوا أنفسهم يظلمون » (٥١) وقد تكرر هذا التعبير في الأعراف والتوبة وجاءت فيه « كان » بعد لكن دون آية آل عمران قال الكرمانى في سر ذلك جاءت كان لأن المقام اخبار عن قوم كذبوا ، وماتوا قبل البعثة المحمدية ، وآل عمران مثل لمن يظلم» (٥٢) يريد أن صياغة المثل للبقاء والاستمرار وهو يتحقق بالمضارع دون الماضى •

(٤٩) الرازى ٢/٤٧٠ •

(٥٠) آل عمران ١١٧

(٥١) البقرة ٥٧ والتعبير في الأعراف ١٦٠ والتوبة ٧٠ •

(٥٢) اسرار التكرار ٢٨

وقد رأى بعض العلماء أن لكن نص في قصر القلب ، وتقديم أنفسهم لا للخصر والا ما تطابق الكلام كما أنه ليس للفاصلة فحسب كما يرى الشهاب (٥٣) بل للمسارعة التي بيان أنهم هم أول من يصاب بظلمهم فهو مناسب للتطلع النفسى ازاء من يقع عليه الظام .

والمواقع أن أساليب الظلم لاتفيد القصر هنا الا على رأى من يجوز أن تكون الواو زائدة لازمة وهو رأى شديد الوهن اذ وسماها بالزيادة اغراق في التكلف وبخاصة اذا ذكر الرأى الأقوى الذى أكده الامام السهيلي من أن لكن مع الواو لا تكون عاطفة اذ لا يجتمع حرفا عطف « (٥٤) » .

يعنى أن الواو هى العاطفة عطف جمل . مما سنحقق ان شاء الله طرق القصر —

مقتضيات:

ومنها : قصر التكليف من الله تعالى للنفس على وسعها وطاقتها، وقد جاء التعبير خمس مرات : ثلاث بنون العظمة « لا تكلف نفسا الا وسعها » (٥٥) ومرة بلفظ الجلالة «لا يكلف الله نفسا الا وسعها» (٥٦) ومرة بالبناء للمجهول احالة على التعبيرات السابقة لتعين الفاعل سبحانه ، وكثرة ذكر المفاعل الترغيب فيما كلف ، لأن فيه الخير كله لعلمه ما يصلح خلقه وقريب من هذا الأسلوب « لا يكلف الله نفسا الا بما آتاها » (٥٧) والوسع ما ييسر الانسان ولا يضيق عليه (٥٨) والراد

(٥٣) حاشية الشهاب ٥٧/٣ (٥٤) نتائج الفكر ٢٥٧ .

(٥٥) الآيات الانعام ١٥٢ ، والأعراف ٤٢ والمؤمنون ٦٢ .

(٥٦) ٢٨٦ البقرة (٥٧) ٧ الطلاق .

(٥٨) راجع الكشف ٤٠٨/١ و ابا السعود ٢٧٦/١ .

نفى ما فوق الطاقة والوسع فهو قصر قلب يفوح منه شذى الزحمة في نسمايتها وخطرات المنة والاحسان ، ويأتى التعبير في سياقات دالة على التيسير في التكليف كقوله تعالى « يريد الله بكم اليسر ولا يريد بكم العسر » (٥٩) كما نلمح هذا التعريض الأخاذ بسرعة الامتثال والمبادرة الى اتيان التشريعات والوقوف عند حدودها ونفى ما يقع على سبيل السهو والغفلة والخطرات التى لا تدفع بل للنفس فيه مجال ومنتع وهو نص فى اليسر دون العسر (٦٠) .

ومنها : قصر الفعل على القلة مصدرا أو زمانا تعقيبا على حدث محدود فى زمن يسير وقد كثر فى الذم كقوله تعالى فى المنافقين « قد يعلم الله المعوثين منكم والقائلين لأخوانهم لهم البنا ولا يأتون الناس الا قليلا » (٦١) « يسألون عن آبائكم ولو كانوا فيكم ما قاتلوا الا قليلا » (٦٢) « يراءون الناس ولا يذكرون الله الا قليلا » (٦٣) وهو نفى للكثرة المقابلة بل هو كناية عن عدم الغناء والفائدة وبخاصة اذا عقب على تسليك بشرى للكافرين أو المنافقين ، كما يكفى عن مدة الدنيا بالقلة بجانب الآمال التى لا تنتهى فى الآخرة « لن يفتكم الفرار ان فررتم من الموت أو القتل واذا لا تمتعون الا قليلا » (٦٤) وقد استأثرت سورة الأحزاب بالجانب الأكبر من هذا الأسلوب لأنها أظهرت باطن المنافقين فى موقف بلاء تتعمى فيه النفوس .

كما جاء هذا العبير فى أحداث القيامة وحسبان المبعوثين أنهم

ودقائق التفسير لابن تيمية ٢٩٩/١ - ٣٠٠	
(٦٠) راجع الرازي ١٣٨/٧	(٥٩) البقرة ١٨٥
(٦٢) الأحزاب ٢	(٦١) الأحزاب ١٨
(٦٤) الأحزاب ١٦	(٦٣) النساء ١٤٢
١٦٧ - ٥٦٤	

لبثوا في قبورهم وقتا يسيرا « يوم يدعوكم فتستجيبون بحمده ،
وتظنون ان لبثتم الا قليلا » (٦٥) •

وقوله : « ان لبثتم الا قليلا لو أنكم تعلمون » (٦٦) ومثله
تخافت المجرمين يوم الدين : « ونحشر المجرمين يومئذ زرقا يتخافتون
بينهم ان لبثتم الا عسرا نحن أعلم بما يقولون اذ يقول أمثلهم طريقة
ان لبثتم الا يوما » (٦٧) •

والآيات تصف أولا حقيقة علمية مثيرة وهي انعدام الاحساس
بالمزمن في الموت وأثناء النوم ، والموت قياس عليه ، كما حدث لأهل
الكهف : قالوا لبثنا يوما أو بعض يوم (٦٨) • والذي استبعد احياء
القرية بعد موتها « أنى يحيى هذه الله يعد موتها فأماته الله مائة عام
ثم بعثه قال كم لبثت قال لبثت يوما أو بعض يوم قال بل لبثت مائة
عام » (٦٩) وواضح أن أسلوب القصر مناسب للمزمن المسديد الذي
لا يعام مداه الا الله وهو فترة الموت والبرزخ الى يوم الدين وفي كل
الأساليب وضع للبشرية في مقام معلوم قهرا وعجزا وجهلا بأسرار
الغيوب « وما أوتيتم من العلم الا قليلا » (٧٠)

✱ المشركون والظن الباطل :

والظن — كما — يرى الراغب أعم ألفاظ الشك واليقين ، وهو
اسم لما حصل عن امارة فمتى قويت أدت الى اليقين ، ويأتى بعده
أن المشددة سواء كان اليقين حقيقة كقوله تعالى : « انى ظننت أنى

(٦٦) المؤمنون ١١٤

(٦٥) الاسراء ٥٢

(٦٨) ١٩

(٦٧) طه ١٠٣ ، ١٠٤

(٦٩) البقرة ٢٥٩

(٧٠) الاسراء ٨٥ وراجع القراني في الاستغناء في هذه الأساليب

٦٢٣ - ٦٢٥

ملاق حسابيه » (٧١) أو تنزيلا كقوله « وظنوا أنهم النبي لا يرجعون » (٧٢) لا اعتقادهم ذلك يقينا ، ومتى ضعفت الامارة لم يتجاوز حد الوهم ، ويكون ظنا مذموما متوعدا عليه بالعقاب ، وهو الظن الفاسد وقد يطلق على الجهل والشك وباطل الاعتقاد (٧٣) وقد جاءت أساليب قرآنية عديدة تقصر اتباع المشركين على الظن أو الخرص فيما يتعلق بالبعث والشركاء والاصنام أو زعمهم أن شركهم كان بإرادة الله أو أنهم لن يؤمنوا الا أن يشاء الله كما جاء أسلوب خاص باليهود وتحريفهم وتأويلهم للكتاب حسب هواهم . . (٧٤) كما لاحظنا في أساليب الظن أن منها ما جاء بعد نفى العلم أو السلطان أو الحقت بما يدعم القصر ويؤكد به بما يشبه التوكيد كما جاء في ثلاثة أساليب توالى أسلوبين للقصر . اتباع الظن والخرص ونزجى شاهدا لكل حال .

في مقام نفى فيه المشركون البعث ونسبوا الاهلاك الى الدهر ، وقصر الحياة على الدنيا دون الأخرى جاء قوله تعالى « وقالوا ما هي الا حياتنا الدنيا نموت ونحيا وما يهلكنا الا الدهر وما لهم بذلك من علم ان هم الا يظنون » (٧٥) وقد سبق تحايل الآية ويهمننا هنا أن جملة القصر مؤكده لمفهوم الجملة التي سبقتها وزيادة كما جاء النفي بان وهي أكد من « ما » التي جاءت في أساليبهم ردا قويا حاسما .

وجاء من أساليب نفى الشركاء والأصنام ونحلها أسماء وعبادتها:

« ان هي الا أسماء سميتنوها أنتم وآباؤكم ما أنزل الله بها من سلطان ان يتبعون الا الظن وما تهوى الأنفس » (٧٦) والظن هنا

• (٧٢) القصص ٣٩

الحاقة ٢٠

• (٧٣) راجع المعجم المفهرس ٤٣٨

• (٧٤) راجع الزواجب ٣١٧ والبرهان للزركشي ١٥٦/٤

• (٧٥) الجاثية ٢٤ (٧٦) النجم ٢٣

هوهم الجاهل كما دفع اليه شهوة نفس أمارة تحطت على العقل والتدبير
وهذا توالى أسلوبا قطر بان والأترييفا/وتسفيها لأحلامهم وتركيزاً على
مصدر الداء وهو نفس مفتونة حالكة السواد .

في أساليب الجدل التي حاول فيها الكفار اصطناع العقل أو قل
انتهاج السفسطة والثرثرة وان اشراكهم وآباءهم وتحريمهم ما حرموا
كان بمشيئة الله وهم يكن هذا اعتذارا عن قبائح بل كذب صريح ،
وتناقض في القول ، فكيف يعترفون به ربا ثم يشركون في الوهيتته
« سيقول الذين أشركوا لو شاء الله ما أشركنا ولا آباؤنا ولا حرمنا
من شيء كذلك كذب الذين من قبلهم حتى ذاقوا بأسنا قل هل عندكم من
علم فتخرجوه لنا ان تتبعون الا الظن وان أنتم الا تخرصون » (٧٧)
وقد أخبر أنهم سيقولون وقد فعلوا كما ذكرت آية النحل « وقال الذين
أشركوا لو شاء الله ما عبدنا من دونه من شيء نحن ولا آباؤنا
ولا حرمنا من دونه من شيء » (٧٨)

وفي آتينا واجههم بالخطاب على طريق الالتفات واهانة وتجريما وقد
بدأ بوعيدهم بأمثالهم الذي ذاقوا بأس الجبار ، والضمير « نا » لسه
سطوة وجلال، ثم استفهام التحدى والتعجيز والتكذيب والسخرية هل
عندكم من علم فتخرجوه لنا « ولا علم هناك بل ظن باطل وكذب أبلق ثم
ترقى الأسلوب تأكيدا في تحقيق تدنيهم اذ الخرص الكذب والتخمين من
« خرص النخل اذا خمن رطبه » (٧٩) .

والآية الأخرى الذي جاء فيها الخرص بعد الظن من نفس السورة
جاءت بعد محاورات مع المشركين وأنهم أعداء النبي كما أن لكل نبي

(٧٧) الأهم ١٤٨ (٧٨) آية ٢٥ .
(٧٩) واجع ١٦٦/٣ والسواد ١١٨/٤ والشهاب

عدوا شياطين الانس والجن قال الله تعالى : « وتمت كلمة ربك صدقا وعدلا لا مبدل لكلماته وهو السميع العليم وان تطع أكثر من في الأرض يضلوك عن سبيل الله إن يتبعون الا الظن وان هم الا يخرصون » (٨٠)

وقد نقل عن بعضهم أن الآية خاصة بأمر الذبائح وقولهم نأكل ما نقتل ولا نأكل ما قتل الله ، يريدون الميتة وقيل ان المطاع فيه علم ولكن المراد الكفار أو أهل مكة وأرضها وهما رأيان واهيان لعدم الدليل على التخصيص وثم رأيان جديران بالنظر .

الأول أن المراد بمن في الأرض : الناس ، وبأكثرهم الكفار .

والثاني أعم : فالمراد بالناس البشر والأكثر : الجهال وأتباع الهوى ، فهم يضلون لأنهم ضالون ، والظن والخرص هو آراؤهم الفاسدة وأوهامهم الجاهلة . (٨١)

والواضح عندى أول الرأيين وذلك لدلالة الآيات السابقة المشابهة التي جاءت نصا في الشرك وأهله ، ثم طريقة بناء الجملة القصرية والدلالة الخاصة للاضلال واتباع الظن والخرص في القرآن فهو خاص بالكفار وأخيرا بان الطاعة في الاسلام مقيدة بطاعة الله ورسوله وأولى الأمر من المؤمنين المخلصين .

« انما وليكم الله ورسوله والذين آمنوا » ، « وأطيعوا الله وأطيعوا الرسول وأولى الأمر منكم » ولأن الكفر مازال أكثر أهل الأرض وهم غارقون في ظنون وأوهام ، جاءت الأفعال مضارعة والخطاب للمعوم ، والآية تحذر من اتباع الكفر وأهله في آرائهم وفلسفاتهم المادية

(٨٠) الأنعام ١١٦

(٨١) راجع الآية في الكشاف ٤٦/٢ والبجر ٤/٢١٠ وأبي السعود

١٤٤/٤ والشهاب على البيضاوي ١١٨/٤

(٨) القصر

لوما يظهر في نظرهما من سلوك وأخلاق وعقائد فهو موقن في الردى
وتجميع الشخصية الإسلامية وهو ما تحذر منه النبي صلى الله عليه
وسلم وما يحدث في بعض البيئات الإسلامية .

وقد جاء الظن مطروداً عن الكفر ، والخبر كذلك في آيتين
مشتابيتين :

فجاء في الزخرف : بعد جعلهم الملائكة آثافاً وعبادتهم « وقالوا
لو شاء الرحمن ما عبدناهم ما لهم بذلك من علم أن هم إلا بخرصون » (٨٢)
وفي العنكبوت : « سموت ونضيا وما يظنكنا إلا للدهر وما لهم بذلك من علم
إن هم إلا يظنون » (٨٣) قال الكرمانى مخفياً أسلوب الاسكافي « سبق
آية الزخرف جعلهم الملائكة بنات الله وهذا اغراق في الكذب فناسب
الخرص ، بينما في الجاثية ظنوا الصدق بالكذب فناسب الظن بمعنى
الشك » (٨٤) .

٨٢ (٨٢) : ٣٤ (٨٣) الآية ٣٤
٨٤ (٨٤) : ٤٣٣ وأسرار الكرمانى ١٩١ والنقل بتصريف

قصر الافراد

قصر الافراد

— النبي صلى الله عليه وسلم بين الانذار والتبليغ والتذكير

ذكر الامام عبد القاهر قوله تعالى: «وما آتت وتمسح من في القبور لمن آتت الا نخير» (١) . في مقام نزول فيه حال النبي صلى الله عليه وسلم حقل من ظن أنه يملك تحويل قلوبهم ، ومن لا يعلم أيضا أن نص في وسمعه أكثر من أن ينذر» ثم قال . . . «ومثله في أن ما تقدم من الكلام اقتضى أن يكون اللفظ كالذي تراهم من كونه بان والاقوله تعالى «ولو كنت أعلم الغيب لاستكثرت من الخير وما مسنى السوء ان أنا الا نذير ويشير لقوم يؤمنون» (٢) .

ونفهم من ذلك :

١ — أن الأسلوب في الآية الأولى قصر افراد تفرى .

٢ — أن التعبير باللفظ والاستثناء بعامة وان والا بخاصة لا بد أن يأتي في سياق يقتضيه وهو ما يسميه بالفظم أو التلازم ، وهو توجيه انى أن أدوات النفي مطلقا لكل دلالة خاصة يقتضيهما النسق ولا يعنى عنها سواها .

٣ — بين رحمه الله أن المنفى في الآية الأولى هو هدايتهم أو تحويل قلوبهم ولم يوضح المنفى في الآية الثالثة والمهم أنها لفتة هوفقه قد يعقل عنها من ينتزع الأسلوب من سياقه أو يطلق

(١) فاطر ٢٢

(٢) الاحرف ١٨٨ وراجع الدلائل ٢٩٩ .

الحكم دون استقصاء ومن ذلك ما ذكره الأمام السكاكي — مع دقته وعمقه — وهو يلخص وجهة عبد القاهر ، فقد ترك احترايس عبد القاهر « وهو استخدام ان والا في المقام المناسب » . وقال على عجل « وقوله عز وجل : قل لا أملك . . . الآية » مصبوب في هذا القالب « (٣) هل يعنى أنه اخراج على غير مقتضى المظاهر وهو عنوان الفكرة أعنى القصر التنزيلي ولا تنزيل في الآية أو يعنى ان المنفى يان في الآية كالمنفى في سابقاتها « ان أنت الا نذير » وهو غيره قطعا ، واذا كان يعنى ما عناه عبد القاهر فإيجازه الشديد لا يدل عليه . ثم ان ترك الاستقصاء — قدر الطاقة — وترك التنظير في سياق الآيات حمل بعضا ممن ألفوا للبلاغة على القياس الخاطيء حين جعلوا المنفى في بعض آيات الانذار أعنى التي قصر فيها حال النبي الكريم على الانذار دون الهداية كما في قوله تعالى من سورة الرعد : « انما أنت منذر ولكل قوم هاد » (٤) مع وضوح السياق ودلالته على أن المنفى اجابة اقتراحات الكافرين بانزال الآيات (٥) .

والمواقع أن أساليب الانذار والتبليغ والتذكير متباينة في الصياغة والدلالة والسياق والمقام ذلك أن معنى الانذار : الاخبار بالتخفيف والتحذير ، والبلاغة بمعنى التبليغ والأداء والتذكير بمعنى اعادة الذكر في القلب وال خاطر ، واذا كانت أساليب التبليغ من قصر الافراد وهى أحد عشر أسلوبا فان أكثر أساليب الانذار التي بلغت بضعة عشر أسلوبا من قصر القلب وهى ما وجه فيه الخطاب على لسان النبي الكريم الى المشركين وقل جدا ما جاء فيه قصر الافراد وهو ما كان

(٣) المفتاح ٢٩٥ .

(٤) الرعد ٧ وانظر : من بلاغة النظم العربي ٥٦/٢ على سهيل المثال

(٥) أبو السعود ٧/٥

الخطاب من الله لعبده ونبيه محمد صلى الله عليه وسلم غالباً كما جاءت الأساليب بطرق مختلفة من النفي والاستثناء وإنما .
 بتعريف الطرفين ، وما يحتاجه الى وقفه حقاً هي تعيين تلك الصفة المنفية المقابلة للمقصود عليه وهي في أكثر الأساليب صفة تنزيلية .
 نم يتصف بها المخاطب عليه السلام حقيقة ، وهذا المنفى يتوع تنوعاً .
 بالغاً حسب السياقات وإذا قسمت الأساليب بحسب المقابل للمقصود عليه ذلك نفي بقوة وحسم وكان سبباً في هذه الصياغات .

المنفى في أساليب الإنذار

١ - تبرئة ساحة المصطفى صلى الله عليه وسلم مما رموه به من الجنون عنادا وكبرا وكذبا . قال تعالى : « قل إنما أعظكم بواحدة أن تقوموا لله مثنى وفرادى ثم تتفكروا ما بصاحبكم من جنة ، ان هو الا نذير لكم بين يدي عذاب شديد » (٦) .

وقوله تعالى « ما بصاحبكم من جنة ان هو الا نذير مبين » (٧) .
 وجملة القصر مؤكدة للجملة قبلها تلك التي تأكد جردها بالبلاء الداخلة على نكرة افادة تأكيد العموم كما أن المنفى في القصر قصدا هو ذاته المنفى في الجملة السابقة ، فهو نفي للجنون مرتين وصعدت ان معنى التأكيد القوي والجملتان نتيجة واضحة يتوصلون هم اليها لو تركوا هذا التجمع والتجمهر الذي يذكي الانفعالات فتطيش وتغلب على ذكاء العقل فهي دعوة لافكر الواعي في جو هادئ منفردين أو مثنى مثنى ، وهي موعظة واحدة أو فريدة لأنها توصل الى الحق العازب عنهم وما قاله الفكر الحديث حول العقل الجمعي وما يثيره ويؤثر فيه يدندن حول هذه الآية المعجزة .

(٦) سبأ ٤٦

(٧) الأعراف ١٨٤

٢ - جاء قصره صلى الله عليه وسلم على الانذار في سياقات ،
يقترح الكافرون آيات خارقة ، للسنن الكونية ، خارجة عن طوقه صلى
الله عليه وسلم ومهمته :

قال تعالى « ويقول الذين كفروا لولا أنزل عليه آيات من ربه انما
أنتم مطفر ، وانك قوم هاد » (٨)

« وقالوا لولا أنزل عليه آيات من ربه قل انما الآيات عند الله ،
وانما أنا نذير مبين أو لم يكفهم أنا أنزلنا عليك الكتاب يتلى عليهم ان
في ذلك لرحمة وذكرى لقوم يؤمنون » (٩) •

وقال تعالى : « فلعنك تارك بعض ما يوحى اليك وضائق به صدرك
أن يقولوا لولا أنزل عليه كثر أو جاء معه ملك انما أنت نذير والاه على
كل شيء وكيل » (١٠)

ومع أن السياقات رد على جدالهم والباحهم سواء كانوا كفار
العرب أم مشركي أهل الكتاب في آية العنكبوت جاء القصر بانما
لوضوح هذا الأمر لو كانوا يعقلون (١١) ونلاحظ أن في آية أهل الكتاب
جاء قصران يؤكد أحدهما الآخر يوشك أن يكون المثبت في أحدهما هو
المنفي في الآخر تضمننا ولزوما وذلك لمستوى أهل الكتاب الثقافي والعقلي
والمعنى أن الآيات عند الله مرهونة بمشيئة لا عندي وانما أنا نذير واضح
الانذار لا أتدخل في مشيئة الله تعالى بانزال الكتاب : أما الآية الثالثة
فمع أنها في مشركي مكة فقد يجوز أن يكون المنفي في القصر هنا أنه
لا يملك الآيات كتابية عن وجوب اعراضه عنهم وانصرافه الى دعوته (١٢)

(٨) الرعد ٧
(٩) العنكبوت ٥٠ •
(١٠) هود ١٢
(١١) راجع أبا السعود ٧/٥ ، ٤١/٧
(١٢) راجع الكشاف



فهو قصر قلب لغير المخاطب والأولى أنه قصر أفراد تنزيلى أى أنت نذيرى
لا تملك هدايتهم بدليل صدر الآية « فليهلك تارك بعض ما يوحى اليك
وضائق به صدرك » .. ونهايتها : « والله على كل شىء وكيل » وهى
بذلك تدخله فى القسم الرابع .

ويلحق - ثالثا - بالقسم الثانى ما جاء تعقيبا عن سؤالهم به
عليه السلام عن غيب لا يعلمه الا الله كالساعة ، فهو مختص بالانذار
دون علم الساعة .

كقوله تعالى فى سياق بدأ بقوله عز وجل : « ويسألونك عن
الساعة قل انما علمها عند ربى » .. ومنه « ولو كنت أعلم الغيب
لاستكثرت من الخير وما مسنى السوء ان انا الا نذير وبشير لقوم
يؤمنون » (١٣) فقد نفت الآية علمه بالساعة فى الأسلوب أولا بمعنى
علمها عند ربى المحيط علمه لا عندى ، ثم ترقى المعنى الى نفى علمه
بالغيوب على وجه العموم : فمهمته النذارة للكافرين والبشارة
للمؤمنين دون علم الغيوب ، ومثلها آيات الملك : « ويقولون متى هذا
الوعد ان كنتم صادقين قل انما العلم عند الله وانما انا نذير مبين » (١٤)
وهم يعنون بالوعد وقت الحشر . والرد أن العلم بوقت الساعة وغيرها
عند الله لا عندى ، وانما انا لكم نذير مبين أى لا أعلم وقت
الموعود ، أو أنذركم وقوع الموعود لا وقته ، ويجوز أن يكون الانذار
عاما لا يقدر له متعلق ، أى أحذركم الكفر بالله ودينه فلا وظيفة لى الا
الانذار ويلتزم منه البشارة لمن أطلع دون سؤاله تعالى عما لم يأتى
فيه تبارك وتعالى وعموم الانذار ملمح طيب للبقاعى وان كان الأولى

هو الأول لدلالة السياق مسبقا ولاحقا « فلما رأوه زلفة سيئت وجوه
الذين كفروا » وكذلك منسببة الآيات * (١٥)

ومثلها آيت الفازعات : « يسألونك عن الساعة أيان مرساها ،
فيم ، أنت من ذكرها الى ربك منتهاها ، انما أنت منذر من يخشاها » (١٦)

وقوله « فيم » استفهام انكارى لسؤال المشركين عنها ، وقوله
« أنت من ذكرها » أى أنت مبعوث فى نسم الساعة علامة من علاماتها
لا يعلم وقتها أو منذر بأهوالها ووقوعها دون وقتها وعلى كل فأسلوب
القصر تقرير لقوله : « أنت من ذكرها » وفيه لمحة من الاحتراس اى
ان كنت لا تعلم وقتها فانتم منذر بوقوعها • وتلحظ ان الانذار خاص
بمن يخشاها عام فى الآيات السابقة المتلائمة مع مهمة الرسالة والانذار
تألوا القصر على من يخشى لأنه المنتفع بالانذار وأما غيره فالانذار
معه كلا انذار كأنه ليس له أذن تسمع وقلب يعقل ، فالاضافة هنا
اشارة الى أنه عريق فى انذار الخائى أما غيره فلم يحصل له صورة
الانذار ولا معناه (١٧) •

وينبغى الحذر فى هذه الأساليب التى يتعدى فيها الانذار الى
موصوف مفعول به فقد يختلف المقصور عايه كما فى قوله تعالى « انما
تنذر الذين يخشون ربهم بالغيب وأقاموا الصلاة » (١٨) ، « انما تنذر
من اتبع الذكر وخشى الرحمن بالغيب » (١٩) أى تنذر المؤمنين
لا الكافرين وهو من قصر الصفة على الموصوف عكس الأساليب
السابقة •

(١٥) راجع أبا السعود ١٠/٩ ونظم الدرر للبقاعى ٢٠/٢٦٤ •

(١٦) الآيات ٤٣ - ٤٥ •

(١٧) راجع الدلائل ٢٢٠ وأبا السعود ١٠٦/٩ ونظم الدرر ٢١/٢٤٦

(١٩) يس ١١ •

(١٨) فاطر ١٨

تعريضاً بالكافرين الذي فقدوا مظاهر الإدراك . (٢٠)

ثم قد جاء أسلوبان في آيات من سورة ص بين غيبين غيب آت
يصور مشهداً من مشاهد المعذبين يوم القيامة من توافد الأفواج
المقتحمة على النار ، وانهماكهم في خصام وسباب ، ولعنات يائسة ،
وبين غيب قد مضى هو نبأ الملائكة الأعلى ، واختصام من لون آخر
من سجود الملائكة لآدم عليه السلام ، وتكبر إبليس ومناظرته وطرده .

والآية الأولى : « قل إنما أنا منذر وما من اله الا الله الواحد

المتقهار » (٢١)

والثانية : « ما كان لى من علم بالملائكة الأعلى اذ يختصمون ان يوحى
الى الا أنما أنا نذير مبين » (٢٢) . أى أنا نذير بين الانذار ، ولا علم
لى بغيب الله الا بما علمنى الله عن طريق الوحي وهو اعتراض ويتضح
في الآية الأولى ، وفيه تعليل للايحاء أى ما يوحى الى الا لأنما أنا نذير
فالانذار سبب في الوحي .

ورأى أبى السعود في ان المنفى في الأسلوبين هو علم الغيب
بدلالة السياق هو الأرجح من رأى الرازى وتبعه الشهاب والأوسى من
أن الدعوة الى الله قوبلت بالاستهزاء وبقولهم عن رسول الله صلى
الله عليه وسلم انه ساحر وكذاب فالمنفى في الاسلوب : قل انما أنا منذر :
السحر والكذب ، ورأى أبى السعود أقوى لاتصال الاسلوب بسياق
الغيب والصياغة الخاصة لقصر الألوهية بدخول من على النكرة بعد
المنفى على الله الواحد القهار الذى أحاطت قدرته بالزمان والمكان
والذى يكشف عن شيء من الغيب المكنون لعبده ورسوله عليه السلام ،

(٢٠) راجع أبى السعود : ١٤٩/٧ ، ١٦١ .

(٢٢) ص ٧٠ .

(٢١) ص ٦٥

على أن الرازي ذكر في الآية الثانية « ان يوحى الى الا أنما أنا نذير مبين » قوله « يعني ما عرفت هذه المخاصمة الا بالوحي وانما أوحى الله الى هذه القصة لأتذركم بها » (٢٣) .

ومنه قوله تعالى : « قل ما كنت بدعا من الرسل وما أدري ما يفعل بي ولا بكم ان أتبع الا ما يوحى الى وما أنا الا نذير مبين » (٢٤) .

وقد جاء في الآية أسلوبان بالنفي والاستثناء وهي آية قوية شديدة الحسم كثيرة النفي تضع الرسالة والرسل في مكانهم الصحيح لا يستشرفون ولا يعلمون — وهم بشر بوسائل البشر شيئا من عالم الغيب والملكوت الا بوحى الله تعالى وتعليمه . ولذا كرر «لا» في قوله ولا بكم لتأكيد النفي : لأن الفعل (يفعل) مع أنه مثبت داخل في حيز النفي « ما أدري » وتلحظ التعبير (يفعل) وهو أعم صيغ الفعل ، دلالة العموم فهو نفي لدراية أى شيء عن أى فعل يحدث له أو لهم ، والخطاب كما روى العلماء — يجوز أن يكون خاصا بالمؤمنين الذين ضجروا من أذى المشركين واستعجلوا معرفة المستقبل رغبة فطرية ، أو خاصا بالكافرين الذين اقترحوا آيات منها معرفة الغيوب ، أو هو شامل يرد على الكافرين ويربى المسلمين وقد رجحه أبو السعود ، وأكد أميل الى أن الكلام مع الكافرين كالأيتين قبلها وبعدها ويكون الفصل بلا في قوله : « بي ولا بكم » للاستقلال حتى لا يتصل ضميرهم بضميره الشريف عليه السلام (٢٥) .

(٢٣) راجع الآية في المكنياض: ٢٨١/٣ ، والبحر ٤٠٨/٧ ، والرازي

٢٢٤/٢٦ - ٢٦ ، والشهاب ٣١٩/٧ وأبى السعود ٢٣٤/٧

(٢٤) الأحقاف ٩

(٢٥) راجعه الآية في الطبرى ٢٦ ص ٦ والكنياض ٥١٨/٣ ،

وأبى السعود ٧٩/٨ - ٨٠ .

ولنا وقفه مع التعبير القرآني « ان أتبع إلا ما يوحى الي » في الآية السابقة ومثلها آية الأنعام « قل لا أقول بحكم عبي خزائن بل لا أعلم الغيب ولا أقول انى ملك ان أتبع إلا ما يوحى الي » كما ورد في الآية ١٥ يونس وجاء بانما في الأعراف فقد يبدو من ظاهر التراكيب أنه قصر الاتباع على الوحي دون اجابة المقترحات وهو الظاهر من كلام الطبرى والكشاف (٢٦) لكن بعض الأئمة ومنهم أبو حيان وابو السعود (٢٧) رأى أن هذا التعبير بيان لرسالة النبي صلى الله عليه وسلم التي لا تعلق لها بشيء من اجابة المقترحات الكافرة بل هي عبارة عن تلقى الوحي والعمل بمقتضاه .

وقد أضاف أبو السعود وفصل والترجم هذا في معالجاته لتركيب في كل سياقاته وذلك أن يتوجه القصر الى نفس الفعل باعتبار النفي فيما يتضمن مطلق الفعل والاثبات فيما يقارنه من المعنى المخصوص ، ذلك أن كل فعل خاص كنصر مثلا ينحل الى معنى مطلق هو مدلول لفظ الفعل ، والى معنى خاص ، يقارنه ، فنصر معناه : فعل النصر ، وأعطى : فعل الاعطاء فالنصر والاعطاء قيد يتوجه له الاثبات كأنه قيل : ما أفعل الاتباع الوحي من غير أن يكون لى مدخل فى الوحي أو الموحى أو بوجه آخر من الوجوه ، وليس من القصر على المفعول وهو ما يوحى (٢٨)

والموضح أن أبا السعود أفاد من الفصل الذى كتبه عبد القاهر عن الفرق بين المجاز العقلى والمجاز اللغوى وكون الفعل فى ضرب زيد مقنيدا مرتين باثبات الضرب وأنه لزيد وتفريقه بين الافعال ذات المعانى العامة كفعل وخلق وأنشأ وصنع وعمل وبين ذات المعانى

(٢٦) راجع الطبرى ١٢٦/٥ والكشاف ٥١٧/٣ .

(٢٧) راجع الى البحر ١٣٢/٥ وأبى السعود ٧٩/٨ .

(٢٨) أبو السعود ١٣٧/٣ ، ٣٠٩/٣ ، ٧٩/٨ .

والخاصة كضرب وفهم (٢٩). والمهم أنها نظيرة نافذة في الافادة ممن سبقه. ودعوة الى الحكوف على كتب العلم ففيها الخير كله ، والظاهر أن القصر لا يكون اضافيا - كما في الرأي الاول اذ المنفى اجابة المقترحات بل يكون حقيقيا فهو التزام واتباع للوحي دون سواه على الاطلاق .

ونظرة أبى السعود رحمه الله فيها تنزيه ساحة رسول الله صلى الله عليه وسلم بجعل افعاله كلها اتباعا مطلقا للوحي الالهى فليس هناك موازنة أو تقابل فيما يتبع فيثبت الوحي وينفى المقترحات بل هو فعل الاتباع الكامل للوحي دون سواه .

وهذا التأويل قريب من النفس معجب فيه ذكاء وشفافيه وبخاصة في أسلوب انما « انما أتبع ما يوحى الى » ولكنه محتاج الى مزيد عمق في النفي والاستثناء ذلك أن المقصور عليه في ظاهر التركيب (ان اتبع الا ما يوحى الى) هو ما يوحى أى الوحي وتأويله يجعل المقصور عليه قبل الا : لان حل الفعل « اتبع » الى أفعال الاتباع واقع قبيل الا فهل هو تأويل في المعنى أو أنه يمكن تأويل يتبع بمعنى : ألتزم أو أسلك أو اترسم من قول: الراغب تبعه واتبعه قفا أثره وذلك بالارتسام والائتمار ومنه : « ثم جعناك على شريعة من الأمر فاتبعها ولا تتبع لاهواء الذين لا يعظمون » (٣٠)

والرأيان أمامك الأول أسلم تخريجا والآخر أعرق تأويلا . ولكل وجهة والله أعلم .

(٢٩) راجع اسرار البلاغة ٣٣٢ - ٣٣٥ .

(٣٠) راجع مفردات الراغب ٧٢ .

أما البلاغ بمعنى التبليغ والأداء فليس في دلالتها معنى التخويف والتجذير الذي في الإنذار كما أن أساليبيها ليست بهذا القدر من الوعيد والوعظ الخاص الذي تبرق به أساليب الإنذار ، وقد انحصرت الصفة المنفية المقابلة للبلاغ في صفتين : الهداية والمحاسبة والمؤاخظة والعقاب وقد جاءت هذه الأساليب في رسول الإسلام صلى الله عليه وسلم كثيرا وفي غيره من الأنبياء أو رسلهم قليلا ، خطابا موجها إلى الأنبياء أو اخبارا عنهم تحديدا لدورهم ومهمتهم وهي رسالة التبليغ وحده والأساليب كلها من قصر الافراد التنزيلي ، فما اعتقد نبي قط وبخاصة رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه يملك المقدرة على ايجاد الهداية ونور الايمان في قلوب الكفار أو أنه يملك حسابهم وعقابهم على توليهم ونلاحظ هنا - كما قلت - أن أكثر الأساليب في المصطفى عليه الصلاة والسلام نبي الرحمة فقد أهمه أمر الدعوة ، وعنى نفسه الشريفة بايمان الناس ، وكادت نفسه ان تذهب حسرات رحمة بالبشر : وكما وصفه القرآن فلعلك باخع نفسك على آثارهم أن لم يؤمنوا بهذا الحديث أسفا « (٣١) فقد نزل منزلة من يظن أنه يجمع بين صفتي البلاغ والهداية أو صفة البلاغ والحساب •

وفي هذه العبارات نحس التعريض الرقيق والرافة الربانية بعبد الله ورسوله كما ندرك الدلالة المقابلة للأسلوب وهي التعريض الموحى بالوعيد والانتقام الالهي وبخاصة في الآيات التي تنفي صفة الحساب والعقاب عن الرسول بعد إثباتها لله تعالى كما نحسب أن ما ورد بشأن الأنبياء أو برسل عيسى إنما هو من المثلاث التي يقصد بها نبي الإسلام تسرية عنه ، وإعانة على هموم الدعوة •

على أن الهداية دلالات فمنها : الدلالة على الطريق القويم بلطف وهي صفة لازمة للنبي صلى الله عليه وسلم « ولدعاة الخير من بنى آدم » كقوله تعالى : « وجعلنا منهم أئمة يهدون بأمرنا » (٣٢) ، وفي نعي الإسلام : « إنما أنت منذر ولكل قوم هاد » (٣٣) ، ومنها : التوفيق بمعنى إيجاد الهداية وخلق الايمان في القلب وهي هداية خاصة بالله تعالى ثابتة له وكل هداية نقاها الله عن النبي صلى الله عليه وسلم وعن البشر في القرآن فهي هذه الهداية الخاصة (٣٤) كقوله تعالى ليس عليك هداهم ولكن الله يهدي من يشاء « (٣٥) » انك لا تهدي من احببت ولكن الله يهدي من يشاء « (٣٦) »

فمن النوع الأول الذي نفيت فيه صفة الهداية وما هو من سبيلها قول الله تعالى « وما ابرئنيك بظني الذي نعدهم أو نتوفينك فإلما عليك للبلاغ وعلينا الحساب » (٣٧) . « وقال الذين أشركوا لو شاء الله ما آمنوكنا ولا أبوانا ولا حرمنا من شيء كذلك فعل الذين من قبلهم فهل على الرسل إلا البلاغ للحقين » (٣٨) ، « وإن تكذبوا فقد كذبت أمم من قبلكم وما على الرسول إلا البلاغ المبين » (٣٩) ومثلها آية يس في رسل عيسى عليه السلام (٤٠) وآية النور (٤١) .

كما جاء في المعنى الثاني الذي نفيت فيه حكمة الحساب والعقاب وكلها في رسول الإسلام صلى الله عليه وسلم جاء قول الله تعالى - في مست آيات يسبق أسلوب المقصر ما يدل على اعراضهم كقوله سبحانه

- | | |
|--------------------|------------------|
| • (٣٣) الرعد ٧ | • (٣٢) السجدة ٢٤ |
| • (٣٥) البقرة ٢٧٢ | • (٣٤) طه ٥٢٨ |
| • (٣٧) الرعد ٤٠ | • (٣٦) القصص ٥٦ |
| • (٣٩) العنكبوت ١٨ | • (٣٨) النحل ٣٥ |
| • (٤١) ٥٤ | • (٤٠) ١٧ |

« فان توليتهم فاعلموا أنما على رسوانا البلاغ المبين » (٤٢) فلن تولوا فانما عليك البلاغ المبين » (٤٣) ، « فان توليتهم فانما على رسوانا البلاغ المبين » (٤٤) ، « فان عرضوا فما أرسلناك عليهم حفيظا ان عاتيك الا البلاغ » (٤٥) .

وتلحظ معنى في هذه الأساليب : أنها جاءت في معرض الشرط الاية واحدة وهي الأخيرة جاءت تاهيدا لجواب الشرط اعنى التاكيدا للصفة المنفية وهي حفظه وحمائه عليه السلام لهم فذلك خاص بالله تعالى . واملتوب الشرط دال على هذا التزام الشديد ، والارتباط بين الشرط وجوابه أى ان زاد اعراضهم ، فاندفع وثابر على الابلاغ والدعوة أى كلما زاد تقورهم ، فازداد اقبالا عليهم ، فحركاتهم السالبة تغلبت أو تلاحق بحركات ايجابية ، هي القوة الخيرة الفاعلة في المنهج الاسلامي فهو الخير للخير تجريدا واخلاضا ، كما تلحظ ان جواب الشرط الحقيقي من دلالة السياق والقرائن الطلية - محذوف واهيم املتوب القصر مقامه فهو من وضع السبب موضع المسبب ، أى فان تولوا فلن يضروك وسر هذا الحذف والله أعلم للعلم به بقوله تعالى « والله يعصمك من الناس » ثم القصد مباشرة الى فكرة البلاغ وهي الأهم في هذا الصدد .

كما ان أسلوب النفي والاستثناء كثر فيما كانت فيه صفة للهداية هي الصفة المنفية وهذا موقف اسلامي حاسم في تحديد مهمة الرسالة وترك ما يتغاق بالقلوب لله تعالى « مقلب القلوب » حتى الرسول الكريم

نفسه كان يدعو دائما : يا مقلب القلوب ثبت قلبي على دينك . ثم يقول :
ان القلوب بين اصبغين من اصابع الرحمن .

وهذا الحد الحاسم ذاتي في التصور الاسلامي ، اما ما غلب فيه انما فهو فيما نفى فيه الحساب والعقاب لوضوح انه بيد الله تعالى كما أنه ليس من صفات الداعية الذي يلين القلوب ويسوسها كالاسي الحكيم اللهم الا اسلوبا واحدا جاء بالنفي القوي بان والاستثناء في آية الشورى وهي آية خاصة : بدأت بقوله فان عرضوا : والاعراض اقوى في النفي من القول الذي جاء في باقى الأساليب لأن آية الشورى جاءت بعد آيات تصور مشهدهم يوم القيامة على مرأى من العذاب يتمنون البرد الى الدنيا « فهل الى مرد من سبيل » ثم وهم يعرضون على النار « خاشعين من الذل ينظرون من طرف خفي » ثم الآية الحاسمة بعد المشهد « استحيوا لربكم من قبل ان يأتى يوم لا مرد له من الله ما لكم من ملجأ يومئذ وما لكم من نكير » بهذا الالتفات الغاضب . ثم يصعد الغضب : « فان عرضوا فما أرسلناك عليهم حفيظا » أى فحسابهم على وهذا تهديد بالغ بالانتقام الخاص ولذا فصياغة الأسلوب على النفي والاستثناء متلائم تماما مع هذا الجو التهديدي الأخاذ وأثر الجو أو النسق واضح جدا في آية التغابن « وأطيعوا الرسول فان توليتهم فانما على رسولنا البلاغ المبين الله لا اله الا هو وعلى الله فليتوكل المؤمنون » (٤٦) .

وفي كثير من آيات هذه السورة ما ينبض بالرحمة الرفيعة ، وما يثير الشجن والرقة التى تتماوج بها القلوب ولذا تجد في نسج الأسلوب

(٤٦) راجع فإله العليم في تفسير أبى السعود على جهة المثال :

٢٥٨ ، ٣٦/٨ ، ٣٤/٧ ، ١٨٩/٦ ، ١٣٣ ، ١١٢ ، ٢٧/٥ ، ٧٦/٣ ، ١٩/٣

هذا للتكريم والتشريف للنبي الرحمة صلى الله عليه وسلم من ضمير
الخطيب في «رسولنا» وقوى ذلك التفرّيز المفاد من انما بمن
اعرض عن الرسول الرحيم (٤٧) وتحظ معى كثرة وصف البلاغ
والانذار ايضا : بأنه مبين من البيان والوضوح ولا يبعد عندى ايضا
أن يكون البيان والبلاغ فيه ما يومىء الى البلافة. في البيان بمعنى
التأثير في القول وانوعظ كما دلت آية النساء : وقد جاءت ايضا في
الاعراض وان كان من النبي الكريم عن المخلفين وهو اعراض عن
قولهم لا عن دعوتهم التي أمر بالاستمرار عليها والمبايعة تنوبا من
البلاغة الواعظة المؤثرة : « أولئك الذين يعلم الله ما في قلوبهم فأعرض
عنهم وعظهم وقل لهم في أنفسهم قولاً بليغاً » (٤٨) .

وقد اطرده دخول الحرف « على » في أساليب البلاغ : تشديدا في
وجوب القيام بما أمر به النبي صلى الله عليه وسلم وكذلك للتمثيل
من قبله .

وقد ورد هذا التشديد صراحة في الآية الشريفة التي تنتهي أيضا
بتقريز البلاغ : « فان تولوا فانما عليه ما حمل وعليكم ما حملتم ، وان
تطيعوه تهتدوا وما على الرسول الا البلاغ المبين » والقرآن في خطابه
لهم يتحدث بأسلوب الغائب عن الرسول الكريم تكريما له وبيانا
لحماية الله له وفيه لون من تهديدهم كما جاء بالحرف : على : ثلاث مرات
ويلفظ التحميل اشعارا بثقل الرسالة والمسئولية وكونها مئونة خطيرة
وأمانة شديدة على السواء أى عليه ما أمر به من التبليغ وهى مهمة
شاقة عسيرة كما دلت نصوص القرآن (٤٩) وعليكم ما أمرتم به من
الطاعة وهى رسالة لها خلق الانسان وحدها (٥٠) قال الله

(٤٧) راجع نظم الدرر ١٢٤/٢٠ وما بعدها .

(٤٩) أبنا السعود ١٨٩/٦ .

(٤٨) النساء ٦٣ .

وقد يفتونك كثرة أساليب الأنداز ، وآيات البلاغ في الأمة
الخمسة .

وكذلك غيرها من الأسماء التي خص بها كبار العرب واصفها
تأعيه سوء اخلاقهم ، مظهرة خفي عيوبهم ، وطوى رذائلهم بنسبها
بعدة عنيفة كما تكروه الأمر بالانذار والتبليغ ، وهذه ظاهرة يستر
تخسرها - بتوفيق الله - فلنك أن مخرجي العرب كانوا أشد الناس
نفارا ، بحكم طبيعتهم وتكوينهم ، وهذا يحتاج قدرًا من المثابرة ، وثبات
من المصابرة والثبات ، نهجا قاصدا للدعاة ، ولبيان أن نجاح الدعوة
مع هؤلاء - وحالهم تلك - أدل على فلاحها في غيرهم من الأمم
والشعوب والبيئات المتباينة وطول عمر الدنيا .

ثم إن كثيرا من هؤلاء المشركين الذين حللهم الآيات تحليلا الهيبة
- بالتعبير الحديث - لا يكاد يقترب من حماه التحليل النفسى ، كثير
منهم آمن على هدى وبصيرة وكأنما كانت الآيات المنتزلة علاجات منظمة
فأعلة الأمراض قلوبهم فأما شفيت وانضموا الى موكب المهاجرين
والأنصار كانوا قادة الأمم ونماذج معجزة لما يصنع القرآن بالقلوب
وانظر حال خالد بن الوليد وعمر بن العاص وعكرمة بن أبي جهل وأبي
سفيان بن حرب وغيرهم ممن أسلم بعد «أحد» أو بعد «الفتح» ذات
كيف كان الواحد منهم بأمة رضى الله عنهم .

كما جاء التذكير في آية واحدة «مذكر دائما أنت مذكر لئلا تنسى»
عليهم «مستطرا» (٥٠) والتذكير بمعنى التذكير بالذكر بمسؤول
الرسالة (٥١) فأسلوب القصر تحقيق وتكرار وتعليق لافعل «ذكر»
ففيه معنى السببية أو شبه كمال الاتصال والصفة

المنفية : الاكراه والاجبار بدليل : ليست عليهم بمسيطر (٥٢) وينضم
الى ما سبقه من كونه قصر افراد تنزيلي .

ومن شواهد قصر الافراد التنزيلي عنم السكاكي والقزويني قوله
تعالى : « ولقد كنتم تمنون الموت من قبل ان تلقوه فقد رأيتموه وانتم
تنظرون ، وما محمد الا رسول قد خلت من قبله الرسل افان مات او
قتل انقلبتم على اعقابكم » (٥٣) والخطاب للمؤمنين ، وذلك في موقف
خاص في غزوة احد لما خالف الرماة عن امر الرسول صلى الله عليه وسلم
وزلزل المؤمنون واشيع ان النبي الكريم قتل ، والأسلوب جزل عنيف
شديد الايقاع كثرت فيه الدال واللام والتاء مما صبغ التراكيب صبغة
ايقاعية قوية راجفة ، وهذا يوائم موقف التخادل تربية وتصحيحا للعقيدة
ووضعا للنبي الكريم في موضعه البشري الصحيح في الاسلام من انه
يشير يموت كالbشر وامتيانظ بمطه الرسالة الالهية « وما محمد الا رسول
قد خلت من قبله الرسل » فقد نزل المؤمنون حين استعظموا موته وبلغت
القلوب الحناجر منزلة من يعتقد ان رسول الله يجمع بين صفتي
الرسالة والخواود فقصر عليه السلام على الرسالة وحدها . وعلى هذا
تكون الجملة « قد خلت » صفة مؤكدة لمعنى القصر متأخرة عنه في
التقدير ، وذهب العلامة الطيبي وجماعة اخذا عن تأويل الزمخشري
الى انه قصر قلب لانصباب القصر على الصفة (قد خلت) كان المؤمنون
اعتقدوا ان لرسول الله صلى الله عليه وسلم حكما مخالفا للرسول
في وجوب اتباع دينهم بعد موتهم ، فقلب الحكم ، كأنه قيل : قد خلت
من قبله الرسل أمثاله فسيخلو كما خلت ، وثم رأى ثالث : هو أن
المقصود عليه « رسول » كالأول واكنه قصر قلب أي رسول لا اله وأكدت
الصفة (قد خلت) معنى القصر ورجح أبو السعود هذا الرأي واقتصر

عليه السيوطي (٥٤) وتبدو قوته لأن موقف المؤمنين في انهيارهم نشأة عن شائعة الموت ومبداً جله يهين الأسلوب أي الا بقر رسول يموت كما مات اسلافه وليس لها باقيا .

وقد اشترطوا في قصر الموصوف على الصفة افراداً : عدم تنافي الوصفين ليجتنب الاشتراك فيهما . ومن قصر الصفة على الموصوف قوله تعالى : ﴿ انما حرم عليكم الميتة والدم ، واحم الخنزير ، وما اهل به لغير الله . . الآية ﴾ (٥٥) .

والآية من خطاب المؤمنين كما ذكر الطبري وليبين رداً على المشركين كما اجاز الشهاب والأوسى إذ التحليل والتحرير من التشريع (٥٦) والتكليف فرع الايمان المتحقق في المؤمنين ولما كانت هذه الأمور غير مجرمة في الجاهلية والأصل في الأشياء الحل قصر صفة التحريم على هذه الأشياء دون سواها . قصر افراد .

(٥٤) راجع الآية في : الكشاف ١/٤٦٨ والمفتاح ٢٨٩ والايضاح ٢١٩
 وأبي السعود ٢/٩٢ والشهاب ٣/٨٦ والاتقان ٢/٤٩ والأوسى ٤/٧٣ .
 (٥٥) الآية ١٧٣ البقرة .
 (٥٦) راجع الطبري ١/٥٠ والشهاب ٢/٢٨٦ والأوسى ٢/٤٣ .

عيسى (٧) قوله تعالى ﴿وَمَا يَكْتَفِهِمْ مِنْ ذَرِّبَةٍ مِمَّا يَخْرِقُهَا وَيَكْمُلُ الْفَرْجَ مِنَ الْمَقْتَدِرِ﴾ (١) وهو البوسائل التي تحدث في الأسلوب هذه الخصوصية، فمن

مركيز جملتين في جملة إحدى الجملتين مثبتة والأخرى منفية، وأشهر هذه الطرق الاصطلاحية: النفي والاستثناء، انما = التقديم - العطف ببل ولا ولكن، ومنها: ضمير الفصل وتعريف الطرفين، وقد أوصلها السيوطي (١) إلى أربعة عشر طريقا لكنها لا تنفيذ القصر دائما كالنفي والاستثناء.

وقد يدل الأسلوب، وطريقة بنائه وما يكتنفه من قرائن على القصر، وهو قصر غير اصطلاحى كقوله تعالى من سورة يس « أو لم يروا أنا خلقنا لهم مما عملت أيدينا أنعاما فهم لها مالكون » (٢) ومعنى: ما عملت أيدينا: ما تولينا نحن أحداثه ولم يقدر على تولية أحداثه أحد غيرنا (٣) فكلمة: أيدينا ودلالة المقام أفاد المبالغة في الاختصاص وقد جاء هذا التركيب في ذات السورة بعد آية احياء الأرض « وجعلنا فيها جنات من نخيل وأعناب، وفجرنا فيها من العيون لياكلوا من ثمره، وما عملته أيديهم أفلا يشكرون » (٤) فقوله « وما عملته أيديهم » جاء على طريق النفي وهو دال على القصر كما أن التركيب في حال الاثبات دال على القصر أيضا في آية خلق الأنعام، ومن المعروف في الاستعمال أن يقال: « هذا شيء عملته بيدي » أى لا مدخل لغيرى فيه لا خلقا ولا كسبا (٥) ومن غير الاصطلاحى: قوله تعالى بعد قصة مريم « ذلك عيسى بن مريم قول الحق الذى فيه يمترون » (٦) وقد تكرار في القرآن

عيسى بن مريم قول الحق الذى فيه يمترون (٦) وقد تكرار في القرآن

(١) السبب في تسمية هذا القصر بالاصطلاحى هو انه ينفذ القصر دائما كالنفي والاستثناء

(٢) قوله تعالى ﴿وَمَا يَكْتَفِهِمْ مِنْ ذَرِّبَةٍ مِمَّا يَخْرِقُهَا وَيَكْمُلُ الْفَرْجَ مِنَ الْمَقْتَدِرِ﴾ (١)

(٣) قوله تعالى ﴿وَمَا يَكْتَفِهِمْ مِنْ ذَرِّبَةٍ مِمَّا يَخْرِقُهَا وَيَكْمُلُ الْفَرْجَ مِنَ الْمَقْتَدِرِ﴾ (١)

(٤) قوله تعالى ﴿وَمَا يَكْتَفِهِمْ مِنْ ذَرِّبَةٍ مِمَّا يَخْرِقُهَا وَيَكْمُلُ الْفَرْجَ مِنَ الْمَقْتَدِرِ﴾ (١)

(٥) قوله تعالى ﴿وَمَا يَكْتَفِهِمْ مِنْ ذَرِّبَةٍ مِمَّا يَخْرِقُهَا وَيَكْمُلُ الْفَرْجَ مِنَ الْمَقْتَدِرِ﴾ (١)

(٦) قوله تعالى ﴿وَمَا يَكْتَفِهِمْ مِنْ ذَرِّبَةٍ مِمَّا يَخْرِقُهَا وَيَكْمُلُ الْفَرْجَ مِنَ الْمَقْتَدِرِ﴾ (١)

(٧) قوله تعالى ﴿وَمَا يَكْتَفِهِمْ مِنْ ذَرِّبَةٍ مِمَّا يَخْرِقُهَا وَيَكْمُلُ الْفَرْجَ مِنَ الْمَقْتَدِرِ﴾ (١)

(٨) قوله تعالى ﴿وَمَا يَكْتَفِهِمْ مِنْ ذَرِّبَةٍ مِمَّا يَخْرِقُهَا وَيَكْمُلُ الْفَرْجَ مِنَ الْمَقْتَدِرِ﴾ (١)

(٩) قوله تعالى ﴿وَمَا يَكْتَفِهِمْ مِنْ ذَرِّبَةٍ مِمَّا يَخْرِقُهَا وَيَكْمُلُ الْفَرْجَ مِنَ الْمَقْتَدِرِ﴾ (١)

(١٠) قوله تعالى ﴿وَمَا يَكْتَفِهِمْ مِنْ ذَرِّبَةٍ مِمَّا يَخْرِقُهَا وَيَكْمُلُ الْفَرْجَ مِنَ الْمَقْتَدِرِ﴾ (١)

وصف عيسى عليه السلام بأنه ابن مريم خمس عشرة مرة (٧) فهو عيسى بن مريم لا ما يصفه النصارى واليهود من أنه ابن الله أو لغير رسده (٧) وهو تذييب لهم على الوجه الإبليغي والمنهج البرهاني ، حيث جعل موصوفاً بأضداد ما يصفونه ، فالحصر مفاد من فحوى الكلام ، وحكى الشهاب قولاً ضعفه هو أن الحصر هنا مفاد من تعريف الطرفين بناء على ما ذكره الكرمانى فى شرح النجارى من أن تعريف الطرفين مطلقاً يفيد القصر ، أو بناءً على أن عيسى بن مريم مؤول به إذ تأويله المسمى به (٩) والأول أرجح وأصوب لعدم اشتهاه ما قال الكرمانى عند العلماء . وقال تعالى « والى تمود أخاهم صالحا ، قال يا قوم اعبدوا الله مالكم من اله غيره هو أنشأكم من الأرض واستعمركم فيها » (١٠) فقد ذكر الشهاب أن الحصر مفاد من السياق لأنه عليه السلام لما حصر الالهية فيه سبحانه اقتضى حصر الخالقية فيه وهذا مصادرة والغاء لما تعارف فيه كثير من الأئمة من أن القصر يفاد من تقديم الفاعل المعنوى « هو » نحو « أنا قضيت حاجتك نص على مثل ذلك عبد القاهر والزمخشري وشراح التاخيص وغيرهم وقال الزمخشري فى تاويل الآيه « لم ينشئكم الا هو ولم يستعمركم فيها غيره » (١١) .

وقال تعالى « وتوكل على الحى الذى لا يموت » (١٢) وصف نفسه بالمعنى الذى يختص به تعالى والوصف الذى يقتضى التوكل عليه ، والثقة به سبحانه (١٣) وأصله عند الشهاب « وتوكل على الله »

(٧) المعجم المفهرس ٤٩٥ . (٨) البحر ٦/٢٨٩ .

(٩) راجع الكشف ٥١٧/٢ وأبا السعود ٢٦٤/٥ والشهاب ٦/١٥٦ .

نقلا عن ابن السعود . والألوسى ١٦/٩٠ .

(١٠) هود ٦١ .

(١١) راجع الدلائل ٩٤ والكشاف ٢/٢٧٨ وأبا السعود ٤/٢٢٠ .

والشهاب ٥/١١٠ والأبضان ٣/٥١ .

(١٣) راجع البحر ٦/٥٠٨ .

١٢٦٦ الفرقان ٥٨ .

فلما عدل عنه الي ما ذكر دل بفحواه أن من ليس كذلك لا يوح التوجه
عليه، سواء كان غير حي كالأصنام ، أم حيا يموت كمن عبد من دون
الله . (١٤) .

ضمير الفصل

وقد آثرناه ببعض التحليل لوجود آيات في نسق مشابه في بعضها
ضمير الفصل دون الأخرى ثم رأينا احكاما - في هذا الصدد - ينبغي
مراجعتها . نسبت الي بعض العلماء .

وشرط ضمير الفصل أن يقع بين المبتدأ والخبر أو ما أصله المبتدأ
والخبر وقد أجاز السهيلي والجرجاني والزمخشري والبيضاوي أنه
يجيء ضمير الفصل اذا كان الخبر مضارعا أو اسم فاعل مثله ، كما ذكر
له العلماء ثلاث فوائد : تأكيد المسند اليه ، والاختصاص وبيان أن
المسند خبر لا صفة ، يعنون أنه يفيد التأكيد اذا لم يفيد
الاختصاص (١٥) . فان أفيد القصر بطريق آخر كأن يكون الخبر
معرفا بأل دل ضمير الفصل على تأكيد الحصر سواء كان من قصر المسند
على المسند اليه نحو « ان الله هو الرزاق ذو القوم المتين » أو العكس
نحو : الكرم هو التقوى أي لا كرم إلا التقوى . اذ لا معنى لقصر
التقوى على الكرم (١٦) وهذا رأى عبد الحكيم بينما قال السيد في
حاشية على الكشاف « ان كلام الزمخشري في الفائق يدل على أن تعريفه
المسند يفيد حصر المسند اليه فيه حيث قال : « معنى أن الله تعالى هو
الدهر » : هو الجالب للحواث لا غير الجالب » ولا يخفى عليك ضعفه
لأن تعريفه ... الخبر بلام الجنس يفيد حصره في
المبتدأ كما هو مذكور في المفتاح والمشمور في

(١٤) راجع الشهاب ٤٣٣/٦ .

(١٥) راجع حاشية المسوقى ٢٨٦/١ والشهاب ٢٢١/٥ .

(١٦) حاشية عبد الحكيم ١٨٠ .

الاستعمالات» (١٧) والتحقق أن ذلك غالب والحكيم فيه
 المشياق كما ذكر عبد الحكيم وقال تعالى مبينا جزاء المؤمنين ، اثر تعداد
 صفاتهم الجليلة أول سورة البقرة : « أولئك على هدى من ربهم وأولئك
 هم المفلحون » (١٨) وفي صياغة الاسلوب دلالة على اختصاص المفلحين
 بنيل ما لا يناله أحد بطرق شتى : تكرار اسم الاشارة وكونه للبعيد
 تكريما • وتعريف « المفلحون » وتوسيط ضمير الفصل لانه محل توكيد
 دفعا لمن ينتسك في الاسناد أو يتوهم الشريك وقد انتقت الكلمة على
 ذلك (١٩) ثم جاءت آيات لوصف المنافقين بعد الكافرين فقال تعالى
 « وإذا قيل لهم لا تفسدوا في الأرض قالوا إنما نحن مصلحون ألا انهم
 هم المفسدون ولكن لا يشعرون » (٢٠) •
 والفساد في الأرض هو الكفر والمعصية - كما يرى الطبري • أي
 لا تفعلوا ما يؤدي الى الفساد ، وواضح من كلامه أنه قصر قلب وعليه
 بعض العلماء (٢١) •

ويرى الزمخشري وتابعه أبو السعود وسيد شريف والشهاب أنه
 قصر أفراد ، فالمنافقون توهموا بأنه حكم عليهم أنهم خلطوا عملا
 صالحا ، وآخر سيئا ، فبينوا أن صفة الصلاح محضت من غير شائبة
 هادحة فيها (٢٢) فرد القرآن عليهم « ألا انهم هم المفسدون ولكن
 لا يشعرون » وقد تكاثرت أدوات التأكيد في تركيز شديد يقذف بهذه

(١٧) راجع حاشية السيد على الكشاف ١/١٨٩ •

(١٨) آية هـ

(١٩) راجع الكشاف بحاشية السيد ١/١٣٦ وتبعه الرازي ١/١٧٠

• وأبو حيان ١/٤٤ ، والنيسابوري ١/١٥٤ •

(٢٠) البقرة ١١ - ١٢ •

(٢١) راجع الطبري ١/٩٩ •

(٢٢) راجع الكشاف والسيد ١/١٨٠ وأبو السعود ١/٤٤ والشهاب

الحقيقة في وجوههم - كما هو متعالم - فكان الحكم في صورة الاسمية المفيدة للثبوت والدوام ، وتعريف الطرفين المفيد للقصر ، وتوسط ضمير الفصل المؤكد لهذا الحصر وصدر الكلام بحرف التنبيه الدال على خطر ما بعده ، وذيل بالاستدراك الدال على التقرير والتوبيخ فهم من جملة الموتى الذين لا شعور لهم ، والا لأدركوا أن فسادهم ظهر ظهور المحسوس .

والقصر هنا من قصر الافساد عليهم ، أى هم لا غيرهم المفسدون وهو انتقال بالكلام من الجدال في الصفة الى تعيين الموصوف بعد اثبات الصفة. ترقيا في الظم ، وكتاية عن أنه لا فساد في الأرض الا منهم وقد جعله في الكشاف قصر قاب ورد عليه السيد في حاشيته ثم أوما الى ما ذكره ابن يعقوب من أن الفصل هنا لتأكيد النسبة أيضا ، ولما كان المنافقون لا يتعدون حقيقة الفساد بمعنى أن المسند هنا متحد بالمسند اليه بدلالة القرينة فانما يتعدون هم هم المفسدون ، يمكن أن يكون الفصل مؤكدا لنسبة الاتحاد وهو أقوى من القصر في افادة المقصود (٢٣) .

ومثل الآيتين السابقتين كثير ، فقد جاء في عديد من الآيات تعقيبا على صفات عالية للمؤمنين أو سمات نازلة للكافرين من تأكيد المتقابلات .

من مثل قوله تعالى « أولئك هم الصادقون » (٢٤) ، أولئك هم المؤمنون حقا (٢٥) ، أولئك هم الوارثون « (٢٦) وفي المقابل جاء نحو قوله تعالى « أولئك هم الخاسرون ، (٢٧) الذين كذبوا شعيبا كانوا هم

(٢٣) راجع مواهب الفتح ٢٢٠/٢ وحاشية النسوقى ٢٢١/٢

(٢٤) الحشر: ٨

(٢٦) المؤمنون: (٨)

(٢٥) الأنفال: ٤

(٢٧) البقرة: ٢٧

الخاسرين (٢٨) ، لا جرم أنهم في الآخرة هم الأخسرون « (٢٩) .
يقصر ما بعد الضمير من وصف على المسند إليه مدحا أو قدحا .

• وقد يتوقف العلماء عند بعض الأساليب التي تشبه ما تقدم

قال الله تعالى : « والذين يؤمنون بما أنزل اليك وما أنزل من قبلك
وبالآخرة هم يوقنون » (٣٠) .

وقال في سورة هود « الذين يصدون عن سبيل الله ، ويغفونها عوجا
وهم بالآخرة هم كافرون » (٣١) .

وفي مثل هذه الأساليب التي لم يعرف فيها الخبر يرى أبو حيان
أن التقديم هنا مجرد الاهتمام والضمير « هم » لجرد التأكيد (٣٢) .

ويرى بعض العلماء ممن لم يشترط تعريف الخبر — لافادة القصر —
مع ضمير الفصل كالزمخشري وأكرمانى وأبى السعود أن في الآية
قصرا واحدا بضمير الفصل أما تقديم « الآخرة » فللمبالغة مدحا
للموقنين وذما للمنكرين ويرى سيد شريف والشهاب فيما نقل ان في
الأسلوب قصرين : قصر الكفر عليهم دون غيرهم ثم قصر كفرهم
على الآخرة : ولعل مرادهم قصر كفرهم على حقيقة الآخرة لا يتعدها
الى خلاف حقيقتها ، وفي آية المؤمنين كما حقق سيد شريف اختلاص
الايقان بالآخرة وقصر ذلك عليهم دون غيرهم كأهل الكتاب تعريضا بأن
ما عليه أهل الكتاب ليس من حقيقة الآخرة في شيء .

والأوضح هو الرأي الثاني فهو معتدل غير مغرق في التكلف (٣٣)

(٢٨) الاعراف ٩٢

• البقرة ٤ (٣٠)

• هود ٢٢ (٢٩)

• البحر ٣٠٩/٥ (٣٢)

• هود ١٩ (٢٨)

(٣٣) راجع في الآيتين الكشف والسيد ١٣٧/١ وأبا السعود ٢٧٧/٤

• والشهاب ١٧٨/٥ وأكرمانى ٨١

قال الله تعالى : « وأنه هو أضحك وأبكى ، وأنه هو أمات وأحياء ، وأنه خلق الزوجين الذكر والأنثى من نطفة اذا تمنى وأن عايه النشأة الأخرى » (٣٤) •

نقل السبكي عن السهيلي أن ضمير الفصل أتى في كل موضع ادعى فيه نسبة ذلك المعنى الى غير الله تعالى • ولم يؤت به حيث ام يدع • وقد نازعه في ذلك بأن : الاحياء خلق ، والخلق لم ينسبه أحد لغير الله تعالى ، واذا كان النمرود قد نسب الاحياء والاماته لنفسه فقد جاء قوله « وأنه خلق الزوجين الذكر والأنثى » ولم يؤكد بالفصل مع أنه منه (٣٥) •

والواقع أن قوله ان النمرود نازع في نسبة الحياة والموت صحيح يؤكد ما ذهب اليه العلماء ، أما قوله ان الاحياء خلق والخلق احياء فقول واهم تنقصه الدقة • لأن لكل فعل دلالة خاصة ، فالخلق معناه : التقدير المستقيم ويستعمل في ابداع الشيء من غير أصل ولا احتذاء كقوله تعالى : خلق السموات والأرض » وفي ايجاد شيء من شيء كقوله خلقتكم من نفس واحدة — كما ذكر الراغب (٣٦) •

فالخلق عام ، أما الاحياء فهو بث قوة الحياة في معدوم ، والاحياء والاماته أثر لصفتي الله تعالى : المحيي المميت ، ولذا لا يستعمل أحدهما أعنى الخلق أو الاحياء • مكان الآخر ، ويؤكد هذا قول الزركشي عن آية الخلق : ان ذلك مما لا يتعاطاه أحد لا حقيقة ولا مجازاً ولا ادعاء بخلاف الاحياء والاماته فيما حكاها الله تعالى عن نمرود (٣٧)

(٣٥) عروس الأوزاع ٢/ ٢٨٦ •

(٣٧) البحرمان ٢/ ٤٥٠

(٣٤) النجم ٤٣ - ٤٦

(٣٦) المفردات ١٥٩

وهو بسط لقول أبي حيان ان الضمير دخل فيما فيه نزاع (٣٨) • ونقل
يعنى هذا من كتب في القصر من المؤلفين حديثا •

أما موضع المتشابهة فهذه الآية من سورة النجم مع قول الله تعالى
على لسان ابراهيم الخليل عليه الصلاة والسلام — ثناء على ربه بدء
دعائه الضارع من سورة الشعراء « الذى خلقنى فهو يهدين ، والذى
هو يطعمنى وييسقنى ، واذا مرضت فهو يشفين والذى يميئتى ثم
يحيين » (٣٩) ذكر الاسكافي في الدرّة ، والكرمانى فى الأسرار •

ان اضافة الفعلية الاطعام والشفاء الى الله تعالى محتاجة الى
لفظ التوكيد لما يتوهم من تضيفه الى المخلوق ما لا يحتاج اليه اضافة
الموت والحياة ، لأن أحدا لا يدعى فعلهما كما كان يدعى الأولين « (٤٠)
وقد بسط الامام أبو السعود هذا المعنى بأسلوب رصين (٤١) ما معنى
هذا الكلام ؟ وكيف تتناقض الآراء فى ذكر الضمير وعدم ذكره ؟

يبدو أن للسبب دخلا كبيرا ذلك أن آيات النجم تعبر عن
حقائق الهية مطلقة تنتظم البشرية كلها جاءت فى صحف ابراهيم وموسى

فالاضحاك والابكاء معبران عن السعادة والتعاسة أو أن الفرح
والترحم بيد الله ، والامانة والاحياء سواء تواردا على محل واحد أو أكثر
فهو فعل الله أبدا فى الحياة والأحياء لكن المستغنى المستكثر من البشر
حين يطغى ، يتوهم أنه قادر على الاشقاء والاسعاد والتحكم فى الاعمار
كتمروذ وغيرهون فى الماضى كتماذج كافرة فى كل زمان ، وقد جاء ضمير
الفصل فى آية النجم رفعا لهذا الوهم الضال وتقريراً لصفات الله تعالى
وبثاً للثقة فى القلوب المؤمنة •

(٣٨) البقره ١٤٠/٤٤ (٣٩) الآيات ٧٨ - ٨١ •

(٤٠) درة التنزيل ٣٣٢ وأسرار التكرار للكرمانى ١٥٥ •

(٤١) تفسيره : ٢٤٩/٦ •

أما آيات الشعراء فكانت مقابلة بين ابراهيم الخليل وبين قومه ، وقد نعلم ان اياه دعاه الى دينه في محاوراة لهما في سورة مزيم ، وان قومه قد يرون من الاسباب الظاهرة من يطعمه ويسقيه ، ويقدم اندواء ان مرض ، ولانكارهم مسبب الاسباب قد ينازعون في نسبة ذلك على الحقيقة الى رب العالمين . فناسب ان ينزع ابراهيم هذا الوهم .

وقوله : الذي يمتتي ثم يحيين يعني البعث بعد الموت ، فقد سبق مباشرة انخراطه عليه السلام في دعاء خاشع بين فيه قومه على حقيقتهم مخلوقات عاجزة جاهلة ضعيفة ، فالحقيقة الكبرى ذكرها دون تأكيد بضمير الفصل أو غيره ، وصفا ليقينه وقوة ايمانه ، فالحال هنا خاصة جدا بأبي الأنبياء ، أما قصرة عليه السلام الاحياء والاماتة على ربه في قوله « ربي الذي يحيي ويميت » فقد كان في مقام الحجاج للمروذ الذي حاجه ابراهيم في قومه ان آتاه الله الملك .

فقول السهيلي والاسكافي والكرمانى عن الحياة والموت في آية الشعراء لأن أحدا لا يدعى فعلهما ليس على إطلاقه ، بل هو مقيد حسب السياق والمقام والاما جاء الفصل في آيات النجم ثم الاحياء ليس خاصا بالاحياء في الدنيا مما هو منظور كل آن بل هو الاحياء بعد الموت أعنى البعث ، وهو أمر أنكره كفار كل دين ، ولذا تغيرت صيغة الأسلوب الخاصة به في سورة النجم « وأن عليه النشأة الأخرى » قصرا بالتقديم ودلالة الحرف « على » تحتهم وقوعه ، فلم يبق -- والله أعلم -- الا أن يقال ان آيات الشعراء خاص بابراهيم ووصف احساسه ، وصدق ايمانه مع اهمال قومه بل ان الأسلوب الغامض تماما فاندفع أبو الأنبياء في دعائه الوجمل « ولا تخزنى يوم بيعتسون يوم لا ينفع مال ولا بنون الا من أتى الله بقاب سليم » فهي حقائق كبرى تنتظم على لسانه ، فوق الزمان والمكان ولذا التأم به وحرف المشاهد الاخرية بالعطف عليه دون فصل أسلوبى « وأرأيت الجنة للمؤمنين » الآيات ..

وإذا فقول السهيلي رحمه الله : ان الضمير يؤتى به في كل موضع يدعى فيه نسبه الى غير الله ، ينبغي أن يحزر فيقال : في كل موضع وصف الله فيه بوصف يدعى نسبه الى غيره تعالى ولو أطلق كالعلماء لسكان أدق .

ومن الآيات المتشابهة جاء قول الله تعالى في سورة الحج : ذلك بأن الله هو الحق ، وأن ما يدعون من دونه هو الباطل وأن الله هو العلي الكبير (٤٢) وفي لقمان « ذلك بأن الله هو الحق وأن ما يدعون من دونه الباطل وأن الله هو العلي الكبير » (٤٣) في عقد موانة بين الحق ذي الآيات الجليلة وبين الباطل الحائل ، وقد جاء ضمير الفصل في آية الحج اذ تقدم في النسق ذكر الله تعالى ثم ذكر الشيطان ووقعت الآية بين عشر آيات كلها مؤكدة كما أن الأسلوب أقسى وأعنف بالمشركين ، فضمير الفصل هنا يرد على من يشركون مع الله يسواه اتباعاً للشيطان وتلاؤماً مع نسج السعاق أما آية لقمان فلم يتقدم فيها ذكر الشيطان فأكثر من ذكر الله وآياته وكان فيه غنى عن ذكر ضمير الفصل اذ الفكرة وهي بطلان الشركاء واضحة وسط النسق المتلائم واكتفى بما جاء في الآية من تأكيد (٤٤) .

ومن المتشابهة أيضاً : ما جاء في قصة عيسى بن مريم على لسانه عليه السلام في آل عمران « ان الله ربي وربكم فاعبدوه » (٤٥) وفي سورة مريم « ان الله ربي وربكم فاعبدوه » (٤٦) بينما جاء في سورة الخرف : « ان الله هو ربي وربكم فاعبدوه » (٤٧) .

- (٤٢) الآية ٦٢
 (٤٣) الآية ٣٠
 (٤٤) راجع الاسكافي ٣١٢ والكرمانى ١٤٧
 (٤٥) الآية ٥١
 (٤٦) الآية ٣٦
 (٤٧) الآية ٦٤

قال الكرّماني: ان الذي في آل عمران وقع بعد عشر آيات من قصة مريم وفي سورة مريم أكثر من ذلك وليس كذلك ما في الزخرف فإنه ابتداء كلام منه فحسن التأكيد بقوله هو بجعل المبتدأ مقصّورا على الخبر وهي اثبات الربوبية لله ونفى الأبوة تعالى الله عن ذلك علوا كبيرا « (٤٨) » .

ويقصد رحمه الله بابتداء كلام لأنه جاء في سياق رد فيه القرآن على مشركي مكة حين ضربه ابن الزبيرى مثلا مجادلا رسول الله - صلى الله عليه وسلم - في الآية « انكم وما تعبدون من دون الله حصب جهنم » فبين القرآن بحسم أن عيسى عبد أنعم الله عليه (٤٩)، ثم ذكر طرقا يسيرا من قصة عيسى هي زبدة الخلاف وهي دعوة عيسى قومه الى التوحيد بالله ربهم جميعا ، فلم تأت الآيات مكمة لقصة مريم كما في آل عمران ، ومريم ، أما قوله انه من قصر المبتدأ على الخبر فيبدو أنه خطأ في النسخ اذ هو من قصر الخبر على المبتدأ بقصر ربي وربكم ذى الآلاء التي لا تحصى وهي الربوبية على الله وحده دون سواه ، لفادة لوحدة الألوهية والربوبية ، ويزشح هذا عطف ربكم على ربي أى ربنا جميعا ، ونفى ما رمى به عيسى من النبوة إنما هو من عرض الكلام أو كناية عنه .

ضمير الفصل وتعبير « الفوز العظيم » :

جاء التعبير القرآنى « وذلك هو الفوز العظيم » بالواو وبدونها وبضمير الفصل وبخونه في ذقة متناهية متلائمة مع السياق ، وقد جاء التمييز تذييلا مقررًا رحمة الله تعالى لكمؤمنين بدخولهم الجنة ، وقد تعدد الآيات بعضها من مظاهر نعيمها كما جاء في آية واحدة تعقيبا على

(٤٨) راجع حرة الاسيكاى (٦٨) واسرار الكرمانى ٤٩ .

(٤٩) راجع الكشاف ٤٩٣/٣

اشترى الله ارواح المؤمنين بأن لهم الجنة ثم قد جاء التركيب مؤكدا
بضمير الفصل في ست آيات فقط وقد لاحظنا :

أولا : ضمير الفصل جاء في تركيبه تعقيبا على جزاء راق لنسبوع
متميز خاص من المؤمنين كما في الشهداء الذين اشترى الله أنفسهم
وأموالهم بأن لهم الجنة في آية التوبة (٥٠) •

وأولياء الله أصحاب البشرى في الحياة الدنيا وفي الآخرة في
سورة يونس (٥١) •

كما جاء تفضيلا لصفات عالية للمؤمنين والمؤمنات تقابلا مع
المنافقين والمنافقات الذين أعد لهم جزاء رهيب « جهنم خالدين فيها
أبدا هي حسبهم ولعنهم الله ولهم عذاب مقيم ولذا كان من التلازم
ذكر هذا الجزاء الخاص للمؤمنين المخصوصين : « جنات عدن تجري
من تحتها الأنهار خالدين فيها ومسكن طيبة في جنات عدن ورضوان
من الله أكبر ذلك هو الفوز العظيم » من سورة التوبة (٥٢) •

وقريب منها آية الحديد في المؤمنين والمؤمنات الذين يسعون نورهم
بين أيديهم وبأيمانهم » (٥٣) •

وفي الصفات : تعقيبا على جزاء عباد الله المخلصين (٥٤) وكان
للاخلاص أثره في الجزاء وفي تضاعف التأكيد على السواء « ان هذا
لهو الفوز العظيم » •

كما جاء على لسان الملائكة في دعاء طاهر للمؤمنين أن يقيهم الله
السيئات ويدخلهم جنات عدن « ومن تق السيئات يومئذ فقد رحمته »
وذلك هو الفوز العظيم (٥٥) •

• (٥١) الآية ٦٤

(٥٠) الآية ١١١

(٥٢) الآية ٧٢ • (٥٣) الآية ٨٢ • (٥٤) الآية ٨٢ • (٥٥) الآية ٨٢

(٥٥) الآية ٨٢ • (٥٦) الآية ٨٢ • (٥٧) الآية ٨٢ • (٥٨) الآية ٨٢

(٥٤) الآية ٦٠

والتلازم واضح بين هذه الآية وآية التوبة في فيكون جنات عدين
والتذييل بذات التعبير .

وقد عقد الأسكافي وتبعه الكرمانى موازنة بين آية في التوبة :
« خالدین فيها أبدا ذلك الفوز العظيم » (٥٦) وآية الحديد « خالدین
فيها ذلك الفوز العظيم » .

وقال : ام يذكر أبدا بعد خالدین في سورة الحديد حتى لا يطول
الكلام فذكر بدلا منه « هو » .

ولما ذكر في التوبة « أبدا ، لم يذكر الضمير » . والواقع أن
« أبدا » لم تذكر الا مرتين في آية التوبة ، وآية الثعابين « ومن يؤمن
بالله ويعمل صالحا يكفر عنه سيئاته ويدخله جنات تجري من تحتها
الأنهار خالدین فيها أبدا ذلك الفوز العظيم » (٥٧) .

وقوله ان ذكر « هو » عوضا عن ذكر « أبدا » بعد خالدین حتى
لا يطول الكلام : غير دقيق وغير مطوّد فقد جاء في الآية ٨٩ من سورة
التوبة « أعد الله لهم جنات تجري من تحتها الأنهار خالدین فيها ذلك
الفوز العظيم » وهي في الرسول والذين آمنوا معه . فجاء فيها
« خالدین » ولم تأت « أبدا » ولم يذكر الضمير على أن تعليقه شكلي
لا يصلح تفسيراً لهذه الظاهرة أعني وجود الضمير أو عدم وجوده ،
والحق ، أن ذكر الضمير انما هو في جزاء خاص لنوع خاص من
المؤمنين .

أما سورة التوبة فلها وضع خاص معجز ذلك أن هذا التعبير جاء
في أربعة مواطن في الآيات ٧٢ ، ٨٩ ، ١٠٠ ، ١١١ جاء ضمير الفصل
فيها في آيتين الأولى ٧٢ والرابعة أعني البدء والختم ، والمشير أن

(٥٦) الدرة ١٠٣ والأسرار ٩٩

(٥٧) الآية ٩

المؤمنين في الآية الأولى الذين جاء في مقابلهم أعنى المنافقين : والذين وعدهم الله الجنة ورضوانه الأكبر هم هم المذكورون في الآية ٧٩ « الرسول والذين آمنوا معه » وهم جمع المهاجرين والأنصار وهم أيضا في الآية ١٠٠ السابقون الأولون من المهاجرين والأنصار وهم هم أخيرا في آية الخاتمة ١١١ أصحاب بيعة الرضوان « فاستبشروا ببيعكم الذي بايعتم به وذلك هو الفوز العظيم » فذكر الضمير في الآية الأولى لأنه البدء ولم يذكر في الآيتين بعد اكتفاء ، وجاء به أخيرا لطول السياقات كأنه من تأكيد البدء والختام وهذا من التلاؤم والوحدة المعجزة ، والملاحظ اتحاد المسند والمسند اليه وتأكيد ضمير الفصل لهذا الاتحاد أو للقصر بتعريف الطرفين ووصفه آخرًا بالعظيم في التعبير ذلك هو الفوز العظيم تناسبًا بين حقيقة الجزاء ووصفه •

صفات الله تعالى :

يغلب في القرآن أن تختتم الآيات بذكر بعض أسماء الله تعالى تذييلا ملائما للآية قبله وهو يجمع بين التذييل ومراعاة النظر وقد يسمى تناسب الأطراف (٥٨) •

وأسراره عديدة تحتاج بحثا عميقا عن العلاقة البلاغية بين التذييل وما يسبقه كأن يكون هذا السابق أثرا من آثار الصفات اللاحقة : كقوله تعالى : « لا تدركه الأبصار وهو يدرك الأبصار وهو اللطيف الخبير » (٥٩) •

وقواه : له ملك السموات والأرض يحيى ويميت وهو على كل شيء قدير (٦٠) أنى غير ذلك من مواطنه وأسراره ، وقد يجيء ضمير الفصل في هذه التذييلات اذا اقتضى المقام بمعنى أن يكون مقاما خاصا

(٥٨) راجع أنوار الربيع ١٩٥/٤ •

(٦٠) الحديد ٢ •

(٥٩) الأنعام ١٠٣

متجلى فيه الصفة الالهية قوية فائقة كل تصور ، ففى مقامات الرحمة
 تتجد روحا وسلاما ونسمات من حنان ترعرش الوجدان كقوله تعالى :
 قل يا عبادى اذنين أسرفوا على أنفسهم لا تقنطوا من رحمة الله
 ان الله يغفر الذنوب جميعا انه هو الغفور الرحيم (٦١) .

وقد تداخل الرحمة هول الانتقام فيصيب الهول الأكبر أهله
 وتتسكب الرحمة على ذوبها فى ذات الزمان والمكان عزة العزيز وحكمة
 المقتدر : فلما جاء أمرنا نجينا صالحا والذين آمنوا معه برحمة منا ومن
 خزى يومئذ ان ربك هو القوى العزيز » (٦٢) وقال عيسى فى تبرئه من
 الحول والطول « أن تعذبهم فانهم عبادك وان تغفر لهم فأنت
 العزيز الحكيم » (٦٣) فهو غفران لمن عصى لا يملكه ولا يقدر عليه
 سواء فالضمير هنا كما فى سابقه تأكيد للقصر مناسبة للمقام .

النفى والاستثناء

والنفي أولا — متنوع كثير الدلالات ، لكل أداة جرسها الخاص ،
 ودلالاتها المعينة المناسبة للتركيب ، فلا يجوز أن تحل أداة محل أخرى ،
 بلاغة ، حتى وان تشابها دلالة .

فهناك : «ان» النافية : بجرسها الخاطف ومقطعها المغلق ، تختلف
 عن « ما » بفتحها الطويلة واذا كانت ما : تفيد التوكيد لأنها : تجاب
 بقصد ، يقال : ما زيد فعل فى جواب قد فعل — كما نص سيبويه — فان
 «ان» أكثر توكيدا. لشبهها بان المخففة من الثقيلة ، ولهذا تأتي فى
 المقامات التى هى أكثر توترا وأعلى حرارة ، تلك التى تستدعى مزيدا
 من الوثاقة والتركيز ، سواء دخلت مع الجملة الاسمية نحو : ان أنت

الاذخير ، أو الماضوية «نحو» ان أردنا الا الحسنى ، أو المضارعية نحو « ان يتبعون الا الظن » فدلالتها حاوية كأنها توحى بالثبات والجزم ، وبأن مدخولها محقق واقعا ، أو بشيء من المبالغة والدعوى كما فى أقوال المعاندين •

وهذا النوع من كمال قلبي - خلضع لقاعدة دقيقة فى التعبير ، وتصوير المقامات المتلازمة مع السياقات صياغة ، وزمنا ، وحلا ، وليقة •

تأمل حين يتوالى قصران أو أكثر ، بحيث يكون الثانى مؤكدا لمضمون الأول ستجد فى تواليهما ما يسمى بتصعيد المعانى وهو ما أطلق عليه علماءنا « الترقى فى الترتيب » (٦٤) وهو التدرج فى التأكيد وصولا الى الغاية المناسبة اقتصادا فى التأثير وبلاغة فى سياسة النفس •

وفى أحيان كثيرة يأتي الأسلوبان بان^١ والا فى الأول ، أو ما والا^٢ ، وفى الثانى ان والا ، أو فى الاثنى بان والا : قال تعالى « واذا تتلى عليهم آياتنا بينات قالوا : ما هذا الا رجل يريد أن يصدكم عما كان يعبد آباؤكم ، وقالوا ما هذا الا افك مفترى ، وقال الذين كفروا للحق لما جاءهم ان هذا الا سحر مبين » (٦٥) فقد تدرج انفعالهم اللاهث من سخرية وتهكم بالداعى عليه الصلاة والسلام الى تأكيد افتراء المتلو وهو القرآن العظيم ، حاشاه ، ثم بلغ غضبهم حده فرموا بمقولتهم حارة دافقة متلمظة « ان هذا الا سحر مبين » •

وقال أصحاب القرية لرسول عيسى عليهم السلام « قالوا ما أنتم الا بشر مثلنا ، وما أنزل الرحمن من شيء ان أنتم الا تكذبون » (٦٦)

(٦٤) انظر الانتماء على الكشاف ٤٢/١ وهناك لون من الترتيب

النازل أعنى بترتيب الجمل أو الصفات من الأعلى للأدنى •

(٦٦) يس ١٥ •

(٦٥) سبأ ٤٣

فالجملتان الأوليان مقدمة زائفة لهذه النتيجة - في زعمهم - ترقيا
في التأكيد وتصويرا لتدافع الانفعال •

وفي دعوة يوسف عليه السلام صاحبي السجن الى عبادة الله وحده،
وهي دعوة ذكية اعتمدت الأسلوبين الخطابى والبرهانى أسلوبا نفسيا
نبويا مدعوما بالمعجزة يقول فيها : « ما تعبدون من دونه الا أسماء
سميتوها أنتم وآباؤكم ما أنزل الله بها من سلطان ان الحكم الا الله أمر
آلا تعبدوا الا اياه ذلك الدين القيم » (٦٧) •

أربعة أساليب متلاحقة بدأت بما والا مؤكدا أن الأصنام تلك
أسماء وهمية لا منسى لها في دنيا الواقع ، لم يأذن بها الله كناية
مصورة عن وضوح بطلانها وخرق عبادته ، ثم أكد ذلك بهذا المقابل
الجليل « ان الحكم الا لله » والثالث بالنهى والاستثناء دافعا بالأسلوب
والقضية الى غايته وهدفه الحق « آلا تعبدوا الا اياه » وجاء الرابع
تأكيدا لذلك « ذلك الدين القيم » بتعريف الطرفين واتحادهما مدلولاً ،
تدرجا الى تقرير دين التوحيد وهو الدين القيم •

وفي الترقى انفعالا وتأكيدا جاء قول النسوة لما رأين يوسف
وأكبرنه وقطعن أيديهن : « حاش لله ما هذا بشرا ان هذا الا ملك
كريم » (٦٨) والجملة الثانية - عند الامام عبد القاهر - مداخلة
للجملة الأولى من ثلاثة أوجه : وجهان شبيهان بالتأكيد وهما أنه اذا
كان ملكا فهو على التحقيق لا يكون بشرا فانذا ، وثانيا أن الحال اذا
كان للتعظيم والتعجب من فرط جمال وحسن يراه الانسان اذا قيل
ما هذا بشرا أن يكون الغرض أنه ملك فهو تأكيد لأنه تحقيق لما
فهم قبل •

والوجه الثالث شبيهه بالصفة فهو انه اذا نفى الجنس أثبت له جنس آخر ، فاثبات انه ملك تبيين وتعيين لذلك الجنس وهو مبنى على سؤال مقدر ويعنى شبيهه كمال الاتصال (٦٩) .

ونضيف هنا : أن هذا الترقى بالقصر تأكيداً ونعتاً ، ما هو الا تصوير لانبهار النسوة وسحرهن من حسن قاهر غلاب في لحظة دهش غطى فيها الانفعال والأخذ وكل رسل الوجدان على العقل الذاهل ولذا سارعت الألسن في لحن جماعى وجدانى مأخوذ ليس للعقل فيه نصيب وذلك يجعل اثبات الملكية انما هو على سبيل التحقيق انفعالا لا التشبيه الذى يكون للعقل واليقظة فيه أثر ، وهنا صياغة القلب الأثنوى المحترق الدائر في دوامة الكيد بعيدا عن قدس الايمان . كما أن الأسلوب اذا بدى بالأقوى « بان والا » جاء الأسلوب الثانى مثله وهذا اذا كانت الجهة واحدة أو الغرض الخاص واحدا بدلالة المقام كقوله تعالى : « ان يدعون من دونه الا انا وان يدعون الا شيطانا مريدا لعنه الله » (٧٠).

ومعنى يدعون : يعبدون ، وعبادة الشيطان هى طاعتهم نه فى وسوسته واغرائه على عبادة الأصنام — على التأويل — فلا ينفى الحصر الأول . وقيل يدعون : يطيعون : قال هنا الألوسى : « فلا منافاة » والأخير واه ، اذ ليس من دلالة دعا فى القرآن : الطاعة بل : النداء ، أو التسمية أو العبادة أو الابتهاال ، والطاعة جزء من الدعاء بمعنى العبادة وهذا أبعد تأويلا من الأول (٧١) .

وقال تعالى عن الوليد بن المغيرة وموقفه من القرآن « ان هذا الا سحر يؤثر ان هذا الا قول البشر » قال الخطابى : عنادا للحق وجهلا به ، وذهابا عن الحجة ، وانقطاعا دونها « (٧٢) .

(٦٩) الدلائل بتصرف ١٥٤ وانظر أبا السعود ٢٧٢/٤ .

(٧١) انظر الألوسى ١٤٩/٥ .

(٧٠) النساء ١١٧

(٧٢) بيان القرآن ٢٨

والمعجب هنا هذا التلاؤم الخارق في تصوير النفس المضطربة
 للحائرة إذ أى علاقة في وصف التنزيل بأنه سحر فيه استهواء وتأثير
 خفى الأسباب ، وبين أنه قول مصنوع على لسان بشر انه تعليل مرتبك
 مريض مهوش مردود يلطم وجه صاحبه •

ومن المثير حقا أن يكون رد الوليد على القرآن فيه من الانهزام
 والتخاذل والتناقض ما به يكون ابطلا لذات رده ، وسخرية من عزمه
 وعقله وتعجب يود الوليد أن يكون في قوله حكيما هامزا فيصير بما قلناه
 أكثر الناس خرقا وبلاهة وهزأة •

قال الشهاب : هو تأكيد ولذا لم يعطف (٧٣) وقد بينا وجه
 التأكيد فيه •

ثم انه جاءت أساليب فيها قصران والثاني بما والا ، وهذا حين
 تكون الجهة منفكة أو الغرض الخاص للجملة ليس في اتجاه الجملة
 الأولى وان دارا في فلك واحد كقوله تعالى « وان من شيء الا عندنا
 خزائنه ، وما ننزله الا بقدر معلوم » (٧٤) والأول يفيد أن كل المقدورات
 المندرجة تحت قدرته تعالى الشاملة انما هو في غيب مكنون ، والثاني :
 أن واحدا منها لا يظهر الا بالارادة والحكمة العالية فالأول في صفة
 القدرة وعلم الغيب والثاني في الارادة والحكمة ، وجاءت ان والا في
 الغيب لخطورة هذه القضية — كما سيأتى — وادعاء بعض البشر كشف
 شيء من الغيوب (٧٥) •

وقال المصرى لموسى عليه السلام : وقد أراد أن يبيطش به « أتريد
 أن تقتننى كما قتلت نفسا بالأمس ، ان تريد الا أن تكون جبارا في
 الأرض ، وما تريد أن تكون من المصلحين » (٧٦) •

(٧٣) راجع الشهاب ٣٠٧/٨ •

(٧٤) الحجر ٢١ (٧٥) راجع ابا السعود ٧٢/٥ •

(٧٦) القصص ١٩ •

وهذا دال على ذكاء المصيرى • فقد أكد أولا ارادة أن يكون موسى جبارا طاغيا علم الطغيان ، صيحة عاتبة متهمة ، تغلب انفعال موسى عليه السلام ، ثم تراجع الأسلوب ولان ورقت الكلمات ، وتنزلت على داعى الحكمة والذكاء ، فذكر موسى بدعوة اصلاحه ، وجر مبادئه « وما تريد أن تكون من المصلحين » اذ فيه كناية من وجوه : نفى الارادة لنفى الاصلاح من باب أوامى ونفى أن يكون من جملة المصلحين دون أن تكون مصلحا ، لأنه أدل على ذلك ثم اصابة بليغة للهدف وهو التركيز على الاصلاح الذى عاش له موسى ، واذن كان قوله أشبه بالماء البارد الذى أفاق به موسى عليه السلام والذى أنهى الموقف تماما .

وهذه آية أخيرة جاءت على لسان الرسول — صلى الله عليه وسلم — « ان أتبع الا ما يوحى الى وما أنا الا نذير مبين » (٧٧) فقد جاءت الجملة الأولى فعلية ، والثانية اسمية تؤكد الثبات مع الموصف «مبين» فقد أعنت عن ذكر «ان» بدل «ما» والصفة المنفية فى المقصرين تحقيق اقتراحاتهم للآيات الحسية ، وان كان أبو السعود يرى — كما مر أنه اذا كان المقصور عليه الوحى فى ظاهر الأسلوب فان القصر حقيقى والمنفى عام أى ما يقع الا اتباع الوحى بدون سواه ، ففيه عموم فى الرد ، وتنزيه للرسول الكريم اذ لا يخطر على باله ولا يقع فى دائرة فكره الا الوحى واتباعه • ثم ان الجملة الثانية بهدوئها النسبى مودت الاستفهام الداعى الى التفكير وتحكيم بذاعى العقل فى الآية بعدها « قل أرأيتم ان كان من عند الله وكفرتم به وشهد شاهد من بنى اسرائيل على مثله فأمن واستكبرتم » أى ألا يكون هذا شائنا دالا على العجنى ومجانفة الحكمة •

وكذا باقى أدوات النفى لها دلالتها وزمنها وإيقاعها الذى يتطلب
النظم ، ذلك أن الألفاظ مشاكلة للمعانى التى هى أرواحها يتقرس العاقل
فيها — كما قال السهيلي — حقيقة المعنى كما يتعرف الصادق الفراسة
صفات الأرواح فى الأجساد (٧٨) •

فلن لتأكيد النفى فى المستقبل القريب ومقطعها المغلق دال على
هذا القرب وقصور معنى النفى فيها كقوله تعالى : « قل ان كانت لكم
الدار الآخرة عند الله خالصة من دون الناس فتمنوا الموت ان كنتم صادقين
ولن يتمنوه أبدا » (٧٩) اى ان كانت الأخرى قد وجبت وثبتت لكم
— وهذا ما يدعونه — فتمنوا الموت الآن ثم قال فى الجواب ولن يتمنوه
أبدا ، وأبدا تأتى بعد فعل الحال تقول زيد يصلى أبدا (٨٠) •

وقد تفيد الاستمرار — بالقرينة — كقواه تعالى « قل لن يصيبنا
الا ما كتب الله لنا هو مولانا وعلى الله فليتوكل المؤمنون » (٨١) ثقة
بالله ، وتفويضا انبه طول العمر •

ولا عامة الدلالة ، وتتعين دلالتها بمدخولها : فاذا دخلت على
المستقبل جعلته بعيدا منفيا ، تناسبا مع ألفها الذى يمتد بها الصوت ،
فأذن امتداد جرسها بامتداد معناها كقوله تعالى عن اليهود
« ان زعمتم أنكم أولياء لله من دون الناس فتمنوا الموت ان كنتم
صادقين ، ولا يتمنونه أبدا بما قدمت أيديهم » (٨٢) •

(٧٨) راجع نتائج الفكر ١٣١ •

(٧٩) البقرة ٩٤ •

(٨٠) النتائج ١٣٢

راجع فى دلالات أدوات النفى معنى اللبيب ٢٣/١ ، ٢٢٧ ، ٢٨٤ ،

٢٩٢ ، والبرهانا للزركنى ٢/٢١٧ ، ٣٥٤ ، ٢٨٨ ، ٣٣٦ ،

(٨٢) الجمعة ٧

(٨١) التوبة ٥١

لأن اقتران الشرط بالفعل يؤذن بالعموم والانسحاب على جميع الأرمنة ، ولذا جاء في الجواب « لا » بازاء صيغة العموم وهى الشرط ، لاتساع معنى النفى فى لا كما ذكر السهيلي ، ومنه قوله تعالى : لا تدركه الأبصار فهو نفى ممتد (٨٣) .

كما تنفى الماضى ، وتدخل على الاسمىة ، وتؤكد نفى الجنس والاستغراق ان دخلت على نكرة نحو ، لا اله الا الله .

وايس مضاعفة النفى ، تنفى الحال ، وقد تنفى غيره ، كقوله تعالى « ليس لهم طعام الا من ضريع » (٨٤) : فهو لنى الجنس وقوله تعالى « ليس لهم فى الآخرة الا النار » (٨٥) لنى المستقبل والنهى فرع النفى ، وقد جاء القصر بلا الناهية والا ، فى تراكيب فيها حسم وقوة نافذة كهذه الوصية التى كانت من أواخر وصايا ابراهيم لبنيه ويعقوب عليهما السلام « يا بنى ان الله اصطفى لكم الدين فلا تموتن الا وأنتم مسلمون » (٨٦) .

أى لا تموتن على حال من الأحوال الا على حال الاسلام ، والقصر هنا خرجت الفكرة فى معرضه ، ودل على الأمر بالثبات على الاسلام طول الحياة ، والنهى عن كونهم على خلافه وهو الكفر اذ الموت على غير الاسلام لا خير فيه ، وفيه تخييل بديع من تخييرهم بين حالات الموت فيختارون أسماها فرضا وتقديرا وحقا دائما (٨٧) .

وقال تعالى « ولا تقربوا مال اليتيم الا بالتى هى أحسن حتى يبلغ أشده » (٨٨) .

(٨٣) راجع نتائج الفكر ١٣١ (٨٤) الغاشية ٦ .

(٨٥) هود ١٦ (٨٦) البقرة ١٣٢ .

(٨٧) راجع الكشاف ٣١٣/١ والبحر ٣٩٩/١ والشهاب ٢٤١/٢ .

(٨٨) الأنعام ١٥٢ .

وفي الآية نهى قاطع ممتد المستقبل ، ومبالغة في النهي عن الأخذ
أو الأكل للنهي عن القرب من باب الأولى ، والكناية في « التي هي
أحسن » بمعنى الأسلوب الوحيد الذي أذن به الشرع مع الإيجاز
البالغ المتنوع والصيغة الشاملة لوصاة من الوصايا العشر باقية مابقي
انسان •

الاستفهام بمعنى النفي والا :

والقصر به له مذاق خاص ، ومقام معلوم لأنه يشرك المتلقى في
الوصول الى الحكم أو المعنى تحقيقا للغرض ، باثارة طاقاته ويحفزه
على التأمل والتذوق وصولا الى اقناع مؤثر بحق واضح في نفسه •

قال تعالى « والذين اذا فعلوا فاحشة أو ظلموا أنفسهم ذكروا
الله فاستغفروا لذنوبهم ومن يغفر الذنوب الا الله ، ولم يصروا على
ما فعلوا وهم يعلمون » (٨٩) •

جاء القصر اعتراضا بين صفات المتقين مقررا توحيد الله تعالى
بغفران الذنب لجوئا اليه واستعانة به سبحانه وهي حقيقة استقرت
في أعماقهم ضمن فطرة الايمان •

وقال تعالى : على لسان المؤمنين والنبى المبلغ — عليه الصلاة
والسلام — « قل هل تترصبون بنا الا احدى الحسنيين ونحن نتربص
بكم ان يصيبكم الله بعذاب من عنده أو بأيدينا » (٩٠) •

فهنا تقابل بين نوعين من التربص جد متباعدين تربص بالكفر
تدور عليه دوائر الانتقام الالهى أو يسلط عليهم المؤمنون ، وتربص
الكفر بالمؤمنين وما يقع بهم الا احدى الحسنيين فوز بالشهادة

ورضوان الله أو فوز منتصر في المعارك ، فهنا الاثارة والتعريض والتصوير بالاستفهام والطباق والتوبيخ لن عطلوا مداركهم •

وقد تبين أن القصر جاء بدءاً ليؤدى فكرة خاصة أو اعتراضاً مقررراً مصوراً. وقد يجيء عقب الآيات تذييلاً مؤكداً ممتد الأثر سواء صيغ صياغة المثل المستقل بذاته من صدق وتصوير وشمول واكتناز ووفرة معان وملاءمة لمواقف تتكرر في دنيا الإنسان أم صيغ صياغة مشابهة للمثل •

ونكتفى هنا بتحليل مادة الجزاء في تراكيب القصر القرآنية وقد جاءت المادة في مائة وعشرين أسلوباً منها خمسة عشر جاءت في معرض القصر (٩١) وقد لاحظنا ما يلي :

١ - جاء في أربعة عشر أسلوباً تعقيباً على جزاء يقع في الدنيا أو جزاء يقع في الآخرة وزمان الجملة دنيوى أو يقع في الآخرة الجزاء والتعقيب بأسلوبه على السواء وكلها خاصة بالسوء من العمل وهذه الأساليب تنوعت صياغة ، وأدأقنى ، وزماناً ، وسياقاً ، وكثر مجيئه من جهة الحق تعالى ترهيباً ، وقل مجيئه على السنة الملائكة يوم القيامة تأنيباً وتعذيباً نفسياً للكافرين •

وقد جاء أسلوب واحد خاص بطائفة عالية من المؤمنين هم الخائفون من مقام ربهم •
ونبسط قليلاً ما أوجزنا :

١ - ما خص الخائفين من مقام ربهم جاء في سورة الرحمن سورة الألاء العالية القدرة من الرحمن •

قال تعالى في سياق مديد بدأ بقوله « ولمن خاف مقام ربه جنتان » : آية ٤٦ •

وأستمرت الآيات تصف هذا النعيم الذي لا يطمح اليه خيال حتى الآية ٧٦ اتصالاً بآخر السورة • ووسط هذا الوصف الجليل جاءت الآية « هل جزاء الاحسن الا الاحسان » واسطة هذا العقد ، مثلًا تنطق (٩٢) به الفطر وتنحنى أمامه العقول •• وفيها ايجاز مذهل ، فالاحسان الأول : الاحسان في العمل ، وفاعله الانسان على العموم ومعناه : اتقان العمل على شرط الاخلاص والمراقبة ، والاحسان الثاني هو الثواب بمعنى العطاء والفضل وفاعله هو الله تعالى ، فهو عطاء غير مجذوذ لا ينتهي الى مدى وقد تقدم ما في معناه : وهو كلمة جزاء بدء الآية فالمبتدأ والخبر متعديان محلولا وقد أحاط بالاحسان الانساني وكونا دائرة اشارة الى سيوغ نعمته تعالى دنيا وأخرى واخاطة فضله وقد جاءت هل بدل ما ذات الدلالة الحالية غالبا خروجا عن الأصل في استعمال هل فدخلت على الاسمية اقلدة للثبوت والدوام حثا وترغيبا في الجزاء والعمل والعطاء •

٢ - وفي المقابل تنوعت أساليب الجزاء العادل أو جزاء السوء كما يلي :

جزاء بمعنى عقاب دنيوي في عدد من الأساليب :

الأول : بانما في حد الحراية لمن خرج الى وحشية ضارية فكان عقابه بتره وقطع دابر الشر ، وهو جزاء واضح الحكمة واضح البيان مطلب نفسي وعقلي وديني ولذا جاءت انما : « انما جزاء الذين

يحاربون الله ورسوله ويسعون في الأرض فسادا أن يقتلوا أو يصلبوا
أو تقطع أيديهم وأرجلهم من خلاف أو ينفروا من الأرض» (٩٣) •

ومنه ما جاء على لسان امرأة العزيز ، وهي امرأة شديدة الذكاء
والكيد والدهاء وقد صدر أسلوب القصر كل ذلك حين بوغت بزوجها
وهي تطارد فتاها « وألفيا سيدها لدى الباب » فلم يخنها لسانها ولم
يتوقف تفكيرها بل قالت في جراءة « ما جزاء من أراد بأهلك سوءا إلا
أن يسجن أو عذاب أليم » (٩٤) وقد لبست قناعا من غضب فاتهمت
يوسف ظلما وشكوى وهي الظالمة ، وأطلقت السوء وام تخصص
وأظهرت الدل وأثارت الغيرة في قلب زوجها في قولها : « بأهلك »
وطمأننته بالفعل « أراد سوءا » دون أساء مع الثقة على يوسف •

واقترحت عقابا بعد أن كيفت التهمة كما يقول رجال القانون ،
والاقتراح ذكي لا يهلك يوسف ولا يبعده عن دنياها فهو سجن أو
عذاب ، وبدأت بالجزاء وختمت بالعذاب الأليم خداعا ليظن بها الآباء
والترفع وقد جاء قولها في معرض القصر افتعالا ودهاء وهو أسلوب
كلما زدته تأملا زادك معانى وظلالا (٩٥) •

وما يحتمل أن تكون نافية حالية أو استفهامية بمعنى أى شيء
جزاؤه إلا السجن وهو ما أرجحه مناسبة للمقام •

وفي هذا المجال جاءت آية سبأ تتوسط العقاب الرهيب ، كفاء
كفرهم واعراضهم وتكبرهم فقد مزقهم شر ممزق وجعلهم أحاديث
خالدة يضرب بهم المثل « تفرقوا أيدي سبأ » والآية « ذاك جزيناها
يما كفروا وهل نجازى إلا الكفور » (٩٦) بهذا الاستفهام المثير الموضح

• (٩٤) يوسف ٢٥

(٩٣) المائدة ٣٣

• (٩٥) وفي الآية مبان آخر وراجع الرازي ١٨/١٢٢

(٩٦) الآية ١٧

للجزاء ، وهو جزاء خاص ، نلاحظه من اسم الإشارة للبعيد « ذلك » مناسب للون شرس صاغر كما ينبغي بناء الاسم «كفور» وهذا الجزاء قيده الغضب فاصق بسبأ نعمة الدنيا يدور معهم كدارة النار ، والمقام متداخل كثير التقابل والتضاد بين نعم جليلة وبطرات وتذكير حار وكفر طاغ وانتقام مهيب وتعبير خالد وحديثا تذكره الأجيال عبرا وعبرات ، وهذا كله مناسب أن يكون التعبير بهل والا .

والعجيب أن هذه السورة حادة التصوير والتأثير جاء قوله تعالى « وأسروا الندامة لما رأوا العذاب وجعلنا الأغلال في أعناق الذين كفروا هل يجزون الا ما كانوا يعملون » (٩٧) .

تعقيبا على حوار ساخن بين الذين استكبروا والذين استضعفوا وتشاخن وسباب وصياح يحمل بعضهم بعضا أوزارا وتبعات منها الجزاء الناري ، فما ان يلفحهم العذاب حتى يخنسوا لا نامة ولا لفظه بل ندامة مواراة في الأعماق ونعوذ بالله .

والمقام المصور لهذه الانفعالات التي تغلى ، المثير للمشاعر رهبا يناسبه التعبير بهل في أسلوب القصر كما يناسب تصميم السورة وروحها ذات الأساليب العميقة التي تهز الكيان وتصدع القلوب . والآية الثانية تصف جزاء يحدث يوم القيامة بمعنى أن الزمن الحالى والآتى متداخل في تعابير الآيات .

٢ - وقريب منها هذه الأساليب التي يتعانق فيها الترغيب مع الترهيب كما في قوله تعالى « من جاء بالحسنة فله عشر أمثالها ومن جاء بالسيئة فلا يجزى الا مثلها » (٩٨) ومثلها آية القصص ٨٤ وغافر ٤٠ وقد تأدى القصر بلا والا لأن الجزاء مستقبل .

٠ (٩٧) الآية ٣٣

٠ (٩٨) الأنعام ١٦٠

وقد لاحظنا من أساليب الجزاء أن هل لا تأتي الا مع جزاء غريب
مثير أعنى تعليقا وتعقيا ويمكن أن توازن بين هذه الآيات :

— في كفار مكة وهم يستعجبون العذاب استهزاء فتتزل الآيات
مهولة رهيبية شديدة الايجاز « قل أرأيتم ان أتاكم عذابه بيانا أو نهارا
ماذا يستعجل منه المجرمون اثم اذا ما وقع آمنتم به الآن وقد كنتم
به تستعجلون ثم قيل للذين ظلموا ذوقوا عذاب الخلد هل تجزون الا
بما كنتم تكسبون » (٩٩) وتأمل الطباق المصور والاحتباك وتوالى
الاستهزاء للتبكي وحذف المتعلقات وبعض الأفعال (١٠٠) والجملة
والاكتفاء بالظرف « الآن » والالتفات والتعبير بالمظهر بدل المضمرة
بعنوان : « المجرمون » « الذين ظلموا » وتناسب الظلم مع الجزاء
الأخروي الخاص المصدر بالفعل الساخر « ذوقوا عذاب الخلد »
والتعقب المثير بهل مع التعبير بالفعل : يكسب وهو أخص من يعمل
الذي كثر مع الكافرين دالا على الاحاطة والفعل عن قصد ، بينما
الكسب فيما يظن أنه خير وهو الشر أو المستجلب الضرر (١٠١) .

وقريب منها آية النمل « من جاء بالحسنة فله خير منها ومن جاء
بالسيئة فكبت وجوههم في النار هل تجزون الا ما كنتم تعملون » (١٠٢)
على الالتفات للتشديد واضمار القول لعمومه أو لتعيينه فالقائل
الزبانية وهي قوله تصك أقفاءهم بعد أن كبوا على وجوههم جزاء
محيط متنوعا ، ولئن ذلك بأية التحريم : يأيها الذين كفروا لا تعتذروا
اليوم انما تجزون ما كنتم تعملون » (١٠٣) فهو قول الملائكة أيضا

(٩٩) يونس ٥٢ وراجع الى أبي السعود ١٥٢/٤

(١٠٠) راجع النبأ العظيم ١٤١

(١٠١) راجع في دلالة الفعلين والراغب ٣٦٠ ، ٤٤٨

(١٠٢) النمل ٩٠ (١٠٣) آية ٧ وراجع ابا السعود ٢٦٨/٨

والنفي التبيين والتبكي والقصر بينما مناسب لهذا القصر الذي لم
يغفل فيه العفاب .

ثم اقرأ هذه الآية أخيراً من سورة القصص « من جاء بالحسنة
فله خير منها ومن جاء بالسيئة فلا يجزى الذين عملوا السيئات إلا
ما كانوا يعملون » (٨٤) .

وهي آية جاءت على مقربة من نهاية السورة فتبها هذا الهدوء
والتقرير وتثبيت الجزاء وما يشبه تكرار السيئة والعمل فهو تعديد فيه
ريث وتلبث وهو مناسب لما تفضي إليه الآية من تعبير الرسوخ
الكريم ووعد ووعدا آملاً لا يتخلف وكشف عن حجب الغيب حين يرد
إلى مكة فاتحاً .

« إن الذي فرض عليك القرآن لرادك إلى معباد » ثم تنتهي
السورة هادئة واعظة بالرجوع الأكبر « كل شيء هالك إلا وجهه له
الحكم واليه ترجعون » .

وهي نهاية تتكرر بتكرر الوحدات الانسانية ما يهتت حياة في
الدنيا ثم النهاية الكبرى « واليه ترجعون » .

ونكتفي بهذا القصر من التحليل وهو دال على ما نوهى إليه من
أن المقام والنسق الخالص أو العام هو الذي يعين نوع القصر ونوع
الأداة المستعملة مع الالفى والاستثناء ثم ان التعبير : ما تجزون
للا ما كنتم تعملون « بصوره المختلفه من تغير الأداة قبل الالفى ، أو الفعله
كأنوا على الغيبة جاء هكذا دون الباء فى التعبير « بما كنتم تكسبون »
أو التعبير بالمثل فى قوله « فلا يجزى الا مثلها » وقد رأى بعض
العاماء (١٠٤) أن التعبير على حذف الباء أو على ما كنتم أو المثل .

(١٠٤) راجع الرازى ٤/١٥ وتفسير أبى السعود ٧/١٣٥ ، ٧/١٧٢ .

١٩٠/٧ والبحر ٤/٣٩١ .

هو أنه لا حذف بل المراد التنبية على قوة التلازم والارتباط بين العمل والجزاء حتى كأنهما شيء واحد وهذا ما أميل إليه لتلاؤمه مع سائر المتعابير القرآنية في كثير من الجزاءات • وكان العمل السيء صار هو بذاته الجزاء السيء •

وجملة الجزاء هذه تصحب معاني العقاب والعذاب دائما فكأنها — كما يرى الرازي — جواب عن سؤال سائل كيف يتأتى الوعيد مع رحمة تعالى أي أن العقاب ليس من عنده تعالى ابتداء بل هو جزاء على عمل باطل (١٠٥) ، وهذا تعليل منطقي الصياغة لمسألة بلاغية وقد يتأتى في بعض الأساليب المنفصلة دون عاطف ودون اختلاف الجملتين خبرا وانشاء اكننا وجدنا أساليب خبرية أو انشائية عطفت بالواو : نحو : وهل نجازي الا الكفور ، ونحو « فالיום لا تظلم نفس شيئا ولا تجزون الا ما كنتم تعملون » والأقرب أن يقال ان هذه الأساليب تنزل من سابقتها منزلة التقرير والتأكيد هذا اذا جاءت تعقبيا بعد الجزاء وهو الأعم الأغلب •

وقد تلبس الفكرة أسلوب القصر تأسيسا كقوله « ومن عمل سيئة فلا يجزى الا مثلها » ، ونحو « ومن جاء بالسيئة فلا يجزى الا مثلها » وعطى كل فهو اعلان قوى عن فكرة الاستحقاق وتقريرها وربما لا يتعد ذلك عن مقصد الرازي ولكنه عبر عنه بما يعين شبه كماله الاتصال عند البلاغيين أعنى الجواب عن سؤال مفترض فكان فيه البأس •

النفى الضمني والاستثناء :

والمراد بالنفى الضمني أن يكون في مادة الفعل معنى النفي وأن يكون هذا النفي الضمني مقصوداً مصححاً للتفريغ ومنه الفعل « يبي كقوله تعالى « يريدون أن يطفئوا نور الله بأفواههم ويأبى الله إلا أن يتم نوره ولو كره الكافرون » (١٠٦) .

والفعل «يأبى» : أوله الزجاج بالفعل يكره فقال مقدر المستثنى منه عاماً « ويكره الله كل شيء إلا أتمام نوره » وليس دقيقاً ولا صواباً والأولى تأويل الزمخشري للفعل يأبى بمعنى لا يريد لأنها وقعت في مقابل «يريد» (١٠٧) والواقع أن هذا التأويل لا يعنى عن الفعل «يأبى» بنية ومعنى دلالة على النفي والمنع في قوة واستعلاء حق .

ويرى الامام ابن السجري أن أبى مثل ليس في دلالتها على النفي واستدل بمجىء الفعل في القصر كالأية السابقة (١٠٨) والواقع أن ليس للنفى المحض وليس لها معنى سواه أما أبى فلا ثبات الإباء بدليل دخول النفي والنهي على الفعل كقوله تعالى « ولا ياب كاتب أن يكتب كما علمه الله » وأبى مثل منع ورفض ونفى ونحوها .

وفي أساب آخر — خاص بالكافرين الرافضين — قد يكون الإباء والتولى أدل على الأعراض وعلى محاولة الاستعلاء الكاذب ، كقوله تعالى « ولقد صرفنا للناس في هذا القرآن من كل مثل ، فأبى أكثر الناس إلا كفورا » (١٠٩) ومثلها آية الفرقان (١١٠) .

وتعليقاً على موقف الكفار من البعث جاءت الآية « أو أم يروا أن الله الذى خلق السموات والأرض قادر على أن يخلق مثلهم ، وجعل لهم أجلا لا ريب فيه ، فأبى الظالمون إلا كفورا » (١١١) .

(١٠٧) راجع الكشف ١٨٦/٢

(١٠٩) الأسراء ٨٩

(١١١) الأسراء ٩٩

(١٠٦) التوبة ٣٢

(١٠٨) راجع الأمالي ٢٥٦/١

(١١٠) آية ٥٠

وقد يدل الأسلوب على النفي دون فعل نص على ذلك العلماء في قوله تعالى : عنى لسان يعقوب عليه السلام « لن أرسله معكم حتى تؤتون موثقا من الله لتأتتنى به الا أن يحاط بكم » (١١٢) وهو يقصد بنيامين ، والاستثناء من أعم العلل أو الأحوال أو الأزمان ، وقوله : لتأتتنى به جواب قسم والمعنى : حتى تقسموا بالله اتأتتنى به الا أن يحاط بكم وما بعد الا كناية عن الهلاك أو الانهزام وأصله من احاطة العدو : ومعنى الآية : لن أرسله معكم حتى تقسموا لا تمتنعون من الاتيان به في كل حال الا حال كونه محاطا بكم أو الاحاطة أو الالعة الاحاطة أو زمانها ، والنفي هنا « لا تمتنعون » حكى دل عليه الأسلوب لتصحيح التفسير (١١٣) .

كقولهم : أقسمت بالله الا فعلت أى ما أطلب الا فعلك ، ولو وقع الفعل بعد الا في هذه الآية والتي قبلها سر بياني نبه ايه الأخفش بأنه كلام في معنى الشرط فأشبهه الشرط (١١٤) .

يعنى في الترتيب واللزوم ، ويعنى الأخفش رحمه الله أن الحال هنا بمعنى الشرط في الترتيب كما سيأتى - ان شاء الله - .

ومنه قول الله تعالى عن قوم طالوت وقد ذهبوا لقتال جالوت فقال لهم « ان الله مبتليكم بنهر فمن شرب منه فليس منى ومن لم يطعمه فانه منى ، الا من اغترف غرفة بيده ، فشرىوا منه الا قليلا منهم » (١١٥) ، قرأ عبد الله وأبى والأعمش « الا قليل » بالرفع قال في المكشاف « وهذا من ميلهم مع المعنى ، والاعراض عن اللفظ جانبا ،

(١١٢) يوسف ٦٦ .

(١١٣) اجم الشهاب ١٩٢/٥ والارشاد لأبى السعود ٢٩٣/٤ نقلًا

عن المكشاف ٣٣٢/٢ .

(١١٤) راجع الشهاب ١٩١/٥ - ٩٢ .

(١١٥) البقرة ٢٤٩ .

وهو باب جليل من علم العربية فلما كان معنى « قشربوا منه » في معنى فلم يطيعوه حمل عليه كأنه قيل : فلم يطيعوه إلا قليل منهم » والمعنى أن الموجب في معنى المنفى (١١٦) ، وعلل أبو حيان رأى الزمخشري هنا بأنه « حفظ الإبدال في المنفى دون الموجب ، فلذلك تأوله ، ولا مانع يمنع منه لغة وهو فصيح والأفصح منه النصب على الاستثناء فليس ثم اضطرار في تأويل المثبت بالمنفى » (١١٧) وحكمه بأن الأفصح النصب واغفاله تحليل الكشاف لا يقوم له دليل لأنها قراءة معتبرة ، والامام أبو حيان على امامته في التفسير واللغة وذوقه المتميز كان يغلبه أحيانا التزامه بالتوقف عند رأى نحوى متغاضيا عن الرأى الفنى المقابل .

وقال تعالى « واستغنيوا بالصبر والصلاة وانها لكبيرة الا على الخاشعين » (١١٨) .

ذكر الزركشى أن الا لا تدخل بعد الايجاب الا لتأويل ما سبقها بالمنفى أى فانها لا تسهل وهو معنى «كبيرة» (١١٩) وكبيرة من الفعل كبر بمعنى شق وثقل فهو استثناء مفرغ (١٢٠) كما أوما الرأى الى المنفى المقابل للمقصور عليه وهو غير الخاشع « لأنه لا يعتد في فعلها ثوابا ولا فى تركها عقابا فيصعب عليه فعلمها أما الخاشع فلما اعتقد جزيل الثواب ونفى المضار لم يثقل عليه ذلك » (١٢١) .

(١١٦) الكشاف ١/٣٨١ .

(١١٧) البحر ٢/٢٦٦ (١١٨) البقرة ٤٥ .

(١١٩) راجع البرهان ٤/٢٤٠ .

(١٢٠) راجع الطبرى ١/٢٠٦ والبحر ١/١٨٥ .

(١٢١) التفسير الكبير ٣/٥٠ .

مقامات النفي والاستثناء :

وهذا للطريق أصل الباب — كما يقولون — وأقوى الطرق ، وكثير من الطرق يفيد القصر بالحمل عليه ، وإذا لا يكون غالبا الا في المقامات العنيفة المستوفزة ، جهرة النبرة ، قوية الموقع ، حين تتشابك مواقف التأثير الوجداني مع الاقتناع العقلي ، وهذا انما يكون في مقامات الانكار وليس الانكار موقفا عقليا فحسب بل انه رفض تتعانق فيه الطاقات الانسانية الراقية هذا هو الغالب في الاستعمال ، وقد يأتي — كما ذكره العلماء — في غير ذلك كالأمر المنزلة منزلة المنكرة ، أو الجهولة ، التي لا انكار فيها وهذا التشقيق مأخوذ من كلامهم (١٢٢) .

تجد هذا حين يصف القرآن الكريم غيبا خارقا ، ماضيا أو آتيا ، أو جزءا خاصا أو وصفا ثابتا ، أو حالا مثيرا ، أو تصويرا لدقائق حال المتكلم من البشر وخافي خواطره ، وحينئذ يشع هذا الطريق أطيافا وظلالا .

فمن مشاهد التعذيب يوم القيامة ما ذكر الله تعالى : من جزاء الذين يكتُمون علمهم متكسبين به ثمنا قليلا وأصله في أحبار اليهود ثم يطلق على من له صفتهم « ان الذين يكتُمون ما أنزل الله من الكتاب ويشترون به ثمنا قليلا أولئك ما يأكلون في بطونهم الا النار . ولا يكلمهم الله يوم القيامة ولا يزكيهم ولهم عذاب أليم » (١٢٣) .

وأكل النار جاء بانما في أكل أموال اليتامى ظلما في قواه تعالى « ان الذين يأكلون أموال اليتامى ظلما انما يأكلون في بطونهم نارا وسيصلون سعيرا » (١٢٤) .

(١٢٢) راجع الدلائل ٢١٧ والمفتاح ٢٩٥ وحاشية عبد الحكيم ٣٠٨

(١٢٤) النساء ١٠ .

(١٢٣) البقرة ١٧٤

وأكل أموال اليتامى الضعاف إنما يستحق عن جدارة هذا العذاب وكل لفظة في الآية توحى بقدر من التبشيع والتشنيع فقد ذكر الأكل والمراد مطلق الانتفاع ، لبيان أن مال اليتيم حول إلى متعة شرهة مقززة في فم حيوانى لا قم وانضاف إليه «ظاماً» لتدنيه عن الوحوش لأنها لا تنظم بل هي محكومة بغرائزها في سد جوعتها ، ولذا كان الجزاء أكلاً أيضاً ولكنه لون منه غريب رهيب متلائم مع العمل ، وجاء الأسلوب بانما لوضوح الأمر وأن الجزاء يستحقه فهو أوضح من أن ينازع فيه انه سعيير يصلاه ولا يماك فكاكا .

وهذا الجزاء سابق على بعثهم كما روى أبو بردة عن النبي صلى الله عليه وسلم — يبعث الله تعالى قوما من قبورهم تتأرجح أفواههم نارا « فقليل من هم فقال — عليه الصلاة والسلام — ألم تر أن الله يقول « ان الذين يأكلون أموال اليتامى . . . الآية » (١٢٥) ومثله في التعليل آية الربا كما سبق .

وفي جانب كاتمي العلم — من أحبار اليهود — على العموم أو انكار صفة النبي — صلى الله عليه وسلم — الموجودة في التوراة والانجيل ، ليظنوا كبارا رؤساء يرجع اليهم يلتمسون أموال الناس باطلا (١٢٦) والأولى حملها على العموم فيدخل تحتها رؤساء اليهود — وهم سبب نزول الآية — ومن يصنع صنيعهم ، وقد جاء الأسلوب بالنفي والاستثناء دفعا لكل انكار وحسما لكل تلاعب وميسما محققا لمن باع آخرته بقبل متاع ، وقد حقق الأكل في الصنفين بقوله « في بطونهم » فهي حُرِف مؤكد مقرر ، ويجوز أن يتعلق بحال مخدومة خالفة على الامتلاء أى ملء بطونهم ، فالجزاء من جنس العمل وما يأكلون

(١٢٥) راجع الطبرى ٤/١٨٤ وأبا السعود ٢/١٤٨ .

(١٢٦) راجع الاستغناء ٢٤٢ . وأبا السعود ١/١٩١ .

في الدنيا ليس طعمها بل هو نار لأنهم أكلوا ما يتلبس بالنار لكونها
حقيقية له ، فزمن الجملة خالي أو في المآل أو نارا يوم القيامة (١٢٧).
فالمزمن آت تغليظا ووعيدا •

وحين يبنى أسلوب القصر على التشبيه أو التصوير يكون الغنى
في الدلالة والخصوبة في الفكرة وتوليد الظلال وهذا الشعور ، ويلاحظ
— في التشبيه أن المنفى هو المقابل لما دل عليه المشبه به تأمل قول
الله تعالى « والله غيب السموات والأرض وما أمر الساعة الا كلمح
البصر أو هو أقرب » (١٢٨) • وقوله تعالى « وما أمرنا الا واحدة
كلمح بالبصر » (١٢٩) •

وموعد الساعة والساعة من أعظم ما وقع فيه الممارة من
التعقوب ، التي نصبت عليها الأدلة ، ولمح البصر هو رجوع الطرف من
أعلى الحدقة الى أسفلها ، وهو تمثيل لسرعة مجيئها على ما تعارف
عليه البشر من التمثيل بلمح البصر ، ولما كان في علم الله ما هو أسرع
يقال لو هو أقرب أي بل هو أقرب قبل العلماء في آن غير منقسم من
الزمان : والآن غير المنقسم لا يكاد يتصوره العقل ، فأمر المطاعة ظارق
في بعثته وسرعته تصويرا بالحس المنظور ، والمقصود عليه مشابهة به
أو موصوف بالتشبيه اللازم ، والصفة المنفية هي جريجات السرعة أو
اللبط وجعل القراني المستثنى والمستثنى منه أهول المقسود الرباني
أي لا حالة الا هذه الحالة في الوقت المقدر ، والصفة الواردة والمنفى هو
أحوال المعجز والتأخير وعدم النفوذ وهو قريب لدلالة النسق على
تسيرة الله تعالى (١٣٠) •

• (١٢٧) راجع الشهاب ٢/٢٦٩ والألوسي ٢/٤٣

• (١٢٨) ٧٧ النحل (١٢٩) ٥٠ القمر •

• (١٣٠) راجع في الآية أيضا السجود ٥/١٣١ و٨/١٧٥ والشهاب

٥/٣٥٧ ، ٨/١٢٩ والاستغناء ٢٢٦ : ٢٢٧ والشمس ١٢٧ : ١٢٨

وقد سبقت آية الربا « الذين يأكون الربا لا يقومون الا كما يقوم الذي يتخبطه الشيطان من المس » فهو وصف لغيب آت ، ترهيبا وترذيلا لآكل الربا الذي مثل - بحق - بالمصروع ، ولذا جاءت الصورة قافزة متحركة متداخلة الحركات والجزئيات نابضة ودخل الشيطان في بعض عناصرها تقبيحا ، وقال الله تعالى عن الكافرين « ان هم الا كالأنعام بل هم أضل سبيلا » .

والتشبيه بالأنعام مراد به ذمهم بالغباء والتسفل والحيوانية ثم ترقى المعنى نازلا بهم عن درجة الأنعام تعطيلًا لمظاهر الادراك ثمرا متمعدا وحقدا مورودا (١٣١) .

وفي تقدير صفة العلم بالشهادة واستقراء بعض متعلقاتها يقول الله تعالى :

« وما تكون في شأن وما تتلو منه من قرآن ولا تعملون من عمل الا كنا عليكم شهودا اذ تفيضون فيه وما يعزب عن ربك من مثقال ذرة في الأرض ولا في السماء ولا أصغر من ذلك ولا أكبر الا في كتاب مبين » (١٣٢) قصرا لهذه الحالات الثلاث بدءا بالخاص فأعم العام - على كونها مشهودة مراقبة من الله تعالى ، تربية للضمير وغرسا للمراقبة في النفوس (١٣٣) .

وفي وصف سنة الله تعالى من اختلاف الناس أمما وشعوبا ومنازع ومشارب وهداية وضلالا تقريرا لسنة الخالق في تمايز البشر بعيدا عن الإنكار .

(١٣١) وهو لون من الترتيب التفاضلي في الصفات وان كان يفيد

(١٣٢) يوسف ٦١

(١٣٣) راجع البحر ١٧٣/٥ وروح المعاني ١٤٤/١١

قال الله تعالى « كان الناس أمة واحدة فبعث الله النبيين مبشرين ومنذرين وأنزل معهم الكتاب بالحق ليحكم بين الناس فيما اختلفوا فيه ، وما اختلف فيه الا الذين أوتوه من بعد ما جاءتهم البينات بغيا بينهم فهدى الله الذين آمنوا لما اختلفوا فيه من الحق باذنه والله يهدى من يشاء الى صراط مستقيم » (١٣٤) .

وأسلوب النقص يثير دهشة وعجبا من هؤلاء الذين اختلفوا بعد أن جاءهم الحق أو الكتاب ؛ لظلمهم وبغيهم ، وقد عبر بالفعل «أوتوه» بدل أنزل عليهم تنبيها على كمال تمكنهم من الوقوف على ما فيه وهذا ادعى للدهشة والعجب .

وقوله « من بعد ما جاء » متعلق بفعل محذوف ، وكذلك بغيا تقديره : اختلفوا وقد حذف اكتفاء ثم قال أبو حيان ولا يجوز أن يكون متعلقا لـ «اختلف» والا لكان المعنى : وما اختلف فيه الا الذين أوتوه «: الا من بعد ما جاءتهم الا بغيا » .

ولا يستثنى بالا شيئا أو أكثر من غير عطف ولا بدل ، وأجازه أبو البقاء العكبري .

وقال الكشاف : مؤولا « ما كان ذلك الاختلاف الا حسدا بينهم ، وتابعه البيضاوي وأوله الشهاب على أن الحصر بدلالة المقام أو على جواز تعدد المستثنى منه » (١٣٥) والصواب ما ذكره أبو حيان لعدم حاجته الى الاغراق في التأويل أو اتباع الضعيف من آراء النحاة .

• البقرة ٢١٣

(١٣٥) راجع في الآية : الكشاف ٤١٩/١ والبحر ١٧٨/٢ وشرح الفصل ٩٢/٢ والشهاب ٢٩٩/٢ ، ٣١٤/٣ في آية ماثلة وأبو السعود ٢١٥/١ والأوسى ١٠٢/٢ ، ١٠٧/٣ .

وقال الله تعالى: ﴿...﴾

«شهد الله أنه لا إله إلا هو والملائكة وأولو العلم قائما بالقسط لا إله إلا هو العزيز الحكيم» (١٣٦) •

وهذه الآية الشريفة جعلها الطبري ردا على من أشرك ، والعلماء على عمومها ومعنى شهد عند الزمخشري ومن تبعه أنه تعالى بين وحدانيته بنصب الآيات التكوينية وانزال الآيات التشريعية وكرر شهادة التوحيد تأكيدا واعتناء بشأنها وقال في الانتصاف لطول الكلام نجدد التوحيد تلو التنزيه ليلى قوله : « ان الدين عند الله الاسلام » وقال الكرمانى : الأول شهادة واعادة ليجرى الثانى مجرى الحكم بصحة ما شهد به الشهود وعن جعفر الصادق الأول وصف والثانى تعليم أى قولوا واشهدوا وكثير من العلماء على أن شهد بمعنى حكم وقضى أو بين أو أعلم وأخبر أو أحكم وأظهر أو شهد بنفسه لنفسه قبل أن يخلق الخلق وهى معان متقاربة متلازمة ، وهو - على كل - وصف وتسبيح ومدح وتنزيه وتقدير وتعليم (١٣٧) شهادة يبدأ بها الايمان وجاء القصر معرضا لها تحقيقا وتصديقا ووصفا محيطا •

والله اعلم بالصواب

والله اعلم بالصواب

• (١٣٦) آل عمران ١٧

(١٣٧) راجع فى الآية : الطبرى ١٤٢/٣ والكشاف ٤١٧/٢ ، والبحر

٤٥٦/٢ ، وغرائب الثيسابورى ١٦٥/٣ وأسراز التكرار ٤٧ وأبو السعود

٢١٥/١ ودقائق التفسير لابن تيمية ٢٠/٢ والتفسير القيم لابن القيم ١٨٤

النفى والاستثناء والنظم

هوازنات

الوحدانية :

والمراد بالنظم هنا تنوع الأساليب واختلاف درجاتها صعودا في التأكيد فهناك قصر بما والا ، وان والا ، وهناك ما تتكاثر فيه أدوات التوكيد والعموم كدخول من على اسم جنس بعد ما النافية أو ان وهذا كله محكوم بالنسق والمقام • ومقدار الاحساس الذي يزحمه الأسلوب •

وبدءا قالوحدانية في مقدمة القضايا الكبرى التي نزل القرآن لترسخها في العقول والقلوب بكل طرق الأداء ، وفي أسلوب القصر جاءت في معارض شتى وفق نظام السورة وسياق الآيات •

ونود هنا أن نرد وهما جاء في بعض المؤلفات الحديثة في البلاغة لجعلهم قوله تعالى « والهكم اله واحد » مما نزل فيه المخاطب المنكر منزلة غير المنكر فلا يعتد بانكاره لتكاثر الأدلة والبراهين على وحدانية الله (١) •

ذلك أن هذا التعبير جاء ثلاث مرات في الذكر الحكيم وان اختلف النسق والخطاب :

١ — قال تعالى •• من سورة البقرة « والهكم اله واحد لا اله الا هو الرحمن الرحيم » (٢) •

(١) راجع : علوم البلاغة للمراغني ٥١ ، وعلم المنان ، دة عشيق ٦٧ •

(٢) الآية ١٦٣ •

والمفسرون على أن الخطاب عام لكافة الناس وقد أعربت جملة التوحيد خبر ثانٍ للمبتدأ « الهكم » أو صفة أخرى للخبر « اله واحد » وهي مقررة مؤكدة للوحدانية وعلي هذا لا يجوز فصل التأكيد عن المؤكد إذ الأسلوب يتصاعد فيه المعنى من إثبات الوحدانية التي اثبات الالهية ثم الي نصب الأدلة الكونية استدلالاً بالأثر على المؤثر في الآية « ان في خلق السموات والأرض . . . الآية » (٣)

٢ - قال تعالى في سورة النحل « والذين يدعون من دون الله لا يخلقون شيئاً وهم يخلقون أموات غير أحياء ، وما يشعرون أيمان يبغثون الهكم اله واحد » (٤) .

وقوله « الهكم اله واحد » تصريح بالمدعى ، وتمحيص للنتيجة بعد اقامة الحجة لأن الالهة المدعاة مخلوقة لا تخلق . موات لا حياة فيها ولا علم عندها لأنها أصنام دليل على أن اله العالم الحق اله واحد في ذاته وصفاته ، فلا يمكن فصل النتيجة عن المقدمة ، والقياس الكامل وليس بعد هذا من تأكيد (٤) .

٣ - جاء في سورة الحج « واكل جعلنا منسكاً ليذكروا اسم الله على ما رزقهم من بهيمة الأنعام فالهكم اله واحد فله أسلموا وبشر المخبتين » (٦) .

والخطاب خاص بالمؤمنين وهم غير منكرين وجاءت الجملة بعدها:

(٣) راجع البحر ١/٤٦٢ وتفسير أبي السعود ١/١٨٣ .

(٤) الآية ٢٢ - ٢٣ .

(٥) راجع البحر ٥/٤٨٣ ، وأبنا السعود ٥/١٠٦ وغرائب

النيسابوري ٧/٥٦ .

(٦) الآية ٣٤

قله أسلموا صعودا بالمعنى بمعنى الاذعان التام والايمن المطلق بالله وحده .

ثبت اذن أن هذه الجملة جزء لا ينفصل من نسق خاص ، وأن فكرة التنزيل لاصحة لها في التعبير، ثم ان اثبات الوجدانية لم تأت في تعبير مستقل الا مؤكدا (٧) أبسطه قول الله تعالى في سورة الصافات « ان الهكم لواحد » (٨) بان واللام واسمية الجملة فكأن الجملة كررت ثلاث مرات، وقد أدرج الميسوطى تكرار التأكيد هنا تحت طرق القصر وان لم يسلم له .

وعن قضية الوجدانية : جاء التدرج في الأساليب هكذا :

١ - القصر بانما : دلالة على أن هذه القضية ان كانت قد خفيت عليهم أو ادعوا الجهل بها فهي من الواضح بمكان بل لو فكروا مليا وخلوا بين أنفسهم وزيعهم لاهتدوا بفطرهم هم وكل ما حولهم ناطق بوجدانية الاله الأحد .

قال الله تعالى « وقال الله لا تتخذوا الهين اثنين انما هو اله واحد » (٩) .

« قل انما هو اله واحد واننى برىء مما تشركون » (١٠) .

وقال : « انما الله اله واحد سبحانه أن يكون له ولد » (١١) .

وقال تعالى : « قل انما يوحى الى أنما الهكم اله واحد » (١٢) وقد

(٧) المعجم المفهرس ٣٨ - ٣٩ .

(٨) الآية (٩) النحل ٥١ .

(١١) النساء ١٧١ :

(١٠) الأنعام ١٩

(١٢) الانبياء ١٠٨

قصر الوحي على الوجدانية مع أنه يشمل أموراً كثيرة كالتكليف والأخلاق والقصص وغير ذلك ، لأن الوجدانية هي الأصل الأصيل وغيره راجع إليه وأجاز الشهاب أن يكون غيرها غير منظور إليه (١٣)

ويؤيده أن المقام في تقرير الوجدانية •

لكن المعجب في الآية الأخيرة أنه قصر الاله على صفة الألوهية المتصفة بالوجدانية وأسلوب القصر الأخير هذا يؤول لصفة هي وحدانية الاله ليكون مقصوراً عليه في القصر الأول «قل إنما يوحى...» والوحي مقصور فهو قصر متداخل شديد التركيز لأنها عند التأويل تتحلل أربع جمل أكد اثبات صفة الوجدانية فيها مرتين جاءت كلها في جملة واحدة تمثل حقيقة واحدة كبرى مسطورة في الوعي واللاوعي شاهد بها كل مخلوق حتى الكافر أن خلى وقلبه لا يجد سواها تفسيراً لخلق الكون وتدبير أمره فكان في الآية تعريضاً به أن يدع هواه ويحث الخطأ عسى أن يكون من المفلحين • وقد ينعكس الطرفان أعنى قد يكون لفظ «الهكم» وقد جاء موصوفاً في الآية السابقة قد يكون صفة كقول الله تعالى على لسان موسى عليه السلام بعد أن تملكه الغضب وأقسم ليحرقن عجل الذهب الذي عبده اليهود « لنحرقنه ثم لنسفنه في اليم نسفاً ، إنما الهكم الله الذي لا اله الا هو وسع كل شيء علماً » (١٤) •

وفي ثورة الغضب جاء قصران : الأول (بانما) قصر فيه الالهية على الله تعالى وذكر لفظ الجلالة بصفات جلاله وكماله وجماله يرشح أنه حقيقي ، ثم ترقى في التأكيد والحسم الجازم فكان القصر الثاني في شهادة التوحيد •

• (١٣) انظر الشهاب ٢٧٩/٦ والرازي ٢٢٢/٢٢

(١٤) طه ٩٨

وانما في القصر الأول يذكرهم ويعرض بهم بعد أن أتجاهم الاله
 وصنع لهم من الآلاء ما لا ينسى فالوهيته واضحة ، وعجل الذهب رمز
 لفكرهم الغض وتعبدهم للمال واذهب في سبيله يضحون بالايمن •
 وتلاحظ تكرار لفظ الجلالة وصفيته وضميره الظاهر أو المستتر أربح
 مرات •

٢- ملولاد:

وقد جاء على السنة المرسل عليهم السلام في دعوتهم أقوامهم
 الى التوحيد « اعبدوا الله ما لكم من اله غيره » ثمانى مرات (١٥) :
 والجملة الأولى أمر تضح بعبادة الله (اعبدوا الله) وجملة القصر
 تعليل لهذا الأمر الخاص ، ولكم خبر مقدم ، أو الخبر محذوف ، وقدم
 النظر للتحصيص والتبيين أى ما لكم في الوجود أو في العالم انه غير
 الله وغير بمعنى الاوهذا التعبير المركز كان عنوان كل دعوة ولماتحة
 كل مقولة سواء أتبعته بتشريعات أخر كم في قصة شعيب (١٦) في
 سورة هود أم اتبعته بآيات الله تعالى ونعمه كما في قصة صالح (١٧)
 أم لم تتبع بشيء كقصة هود (١٨) • كما جاءت الدعوة الى التوحيد على
 السنة المرسل بأساليب عديدة قصرا أو غيره • (١٩)

وقد يقوى الأسلوب وتعلو الفبرة ويشد الايقاع فيتغير النظم
 فنجد ما : النافية تليها من الاستغراقية المؤكدة للنفي داخلة على نكرة
 فيؤكد العموم من وقوع النكرة في سياق النفي ويتأكد الاستغراق بمن
 ليكون الشمول دقيقا حاسما محيطا بأفراد النكرة أو اسم الجنس ، فلا

(١٥) المعجم المفهرس ٣٨ وما بعدها •

(١٦) الآية ٨٤ (١٧) هود ٦١

(١٨) هود ٥٠ •

(١٩) المعجم المفهرس ٣٨ وراجع أبا السعود ٣/٢٣٥ •

- يفلت واحد من أفرادهم من قبضة النفي فاذا كان الإخراج بالا والاثبات لفرد واحد من هذا المنفى العام كان الحسم والدقة والتركيز والظلال فالآية « قل إنما أنا منذر وما من إله إلا الله الواحد القهار » الآية ٦٥ جاءت بين غيبين في سورة ص : غيب آت يقدم مشهدا جاررا لتنازع أهل النار وتنازهم « لا مرحبا بكم » ردا على : لا مرحبا بهم انهم طوائف في النار أشعل العذاب أحقادهم وثائر أنفعالاتهم وجحيم غضبهم الذي صار كقطعة من النار وتعقب الآيات على هذا المشهد المرهيب « إن ذلك لحق تخاصم أهل النار » (٢٠) .
- والثاني غيب معنى وقتما خاق آدم عليه السلام وسجدت الملائكة إلا إبليس أبى واستكبر وانخرط في جدل حاقد حتى طرد مغضوبا عليه مزعوما مخذولا وقد بدأت الآيات بقوله تعالى : « ما كان لى علم بالملا الأعلى اذ يختصمون » (٢١) .

وبين القصتين والغيبين تبرز الوهية الله الواحد القهار المسيطر على الأكوان والأزمان والذي شمل شعاع قهره كل ما يكون وكل ماكان ولذا صيغ أسلوب القصر صياغة خاصة ملائمة للنسق وأتبع لفظ الجلالة بوصفين خاصين « الواحد القهار » فهو قصر حقيقى قوى الأخذ شديد السيطرة تميد به القلوب والعقول .

ومن هذا اللون قول الله تعالى : « لقد كفر الذين قالوا ان الله ثالث ثلاثة وما من إله إلا إله واحد وان لم ينتهوا عما يقولون ليمسن الذين كفروا منهم عذاب أليم » (٢٢) .

فقد بدأت الآية الحكم المؤكد بالقسم على كفر النصارى ولم يذكرهم وانما ذكر قولتهم الشنعاء وانظر الصياغة « قالوا » زعما دون

«رصيداً من الحق» (ان الله) بجلالته وجبروته وصفات قهره وكماله،
 ثلاث ثلاثة هكذا على التنكير والدخول في العدد أمرا اذا بشعا يجعل
 قهرهم صراطا ومفهوم الجملة الأولى أن الله واحد وقد أكد هذا
 المفهوم بأسلوب جزل عايف غاضب «وما من اله واحد» وتأويله
 كما في الكشف «ما اله قط في الوجود الا اله موصوف
 بالوحدانية» (٢٣) فهو موقف دفع وابطال ورد مهيب مثير الخس
 للبشرى مستتبع لمشاعر التعجيب والتحقير لهؤلاء الذين وصفوا
 بالكفر مرتين في سطرين •

٣ - شهادة التوحيد : دلالتها ومقاماتها وأسرارها :

وقد تنوع فيها المقصور عليه لفظا بين الله باسم الجلالة أو ضمير
 المتكلم سبحانه أو المخاطب أو الغائب سبحانه في سبعة وثلاثين
 أسلوبا قرآنيا امتضاها المقام (٢٤) الذي تنوع وكان وضع شهادة
 التوحيد في نسقها في قمة التلاؤم والدقة الخارقة المعجزة ، واليك بعضا
 من هذه المقامات :

١ - تقرير صفة الوحدانية أعنى وحدانية الألوهية في سياقات تذكر
 طرفا من كفر الكافرين أو صفة من صفات اعراضهم سواء كان كفرا
 وثنيا وهو الأغلب أم كفر أهل الكتاب وهو الأقل والأساليب في أنساقها
 قوية تصور الكفر ثم تكرر عليه نقضا وابطالا بشهادة التوحيد وقد
 يسبقها أو يتبعها ما يصعد المعنى حسما ، ودفعا أو تخجيبا أو تعظيما
 وتنزيها لله تعالى ، وسواء جاءت الشهادة على لسان النبي صلى الله
 عليه وسلم مأمور بتبليغها بالفعل « قل » أم كان خطابا للكفار وهو خطاب
 اهانه تحملهم على التفكير •

(٢٣) الكشف ١/٦٣٤ وأبو السعود ٣/٦٦

(٢٤) المعجم المفهرس ٢٨ وما بعدها •

كما جاء في الآخرة حكاية عن صدوفهم في الدنيا وجاء خاصا بكفان بلقيس على لسان الهدهد : واليك بسطا لما تقدم :

وبداية فان شهادة التوحيد كانت أول شيء أرسل به الرسل وأنذروا به : « ينزل الملائكة بالروح من أمره على من يشاء من عباده أن أنذروا أنه لا اله الا أنا فاتقون » (٢٥) • وقال تعالى : « وما أرسلناه من قبلك من رسول الا نوحي اليه أنه لا اله الا أنا فاعبدون » (٢٦)

وقد جاء على لسان موسى عليه السلام غضبا على السامري وعلى اليهود مدمرا اللهم الذهبي مخلصا التوحيد لله متنيا ممجدا له سبحانه « وانظر الى الهك الذي ظلت عليه عاكفا لنحرقنه ثم لننسفنه في اليم نسفا انما الهكم الله الذي لا اله الا هو وسع كل شيء علما » (٢٧)

كما جاء في خطاب النبي صلى الله عليه وسلم نعي القرآن على الكفار اعراضهم عنه وكفرهم بالرحمن وأمره عليه السلام بتوجيه الربوبية والألوهية وافراد الله بالتوكل والمثاب قولاً وعملاً « كذلك أرسلناك في أمة قد خلت من قبلها أمم لتتلو عليهم الذي أوحينا اليك وهم يكفرون بالرحمن قل هو ربي لا اله الا هو عليه توكلت واليه متاب » (٢٨) •

وتلحظ الجملة الحالية وهو تفجر معنى التناقض الحاد والتعجيب المديد فهم يكفرون بالله الملك الخالق المربي الرحيم وهذا قريب من دلالة الرحمن وهذا ادعى الى الايمان لا الكفران وتلاؤما جاءت أربعة أساليب أمر الرسول بقولهما ردا عليهم ثم اعراضا عنهم — وهو موطن عجب — أينقرد بافراد الله بجليل الصفات والاساليب فتدافضة على طريق

التأكيد والوصف والعطف بالقصر بتعريف الطرفين في الأول والنفي في الثاني والتقديم في الاخيرين في احكام وأسر وشدّة سبك ووحدّة. اخلاص من تكرار الضمير والصفة خمس مرات .

ومن النهى عن الاشراك وتأكيد به شهادة التوحيد جاء قوله تعالى « ولا تدع مع الله الها آخر لا اله الا هو كل شيء هالك الا وجهه له الحكم واليه ترجعون » (٢٩) .

والخطاب للنبي الكريم مرادا به العموم تعريضا بمن أشرك . ودعوة جليلة التأثير .

وقريب منه هذا الخطاب العام استدلالا بالنعمة على المنعم وبالخاق على الخالق ثم تأكيد للتوحيد ونفى الشريك « ياأيها الناس اذكروا نعمة الله عليكم هل من خالق غير الله يرزقكم من السماء والأرض لا اله الا هو فأنى تؤفكون » (٣٠) وقد توالى أسلوبا قصر الأول بهل وغير استفهام يحمل المخاطب على التفكير وصولا الى النفي الحاسم لخالق آخر سوى الله ثم ذكر أثرا واحدا من آثار الخلق هو رزق المخاطبين الدائم من مخلوقات كبرى لا تعطى الا بقدرة مدبر حكيم وقد جاءت شهادة التوحيد مؤكدة مقررة في تمجيد وتسبيح ، وبعد هذا الا يكون اعراضهم مثار تعجيب مدهش « فأنى تصرفون » وتأمل كيف توالى وسائل الأداء من نداء وتنبية وأمر واستفهام مكرر وقصر مكرر ولجلال الأسلوب ورفضه للشرك جاء التعبير « نعمة الله » دون نعمة ربكم .

واضافة النعمة الى لفظ الجلالة لا يأتي الا في المقامات التي يسطع فيها ضوء القدرة ، وسطوة القهر والجلال كتسخير الله لهذه المخلوقات

إلهائلة الزاخرة وهى البحار نعمة الله « ألم تر أن الفلك تجرى فى
البحر بنعمة الله ليرىكم من آياته » (٣١) •

أو تدمير الله للأحزاب حول الخندق بالريح المرسله والجنود
التي لا ترى : « اذكروا نعمة الله عليكم اذ جاءكم جنود فأرسلنا
عائهم ريحا وجنوداً لم تروها » (٣٢) •

وازن ذلك بمقامات الرضا ، والعتاء الرحيم فى قوله تعالى :
« وأما بنعمة ربك فحدث » (٣٣) • « فذكر فما أنت بنعمة ربك بكاهن
ولا مجنون » (٣٤) •

ومن هذا النسق الخاص ما أنطق الله تعالى به الهدهد فى مملكة
سليمان عليه السلام حين غاب عن نظر سليمان فى رحلة اكتشف فيها
أمرأة وقومها يسجدون للشمس من دون الله ، وقصته بدءاً من تهديد
سليمان للهدهد الغائب التارك ما كلف به دون اذن ، وحضور الهدهد :
فمكث غير بعيد ، ونطقه بالحكمة من جنس حكمة سليمان وتلكم المحاوره
وخطبة الهدهد وأسرارها الفنية وسماتها الاسلوبية تحتاح بحثاً •

لكن انظر ارتفاع درجات الانفعال وتوهج الأسلوب ودفق الصفاء،
واللهم الهدهد بثناء على الله الجليل بأسلوب جليل « وجدتها وقومها
يسجدون للشمس من دون الله وزين لهم الشيطان أعمالهم فصدهم عن
السبيل فهم لا يهتدون » • والسجود للشمس والكواكب خروج
بالسجود عما جعل له ، والشمس مخلوق مسخر ولا يعقل أن يكون الها
وإذا جاء فى موازنة سريعة بين اله باطل وبين الله الحق بلفظ انجلالة
تليظهر زيف ما دعوا وغالبا : ما يأتى فى الاسلوب القرآنى الآلهة الباطلة

• (٣٢) الأحزاب ٩

(٣١) لقمان ٣١

• (٣٤) الطور ٢٩ وراجع المعجم المفهرس ٧٠٨

(٣٣) الضحى ١١

يعقبها اسم الجلالة تصويراً بالطباق واظهاراً لهذا التناقض الحاد بين المواقع الحق المشرق والباطل المزعوم المدعى أعنى : كثر هذا التعبير « من دون الله أو من دونه » لما ذكرت •

كما أن ذكر الشيطان والصد عن السبيل ونفى الهداية مهد للآية التالية : « ألا يسجدوا لله الذى يخرج الخبء فى السموات والأرض ويعلم ما تخفون وما تعلنون الله لا اله الا هو رب العرش العظيم » • وقوله : ألا يسجدوا فى معنى الأمر والآية تحرر دليلاً على وجوب عبادة الله فهو المنفرد بقدرته بأخراج الخبء والخفى والمنفرد يعلم الخفى والظاهر فهما لديه سواء • ومع أن أخراج الخبء كما ذكر العلماء يعلم ما يعلم من اشراق النجوم والكواكب واظهارها بعد استئثارها ، وانزال ، الامطار ، وانبات النباتات ، بما يعم الانشاء والابداع والخلق أكاد ألمح هذا التلاؤم الخاص جداً بالهدد فحياته ورزقه على هذا الخبىء ، القريب من بشرة الأرض ولذا ذكر الخبء والاخفاء وبعض منها داخل فى عالمه تلاؤماً معجزاً يتسع ليشمل الأكوان ويضيق ليخص رزق الهدد من خبىء مكنون •

وقدمت السموات تلاؤماً مع عبادة الشمس ثم ذكر الأرض تقديماً لدلالة الآفاق على دلالة الأنفس وما حولها عكس ما ذكر ابراهيم وموسى عليهما السلام من تقديمهما دلالة الأنفس لأنهما ناظران من ادعى الألوهية من البشر « اذ قال ابراهيم ربي الذى يحيى ويميت قال أنا أحيى وأميت قال ابراهيم فان الله يأتى بالشمس من المشرق فأت بها من المغرب » • وقال موسى لفرعون « ربكم رب آبائكم الأولين » ثم قال « رب المشرق والمغرب » •

ولما ذكر الهدد عرش بلقيس وأوماً هذا الى عرش سليمان وهى

عروش المخلوقين ذكر أعظم الاجسام مما هو محيط بالاكوان وهو
عرش الله العظيم مربوب لرب جليل قدوس • (٣٥)

وتأمل موقع الشهادة في النسق لتجدها مع كونها مدلولا منتظمة
مع الثناء والتسبيح والتمجيد لله من الهدهد بل كل ما خلق الله ولذا
كان التشريع بسجود التلاوة لينضم المؤمن الى موكب الساجدين •

وأخيرا فقد ذكرت الآية التالية تعقيبا على مشهد عذاب أخرى
للكافرين الذين انكروا البعث « فانهم يومئذ في العذاب مشتركون انهم
كانوا اذا قيل لهم لا اله الا الله يستكبرون » (٣٦) • أى قولوا لا اله
الا الله عاملين بها « ذما لهم وترهيبا من مثل عقابهم •

كما جاءت صيغة تقرب من شهادة التوحيد وليست في قوتها
حديث المبالغة وخوف رهبان النصارى وهربهم منها ورد القرآن عليهم
« فعيسى عبد الله ورسوله ومثله كمثل آدم • ثم جاءت الآية « ان هذا
لهو القصص الحق وما من اله الا الله وان الله لهو العزيز الحكيم »
وقد سبقت هذه الآية • والمهم أن الزمخشري سوى بين هذا التعبير
(وما من اله الا الله) وبين شهادة التوحيد وقد رد عليه الزركشى بما
سنذكره آخرا •

٢ - ذكرت شهادة التوحيد سابقة لتقرير البعث دليلا عايه وأنه
حق وصدق لأن من تفرد بالالوهية قادر على الاعداء كالبعد وهم
بمقدوران كياقى المقدورات تحدث ان تعلق بها ارادة التقدير •

قال تعالى « الله لا اله الا هو اجمعنكم الى يوم القيامة لا ريب
فيه ومن اصدق من الله حديثا » (٣٧) والبعث يلى الوجدانية لقطورنا

(٣٥) راجع في الآية : الرازى ٢٤/١٩٠ - ١٨٢ • وأبو السعود/٢٨٢

(٣٦) الصافات ٢٥ (٣٧) النجم ١٧

وكونه من القضايا القرآنية الكبرى التي ووجهت بتيارات من الجحود والاعراض وقد قلبت في انقرآن على وجوه من الأساليب تفوق الحصر ذكرت الآية منها اسلوب القصر دليلا وأسلوب القسم مدلولا أعنى جواب القسم اقناعا وتأثيرا قويا للعقل والقلب معا . قال تعالى « أفحسبتم أنما خلقناكم عبثا وأنكم لنا لا ترجعون فتعالى الله الملك الحق لا اله الا هو رب العرش الكريم » (٣٨) .

والملاحظ : أن مدخول الاستفهام الانكارى التوبيخي جملتان الثانية مؤكدة لمفهوم الأولى فان معنى « وأنكم لنا لا ترجعون : هو نفى البعث من قبيل الخلق عبثا » أفحسبتم أنما خالقناكم عبثا « (٣٩) والواقع أنه لم تخطر بقلوبهم هذه الفكرة وهي عبثية الخلق ولكن لتلازمها لانكار البعث أثبت لهم حسابان ذلك وأنكره والكلام أشبه بالاحتباك . والمثير أن الحسابان المنكر عبث وهو ملائم للمحال وهو خلقهم عبثا ثم انظر الاقتدار من تكرر (نا) للعظمة والجلال ، وغايبا ما يتبع ذكر العبث أو الباطل التنزيه لله تعالى عن ذلك كقوله « ربنا ما خلقت هذا باطلا سبحانهك » .

وفاعل التنزيه « تعالى الله » لفظ الجلالة الجامع لكل الصفات ثم توالت صفات من الجلال تناسبا مع المقام التنزيهي والمسطورة الالهية، فتوالت دون عطف لاجتماعها في الموصوف سبحانه فهو الملك المسيطر المالك لما سواه لا يزول ملكه ولا يبيد (الحق) الثابت وجودا وملكا وكمالا (لا اله الا هو) المتوحد بالالوهية (رب العرش الكريم) وهو خلق اكبر من السموات والأرض : وهذه الصفات الجليلة والأسماء القدسية أدلة على حكمة الحكيم الذي يعد انكار البعث قولاً غثا مع تلك الصفات (٤٠) . ثم انك قد رأيت أن شهادة التوحيد يكثُر أن

(٣٨) - المؤمنون ١١٦ (٣٩) المؤمنون ١١٥

(٤٠) راجع الرازي ١٢٨/٢٣ وأبو السعود ١٥٣/٦

تجىء في مقامات شديدة قوية وفي هذه المقامات يسبقها لفظ الجلالة مباشرة أو يفصل بينهما بعض أسمائه الحسنى بما يناسب السياق •
 وقلت : يكثر لأن ذلك جاء فيما يقرب من أربعة وعشرين أسلوبا من سبعة وثلاثين هي عدد شهادة التوحيد في القرآن كما جاء قليلا جدا اسم الحى أو رب مضافا (٤١) •

٣ — جاءت في سياق يذكر بعض آيات الله الكونية أو اسرار خلقه وخفى نعمه أثرا من آثار الخلق والقدرة والرحمة والعلم ، دليلا على الخالق القدير لكن قد تلاحظ تغيرا في السياق اقتضاه المقام أو تفاوتنا في درجة الاسلوب عنفا وقوة أو تماوجا وتأثيرا :

قال تعالى من سورة غافر « الله الذى جعل لكم الليل لتسكنوا فيه والنهار مبصرا ان الله لذو فضل على الناس ، ولكن أكثر الناس لا يشكرون ، ذلكم الله ربكم خالق كل شىء لا اله الا هو فأنى تؤفكون »
 وقال تعالى من سورة الأنعام « بديع السموات والأرض أنى يكون له ولد ولم تكن له صاحبة وخلق كل شىء وهو بكل شىء عليم ، ذلكم الله ربكم لا اله الا هو خالق كل شىء فاعبدوه وهو على كل شىء وكيل » •
 وبالموازنة نجد :

١ — آية غافر (٤٢) في مقام تعداد النعم الأهمية على البشر من تقدير القوانين الكونية من جعل الليل سكنا وراحة يعقبه نهار مبصر للحركة وتحقيق الخلافة أثر من دوران الأرض حول نفسها بقدرة الله • وهى آية جناية للبشرية ولذا ذكر الناس وكرر اسم الجلالة وصفة الرب والخالق انتهاء الى الوحدانية فهى صفات الاله الواحد «
 ٢ — فى آية الأنعام : (٤٣) ذكر ابداع السموات والأرض وهما

(٤١) المعجم المنهرس ٣٨ •

(٤٢) الآية ١٠٢ •

(٤٣) الآية ٦٢

كناية عن الكون كنه دليلا على نفى الولد والصاحبة بهذا الاستفهام المنكر المستبعد وبفعل الكون وتقديم المتعلق بعد النفي « انى يكون له ولد ولم تكن له صاحبة : بتقديم ضميره في الظرف تقديمًا للموجود المتعالي على المعدوم الشائئ ، وقد وقع انكار المولد والصاحبة بين أوصافه بديع السموات والأرض بدءًا ثم (وخلق كل شيء وهو بكل شيء عليم) بهذا العموم المطلق في المتعلق نسفا لهذه الفكرة الآسنة من الأوهام ، ثم عقب باسم الاشارة البعيد رتبة مع ميم التعظيم (ذلکم الله ربکم) باتحاد الطرفين المعرفين قصراً ووصفا بالربوبية انشاملة ووصف آخر بشهادة التوحيد نفياً لكل ما سواه في الوهم والخاطر أو الزعم الباطل وكرر الخلق مرة ثانية : بالاسم الحالى المستمر « خالق كل شيء » يظهر خلقه متى شاء وكيف شاء ويلزم الأمر بعبادته بعد اجتماع هذه الصفات الحسنی في الموصوف الأعظم وتلحظ اقتدار الاسلوب وسطوته وهيبته وايماضه بالجلال والرهبة والانداز لموجود دعوى البنوة والصاحبة مخنوقة بين صفات جلاله .

وقد لحظ الكرمانى وتبعه الفيروزبادى أنه لما ذكر الشركاء والبنين دفع ذلك بشهادة التوحيد وقدمها على قوله « خالق كل شيء » وفي سورة المؤمن ذكر قبله خلق السموات والأرض وهو « لخلق السموات والأرض أكبر من خلق الناس » فخرج الكلام على اثبات خلق الله ، وزاد صاحب البصائر « وقدم على نفى الشريك » (٤٤) .

وزيادة الفيروزبادى موهمه لأن شهادة التوحيد ليست لنفى الشريك فحسب بل النفى عام وهو ما سوى الله شريكا أو ندا أو مقابلا أو غيره .

على أن قولهما ان تقديم شهادة التوحيد دفع للشركاء والبنين يوهم أنه لم يذكر صفة الخلق الا مؤخرة فقد ذكرت أيضا مقدمة « وخلق كل شيء » •

والظاهر أنه لم تذكر صفة الخلق (ماضيا) في سورة غافر كما ذكرت في آية الانعام قدم « خالق كل شيء » لأن نسق الآيات في خلق الآيات والمن بالآلاء ، انتهاء الى وحدانية الله تعالى وهي المقصودة بسوق النعم •

ولذا لما ذكر نعماء أخرى بعد هذه الآية اتبعها بقوله : هو الحي لا اله الا هو فادعوه مخلصين له الدين » •

أما آية الأنعام فقد قدم فيها صفة الخلق لكل شيء أولا انتهاء الى شهادة التوحيد ثم ذكر الخلق ثانيا انتهاء الى النتيجة تأكيدا بأسلوب آخر ولذا ذكر فا الفصيحة المفيدة للسببية : خالق كل شيء فاعبدوه ، هذا ما جال بالخاطر وقت الكتابة والله أعلم •

ثم قد كثرت مادة الخلق والجعل انتهاء الى اثبات صفة الملك والوحدانية في آية الزمر وهي تتعرض لاون من الآيات وهي ما خص الأنفس •• وتقسيم العلماء للآيات كونه ونفسية مأخوذ من قوله تعالى : « سنريهم آياتنا في الآفاق وفي أنفسهم » (٤٥) وقوله : « وفي الأرض آيات للموقنين وفي أنفسكم » (٤٦) •

أما آية الزمر فقوله تعالى « خلقكم من نفس واحدة ثم جعل منها زوجها ، وأنزل لكم من الأنعام ثمانية أزواج يخلقكم في بطون أمهاتكم

خلقا من بعد خلق في ظلمات ثلاث ، ذلكم الله ربكم له الملك لا اله الا هو
فأنى تصرفون » (٤٧) •

فهي تتحدث عن الخلق الأول ثم نعمة الانعام ومراحل التكوين
للمجنين وهي مراحل مذهلة صورتها آية المؤمنين واطاف هنا « الظلمات
الثلاث » وهو تعبير في لفظين يبسطه علماء الطب في صفحات تعبيرا
معجزا عن حقيقة عامية نزلت آيتها في مكة قبل أربعة عشر قرنا ، وجاء
هنا (له الملك) والله أعلم : لأن هذا الخلق ومراحل وصوره ، بقدرة
الله لا يملكه الا مالك الملك مصرفه ومدبره على حكمة واقنتار ومن هذا
الملك الانسان ذاته ومن التعجيب أن يعرض المخلوق المملوك عن الخالق
المالك وهو معنى فأنى تصرفون وقد تلمح من ذكر الملك هنا من الأسرار
ما تقبله الفطرة ، فسر الظلمات هنا علم يديه ملك الملوك بمقدار وعانى
كل فالآية تتوجها شهادة التوحيد لأن من يفعل ذلك كله اله واحد لا شريك
له •

٤ — جاءت شهادة التوحيد تمجيذا واعلاما ووصفا وثناء ودعوة
وتعليما كما في آية آل عمران « شهد الله أنه لا اله الا هو والملائكة
وأولو العلم قائما بالقسط لا اله الا هو العزيز الحكيم » (٤٨) كما
جاءت أول آية الكرسي بدأت بلفظ الجلالة ثم تلتها صفات جائلة وآثارها
تحيط بالكون دنيا وأخرى • تدبيرا واحكاما وقيومية لعالم الغيب
والشهادة « الله لا اله الا هو الحي القيوم لا تأخذه سنة
ولا نوم ••• » الآية (٤٩) •

٥ — كما جاء لفظ الجلالة وشهادة التوحيد سابقة مع صفات
ملائمة لوصف تنزيل القرآن بالحق دلالة على عظمة القرآن وجلاله

(٤٧) الآية ٦ •

(٤٨) آل عمران ١٨

(٤٩) البقرة ٢٥٥ •

وأنة صفة الله تعانى لا يقاوم قهره ولا يبىد سلطانه وأثره فى القلوب وهيمنته على الأرواح لأن الله سماه « روحا » وكذلك أوحينا اليك روحا من أمرنا » واذن فالله الواحد الذى لا شريك له الحى القيوم

وقال الله تعالى : بعد آية التحدى والمعاجزة فى سورة هود :
« فان لم يستجيبوا لكم فاعلموا أنما أنزل بعلم الله وان لا اله الا هو
فهل أنتم مسلمون » •

والخطاب على الراجح للنبي والمؤمنين وقوله أنزل بعلم الله كناية عن كونه من عند الله كما يقول الرازى ومعناه كما فى الكشاف والبحر أنزل متلبسا بما لا يعلمه الا الله من نظم معجز الخلق واخبار بغيوب لا سبيل لهم اليه •

وشهادة التوحيد مترتبة على عجز المشركين والاصنام أن يأتوا بالمعارضة فثبت أن القرآن من عند الله وأن النبي صادق وأن شهادة التوحيد حق وأن ما سواه من الألهة المزعومة باطلة قطعاً واطلاقاً •

ومترتبة من ناحية أخرى فيها بعض التسبب ذلك أن القرآن العظيم باعجازه الخارق نزل من عند الله لأنه واحد لا شريك له •

وقد لمح الرازى ، فى استعمال الشهادة وجها من التهديد أى فكونوا حذقنين من قهره وعذابه وهذا يجوز اذا كان الخطاب للكافرين ويكون معنى الاستفهام الأمر بالاسلام والواضح أنه من خطاب النبي والمؤمنين والاسلام معناه هنا الاخلاص ترغيباً فى زيادته (٥٠) •

(٥٠) الآية ١٤ وراجع فى الآية الكشاف ٢/٢٦٢ والبحر ٥/٢٠٨

والرازى ١٧/١٩٧ •

حبالاسم الأعظم وصفات الجلال هو الذي أنزله تقريرا لحق ، وتركية له وترغيبا فيه •

وقد تجيء اثر الكلام عن وصف غلاب للقرآن كقوله تعالى من آواخر الحشر « لو أنزلنا هذا القرآن على جبل لرأيته خاشعا متصدعا من خشية الله وتلك الأمثال نضربها للناس لعلهم يتفكرون هو الله الذي لا اله الا هو عالم الغيب والشهادة هو الرحمن الرحيم هو الله الذي لا اله الا هو الملك القدوس السلام المؤمن المهيمن العزيز الجبار المتكبر » الآيات (٥١) •

فتلكم الأسماء الحسنى وما لها من دلالات تشع الجمال والجلال وتدع القلوب المنفصلة بأسرارها وآثارها في الأكوان خاشعة وجلة مغمورة بالنور الأقدس حياء وقربا وهذا مناسب لتصدع الجبل وخشيته لو أنزل عليه القرآن ثم ايماء الى عظمة القرآن وجلاله وأن منزله ذو الصفات الحسنى المقدسة ولعلك تلحظ أن شهادة التوحيد هنا سبقت بقصر هو تعريف الطرفين المتحددين دلالة « هو الله الذي لا اله الا هو » بهذه الدائرة المحيطة الخالدة فالمقصود عليه واحد من القصرين « هو » بدءا ونهاية ، وهذه الظاهرة جاءت في أساليب معدودة في القرآن حين يكون المقام أو النسق شديد التوهج والجلال والتعبير مبني على حروف اللام والألف والماء والواو والأصوات خارجة من الأعماق دون عائق يصل بها النفس الى منتهاه ولا يبقى الا قلب نابض بالتوحيد •

وتأمل خطاب الله لموسى بالواد المقدس طوى : « وأنا اخترتك فاستمع لما يوحى اننى أنا الله لا اله الا أنا فاعبدنى وأقم الصلاة لذكري » (٥٢) ونسج الأسلوب جزل شديد الوقع

من الحاء وتكرار التاءات مع العين واللام وكثرة المقاطع المغلقة في الجزء الأول وكثرة اللامات الممدودة والهاءان في شهادة التوحيد ، ثم المقاطع المغلقة والفاء والعين توازيا في الجزء الأخير مع الجزء الأول وكثرة حروف المد بأنواعها جعل للايقاع وقعا عميقا مهولا مهيبا ، واسم الله وضائره تكرر أربعاً كآية الحشر بل انها احد عشر من بدء الخطاب « انى أنا ربك ... » لقد سرى جلال الاسلوب في النسق كما سرى بالكون وفي كيان موسى الكليم ، لك الله يا موسى لولا تأييد من الله ما قوى كيانك على هذا الجلال .

٦ - كثر مجيء شهادة التوحيد خطابا لنبي الاسلام صلى الله عليه وسلم في عنائه الطويل مع أشد شعوب الأرض عنادا فكانت تنتزل الأيات في مواقف الشدة تسرى عن الرسول الكريم وتمده بالثقة ، وتشد أزره ، وتأمره بالفرز الى الله والاعتماد عليه والمضى على نهج الدعوة مكثرا من ذكر الله متبعا لاوحى داعيا بشهادة التوحيد والمها كما في قول الله تعالى :

« فان تولوا فقل حسبى الله لا اله الا هو عليه توكلت وهو رب العرش العظيم » (٥٣) .

« رب المشرق والمغرب لا اله الا هو فتخذه وكيلا واصبر على ما يقولون واهجرهم هجرا جميلا » (٥٤) .

« اتبع ما أوحى اليك من ربك لا اله الا هو وأعرض عن المشركين » (٥٥) .

• (٥٣) التوبة ١٣٩

• (٥٤) المزمل ٩

• (٥٥) الأنعام ١٠٦

« قل يا أيها الناس انى رسول الله اليكم جميعا الذى له ملك
السماوات والأرض لا اله الا هو يحيى ويميت » (٥٦) •

« فاعلم أنه لا اله الا الله واستغفر لذنبك وللمؤمنين
والمؤمنات » (٥٧) •

٧ - جاءت دعاء مستغيثا ذائبا على لسان يونس عليه السلام
« وذا النون اذ ذهب مغاضبا فظن أن لن نقدر عليه فنادى فى الظلمات
أن لا اله الا أنت سبحانك انى كنت من الظالمين » (٥٨) وقدر من
التقدير بمعنى التضييق وتقديرا لعقوبة أو من القدر أو بمعنى أن لن
نعمل فيه قدرتنا (٥٩) والأخير ضعيف •

ولذا تصدرت فى خطابات المؤمنين الأوامر الخاصة بالدعاء
الضارع والتوكل المخلص • قال تعالى :

« هو الحى لا اله الا هو فادعوه مخلصين له الدين » (٦٠)

« الله لا اله الا هو وعلى الله فليتوكل المؤمنون » (٦١)

والدعوة الى تجريد التوحيد واخلاص اليقين ، وكمال التنزيه ،
وصمة القصد ووحدة المأمول وتنوير القلوب بحق الايمان وعز المؤمن
فى ذله للمعبود والفرار الى الله وحده الذى باسمه قام الوجود وعلى
أسمائه بنيت الأساليب •

الدعوة الى ذلك ومثله معه تنبض بها الاساليب التى أشرقت فيها
شهادة التوحيد •

(٥٧) محمد عليه الصلاة والسلام ١٩

(٥٩) راجع الكشف ٥٨١/٢ •

(٦١) التغابن ١٣ •

(٥٦) الاعراف ١٥٨

(٥٨) الأنبياء ٨٧

(٦٠) غافر ٦٥

لا إله إلا الله والإيجاز :

وفي هذا التركيب ونظائره : نفي للماهية (الله) ويلزمه نفي الوجود - كما هو مذهب أهل السنة . ولا لنفي الجنس داخله على موصوف نكرة ركبت معها ، فالقول : لا إله يقتضي النفي العام الشامل لكل إله فإذا قال بعده : إلا الله أفاد التوحيد المطبق المحقق بآبائته توحيداً بعد نفي الشركاء والأصداد ، ولذلك فإن « لا إله » عند سيبويه في موضع المبتدأ وكذلك الشلوبين والزمخشري وإلا الله خير ذكر هذا في المفصل ونقل الزركشي والشهاب عن الزمخشري أيضاً أن لا إله في موضع الخبر ، وإلا الله في موضع المبتدأ فهو من قصر الخبر على المبتدأ .

ويرى أبو حيان أن الواقع بعد إلا بدل من الضمير المستكن في الخبر المحذوف .

وعلى هذا فهو من القصر على البديل المقصور بالفائدة كما هو تعالى : « لا علم لنا إلا ما علمنا » فخير لا محذوف لأنه يكون مطلق فساغ حذفه وقدره بعضهم « موجود » أو « لنا » أو « بحق » ورجح الزركشي الأخير حتى تكون كلمة التوحيد جامعة بثبوت ما يستحيل نفيه وهو الله تعالى ، وجامعة أيضاً لنفي ما يستحيل ثبوته وهو ما سوى الله ، ويرى الرازي أن الأولى عدم تقدير الوجود لأن نفي الماهية أولى من نفي الوجود في إثبات التوحيد ويمكن التقاؤه مع الزمخشري في رأيه الثاني ، وثم تساؤل أورده الزركشي عن الرازي وأجاب بأن هذه الطريقة أفيد حيث تدل على قصر إله بحق على الله تعالى بأوجز عبارة أو أن المقاب الإنساني لا يمكن أن يشغل بأمريين متدافعين دفعة واحدة فإذا بدى بالنفي ، والنفي تفرغ للقلب فإذا كان خالياً كان أقرب إلى ترسيخ التوحيد فيه وإشراق نور الله تعالى وتطهيره من

الأغيار (٦٢) وهو شرح للفكرة المتعالمة ، التخلية والتثلية . أو التجلية بالجيم والواضح أن هذا التركيب بهذه الصياغة قصد انبه ليكون دالا على اخلاص التوحيد لألوهية الله تعالى نفيا لما سواه ، ولذا كانت للشرط للايمان وأول ركن من أركان الاسلام ، وأسلوب تنزيه وذكر وتمجيد ثم ان الايجاز ليس محصورا في حذف الخبر بل لضغط جملتين في جملة يرتفع بها اللسان مرة واحدة نفيا واثباتا . والمثبت هنا لفظ الجلالة بوقعه المهيب ودلالته الجامعة لكل كمال الهى .

وتم أمر أخير هو أن الزمخشري سوى بين « لا اله الا الله » وبين « ما من اله الا الله » لأن كلا من الجماتين اشتمل على نفى واثبات ومن المؤكد للاستغراق ملفوظ بها في الثانية وتضمنت الأولى معناها ورد الزركشى بأن شهادة التوحيد أبلغ واذا اختيرت لأن لا أقعد بالنفى العام لأن المقصود من لا نفى الذوات اذ هى لنفى الجنس والماهية ايذانا بأن الغرض الاسم لا الخبر ، وخبر ما هو المقصود بالنفى ولا يمكن حذفه ، ثم ان دلالة الاسم الذى ركبت معه : على الاستغراق أمكن من دلالة (ما) على أن التركيب يحدث زيادة لا تكون قبلة ، ومعنى كلامه أن دلالة لا على التوكيد أقوى من ما وهو ما ذكره السهيلي وغيره لشمول النفى بها وكونه مطلقا وليس خاصا لنفيتها الجنس (٦٣) ويبقى أن تعدل عبارة الزركشى « أبلغ » بنحو أقوى وأشمل وأعم لان كل كلمة في مقامها وسياقها هى البليغة والله أعلم .

(٦٢) راجع في تحليل العبارة : شرح العبارة : شرح المفصل ١/١٠٧

والامالى الشجرية ١/٢٨٦ والبحر ١/٤٦٤ والرازي ٤/١٧٤ - ١٧٥ .

ورسالة الزركشى في معنى لا اله الا الله ٨١ - ٨٩ .

(٦٣) راجع نتائج الفكر ١٤١ ورسالة الزركشى ٩٧ - ٩٨

والكشاف ١/٤٣٥ .

من قضايا النظم القرآني

الرِّزْق :

وقد جاء على أنحاء مختلفة في سياقات كثيرة كقوله تعالى « كَلُوا مِنْ طَيِّبَاتِ مَا رَزَقْنَاكُمْ » • وقوله « وَتَرَزَقُ مِنْ تَشَاءِ بغير حساب » وقد يتقدم المسند اليه لفظ الجلالة أو ضميره فيفيد القصر كقوله تعالى : لا نَسْأَلُكَ رِزْقًا نَحْنُ نَرِزُقُكَ (١) وقوله تعالى « اللهُ يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَنْ يَشَاءُ وَيَقْدِرُ » (٢) أو بأجراء وصف الرزاق على الله قصرا بتعريف الطرفين مؤكدا بضمير الفصل كقوله تعالى « وما خلقت الجن والانس الا ليعبدون ما أريد منهم من رزق وما أريد أن يطعمون ان الله هو الرزاق ذو القوة المتين » (٣)

كما جاء في معرض الاستفهام كقوله تعالى : « أمن يبدؤ الخلق ثم يعيده ومن يرزقكم من السماء والأرض » (٤) « هل من خالق غير الله يرزقكم من السماء والأرض » (٤) •

وحين يتوهج الأسلوب ويحمى وتعلو نبرته في سياق يشدد النكير على المشركين حين يسخرون من البعث ويستعجلون العذاب فيذكر قبله بعض صفاته المحيطة كبسط ساطانه وشمول رزقه كل شيء حتى • قال تعالى « وما من دابة في الأرض الا على الله رزقها ويعلم مستقرها ومستودعها كل في كتاب مبين » (٥) •

وفي جملة الرزق تداخل قصران : الأول بما ، والا والثاني الواقع بعد الا « على الله رزقها » بتقديم المسند على المسند اليه ، والمثير أن

(٢) الرعد ٢٦

(٤) النمل ٦٤ •

(١) طه ١٣٢

(٣) الذاريات ٥٦ - ٥٨

(٥) هود ٦

لفظ الجلالة المهيب هو المقصور عليه في الأسلوبين تصريحا في الثاني وبشيء من التأويل في الأول وقد توسط القصرين والاسلوب احياء بأته مصدر الوجود والرزق وعماد الكون فقد بنى على (لفظة التركيب) كما قامت بقدرته وقيوميته الأكوان .

وهذه ظاهرة جاءت في أساليب معدودة من الذكر الحكيم حين يتطلب الموقف تركيزا مضغوطا طارقا مزلزلا وهذا مصدر اتساع المفهوم وشموله وكثرة ظلاله والتلاؤم واضح بين جرس الكلمات ودلالاتها وقوة التأكيد والشمول مع المقام فلأن الرزق دفاق أبدا جاءت «ما» تلتها من داخله على فكرة عامة متفرقة وجاء الوصف « في الأرض » تأكيدا وتصويرا (٦) ثم تأتي الا وبعدها « على الله » فتثير أشواق النفس الى المبتدأ «رزقها» فهو مفتاح الآية يبذل بالجهل علما وبلهجة التسوقى طمأنة ويزيد بث الثقة المطلقة في الله .

ومثل هذا التركيب جاء قول الله تعالى على لسان هود عليه السلام وقد رموه بالجنون وأرادوا به كيدا فقال في لحظة متوهجة سمت فيها روحه وانطلقت تقرع أسماعهم في فدائية مثالية لا تقبالي بهم ولا تعالهم المخلود وفي توكل واثق بربه وحالقه «والآية : ان نقول الا اعتراك بعض آلهتنا بسوء قال : انى أشهد الله واثشهدوا انى برىء مما تشركون من دونه فكيدونى جميعا ثم لا تنتظرون انى توكلت على الله ربى وربكم ما من دابة الا هو آخذ بناصيتها ان ربى على صراط مستقيم » (٧) وحق أن تسمى السورة باسم هذا النبى الجليل الذى يعلن على مسمع الدنيا وحدانية الله وبراءته من شركهم وأصنامهم ، بل يتحداهم أن يكيدوه ولا يتمهلوا في ايدائه لأن نور الله

أشرق في قلبه فما عاد يهمه مخلوق وتلحظ معنى : أدب النبي في التعبير فلم يقل أشهد الله وإياكم أو أشهد الله وأشهدكم حتى لا يقرن بين هذه المخلوقات التعيسة الضالة وبين الله الجليل بل قال : انى أشهد الله فهذا هو المهم وأشهدكم لطما لهم • كما تلحظ حروف اللين نهاية الكلمات المختارة دلالة على غضبه وصياحه بهم رافعا صوته يسمعه القريب والبعيد ، وقد علل عدم مبالاته بهم واحتقاره لكيدهم جميعا بالتوكل المطلق على الله ربى وربكم بذكر لفظ الجلالة وتكرار صفة الرب ولم نجمعهم معه قائلا ربنا : لاختلاف الوجهة ونفورا من الجمع معهم ثم صعد المعنى ذاكرا سطوة القهار في تركيب قاهر مشع : ما من دابة الا هو آخذ بناصيتها :

والأخذ بالناصية : تصوير للتحكم واحكام القهر والسيطرة واحاطة القدرة بكل دابة فهو تعبير جليل غاضب وقد جاء السفع بالناصية في تعبير آخر أشد وعيدا لأبى جهل « لئن لم ينفثه لنسفعا بالناصية » (٨) •

والتعبير « ما من دابة الا هو آخذ بناصيتها » بالقصرين وبنائهما على ضمير الجليل «هو» تصويرا وتأثيرا وهزا للقلوب وبيانا للإيمان حين يسمق ويسمو ثقة بالله وتوكلا عليه تعالى • وقال تعالى : « وان من شىء الا عندنا خزائنه وما ننزله الا بقدر معلوم » (٩) • والقصر الثانى من القصرين فى الجملة الأولى جاء تمثيلا بالمحسوس والمعنى : وما ينتفع به العباد الا ونحن قادرون على ايجاده والانعام به ، وشىء كناية عن كل ما ينتفع به العباد والتركيب قريب التشبه من التركيب فى الآيتين السابقتين •

(٨) الملق ١٥

(٩) الحجر ٢١ •

الغيب :

واستكناه المجهول ومعرفة الغيوب أمر يشغل الانسان اذى وجد
وسط عوالم لا يعلم عنها الا قليلا حتى ادعى بعض البشر وعلى مدى
التاريخ الطويل للبشرية معرفة الغيب لعدد الأسباب ، وفي اثبات علم
الغيب لله وحده تنوعت الأساليب لكن في مقامات خاصة تجد هذا
القصر الشامل المركز قال تعالى « وعنده مفاتيح الغيب لا يعلمها الا هو
ويعلم ما فى البر والبحر وما تسقط من ورقة الا يعلمها ولا حبة فى
ظلمات الأرض ، ولا رطب ولا يابس الا فى كتاب مبين » (١٠) أربعة
أساليب متوالية أحاطت بأنواع الغيوب معلومة لله وحده دون سواه ،
وقد سبق تحليل الآية •

وقال تعالى « وما من غائبة فى السماء والأرض الا فى كتاب
مبين » (١١) والغائبة اسم للشيء الذى يغيب ، والتاء فيه المبالغة
كعلامة ، وهو قصر لموصوف شامل محيط فى الكون على كونه معلوما
لله محاطا به فى اللوح المحفوظ ، وقال تعالى « اليه يرد علم الساعة
وما تخرج من ثمرات من أكمامها وما تحمل من أنثى ولا تضع الا
بعلمه » (١٢) •

وقوله اليه يرد علم الساعة أى اذا سأل سائل عنها قيل الله
يعلم أو لا يعلمها الا هو وعلى كل نفي الأسلوب قصر تلاه قصر آخر
عام بدأ بجمع القلة منكر بعد نفي مسبقا بمن المؤكدة للعموم وثمرات
بهذا الجمع تنويعا لا يحصيه عد والكم بالكسر وعاء الثمرة فما تفتتح

(١٠) الأنعام ٥٩ وراجع فيها الشهاب ٧٤/٤ والألوسى ٣/٢١٩.

وغرائب القرآن ٧/١٢١ •

(١٢) فصلت ٤٧ •

(١١) النمل ٧٥

ثمرة وقتا ومكانا ولونا ونوعا ورائحة وكذلك ما يحدث من حمل حامله في عالم الانسان والحيوان ولا وضع واضع من نوع الحمل وأحواله وأوقاته وما يتصل به من صفات تعجز الحاصر الا والله وحده عالم به علم احاطة ، ويبدو من كلام الكشاف والرازي وأبى السعود أنه الأنثى العاقلة وهو الواضح بينا يوحى كلام ابحر أنه عام في الاناث (١٣) وعلى كل ففى سر العطف على علم الساعة أو البعث أن هذا التوالد فيه ايجاد بعد عدم وكأنه دليل على البعث اذ هو اعادة بعد اعدام . وفي التعبير بالعلم بمعنى الجزم واليقين والاحاطة الكلية بالمعلوم وتفصيله دقة بالغة لأن علماء الفلك والجو والطقس لا يخبرون الا عن ظنى وكثيرا ما تخلف الظنون ، وكذا العلم بالموضع أيتقى أم يموت وأسعيد أم شقى وغير ذلك مما لا يقترب من حماء علم الطب البشرى .

ومن هذه الأمور التى لها ارتباط العقيدة بالسحر ، هذا الأمر الذى لا يظهر الا أثره وله خطره فى أوساط العامة والاسلام يؤكد أنه لا يحدث أمر فى الكون خيرا أو شرا الا باذن الله واراדתه قال تعالى بعد الحديث عن هاروت وماروت وانذارهم للناس بأن السحر ضرر «وما هم بضارين به من أحد الا باذن الله» (١٤) وفيه أسلوبا قصر الأول تبعا للكشاف فى مثل هذه الأساليب وهى : تقديم الضمير «هم» وهو المسند اليه على الخبر المشتق «بضارين» بعد النفى «ما» وان كان الامام عبد القاهر ومن تبعه يخص ذلك بالضر الفعلى ، والأسلوب يفيد أن الضر واقع وأنه منفى عن الضمير المقدم ثابت لمقابلته نحو «وملا أنت علينا بعزيز» لشعيب أى رهطك .

(١٣) راجع فى الآية الكشاف ٤٥٦/٣ والبحر ٥٠٤/٧ والرازي

١٣٦/٢٧ وأبا السعود ١٨/٧ والشهاب ٥٥/٧ - ٥٧ .

(١٤) البقرة ١٠٣ وراجع الألوسى ٣٤٥/١ .

والقصر الثاني بما والا مع طول المقصور وتعدد حروف التأكيد والعموم وفيه قصر الضرر على كونه باذن الله فهو نفى لكل الأسباب والحالات واثبتت حال واحدة هي كونه باذن الله والقصران متقابلان في هذا التركيب الشديد السبك فما يقابل المقصور عليه في الأول وهو «هم» المنفى المذكور في القصر الثاني مقصورا عليه وهو « باذن الله » مثبتا ، وكذلك في القصر الثاني فكأن المنفى نفى مرتين والمثبت أثبت مرتين أيضا تصحيحا للعقيدة برجوع كل شيء الى الله تعالى •

موقع المقصور عليه :

وموقع المقصور عليه في النفي والاستثناء هو ما بعد الا ، صفة أو موصوفا ففي المبتدأ والخبر صريحا أو مؤولا نحو « وما محمد الا رسول » (١٥) وقوله تعالى « ما خلقكم ولا بعثكم الا كنفس واحدة » (١٦) أى كخلقها وبعثها اذ لا يشغله شأن عن شأن ارادة واقتدارا بيانا ليسر البعث عنده تعالى لا عجز ولا لغوب ، يعد الأول من قصر الموصوف على الصفة وكذلك الثاني الذي يراد من التشبيه تربيته أعنى الوجه أى سهولة ويسرا وفي الآية ايجاز بالغ وتصوير دال على إمكان المشبه •

فاذا قدم الخبر كان من قصر الصفة كقولك ما قائم الا زيد فاذا كان الخبر ظرفا أو جارا ومجرورا فقد يكون من قصر الموصوف كقوله تعالى « ان غايك الا البلاغ » بقصر النبي «الضمير» - صلى الله عليه وسلم - على صفة البلاغ •

وفي قصر الفعل على الفاعل يكون من قصر الصفة كقوله تعالى « لن يؤمن من قومك الا من قد آمن » لنوح عليه السلام والقصر يقع

بين الفعل قائما بفاعله وبين متعاقباته ما عدا المفعول معه والمصدر المؤكد للزوم الفصل بالا بين الواو وما قبلها في نحو قولك سرت والنيل ولأن المصدر ذات الفعل قالوا الا اذا أول بالمصدر النوعي كقوله تعالى — ذاكرا شبهة منكرى البعث — « ان نظن الا ظنا وما نحن بمستيقنين » (١٧) أوله أبو حيان مع حذف الوصف : أى ظنا ضعيفا وقيل يضمّن الظن بمعنى الاعتقاد أى ما نعتقد الا ظنا ، ر لا علما ، وقيل على التقديم والتأخير والأصل : ما نحن الا نظن ظنا ، واقتصر عليه ابن يعيث ، وقال أبو السعود ما نفعّل الا ظنا على جعل النفى منصبا على الفعل العام والاستثناء على القيد الخاص ، ورد على أبى حيان في تقدير الوصف «ضعيفا» لأنه جاء في مقابلة الاستيقان « وما نحن بمستيقنين » اذ مقابله مطلق الظن ، وقال الرضى : التأكيد بالمصدر لرفع التوهم فقد تقول : ضربت تعنى ما يجرى مجراه كالتهديد والأرجح ما ذكره السكاكى والبلاغيون وأيده سيد شريف في حاشيته على شرح الكافية من أن التكرير في «ظنا» للنوعية أى ظنا ضعيفا دون تقدير محذوف اذ لا دليل عليه ويكون قولهم : وما نحن بمستيقنين تأكيد لجملة القصر وتصيد في المعنى اذ نفى الظن القوى يؤكد نفي اليقين من باب أولى (١٨) •

وقال تعالى « وما خلقنا السموات والأرض وما بينهما الا بالحق » (١٩) أى الا خلقا متلبسا بالحق والحكمة لا يلائم الفساد والشور ، ويجوز أن تكون الباء للسببية أى بسبب الحق (٢٠) وعلى

١٧٧٠ الجامية ٣٢

(١٨) راجع في ذلك المفتاح ١٩٣ والبحر ٥١/٨ وتفسير أبى السعود

٧٥/٨ وشرح الكافية ١٣٦/١ •

(٢٠) راجع الشهاب ٣٠٦/٥ •

(١٩) الحجر ٨٥

الأول فالظرف وصف للمصدر المحذوف • ومن قصر الفعل على المفعول وهو من قصر الصفة قوله تعالى « وما يضلون الا أنفسهم » •

القصر على الحال :

وللحال - وبخاصة في الاستثناء - شأن في القرآن الكريم ذلك أن أحوال البشر اللازمة أو المتغيرة هي مطلب القرآن ، تعديلا أو حثا أو اقرارا في جانب المؤمنين ، ورفضاً أو انكاراً أو تعجيباً أو ذمًا في جانب الكافرين ، أو حالا شاملة لذلك وغيره سعة أكبر من سعة الزمان والمكان ، والأحوال منها الخبيء الدفين في عالم الشعور واللاشعور ومنها الظاهر سلوكا ، ولذا تنوعت صياغاتها بتنوع الصياغة في اللغة العربية •

قال شهاب اندين القرافي رحمه الله « والحال في الاستثناء » (يعنى في القرآن) « يقع ماضيا ومضارعا وجملة اسمية وفعلية ومصدرا بأن وبغيرها وحالا مشتقة واسما جامدا ، وجملة شرطية ومجرورا متعلقا بحال محذوفة » (٢١) واختلاف الصياغات يخضع لدقة متناهية في التلاؤم بين المقام والصياغة الخاصة اذ لا بد « كما يقول الامام عبد القاهر » من أن يكون ذلك انما كان من أجل علك توجيه وأسباب تقتضيه » وقال ان الوقوف على العلة في ذلك اشكال وغموض ذلك لأن الطريق اليه غير مسلوک والجهة التي منها تعرف غير معروفة » (٢٢) •

وقد جاءت دراسة الامام في الحال وبخاصة في الجملة التي جاءت بالواو أو بدونها : في عموم الحال بعيدا عن الاستثناء ، وموجز ذلك :

١ - الحال المقدمة خير في الحقيقة وان كان على هيئة خاصة ،

وضحت بعد مجيء الخبر الحقيقي فالخبر الحقيقي مباشر والحال هيئة بواسطة الخبر •

٢ - مجيء الحال جملة بدون الواو حين يقصد ضمها الى ذى الحال في اثبات واحد ، واذا جاءت الواو في نحو جاء زيد وهو يسرع اذا قصدت استئناف اثبات للسرعة لأن اعادة ذكر زيد بضميره لا يكون حتى تقصد استئناف الخبر عنه •

٣ - جاءت جمل اسمية على غير القياس فلم تذكر الواو نحو : كلمته فوه الى في : خروجا على الأصل بضرب من التشبيه اذ المعنى كلمته مشافها له ، وقولهم : رجع عوده على بدئه أى رجع ذاهبا في طريقه الذى جاء فيه (٢٣) • واذن فالخلاصة أن فكرة اتصال المعنى أو استئنافه وراء الواو حذفها وذكرها •

وقد بسط ذلك السكاكى بشيء من التحديد : فالحال المفردة سواء كانت مؤكدة نحو هو الحق بينا أو مطلقه جارية بوصف غير ثابت نحو جاء زيد راكبا في حكم الخبر فلا تأتى بالواو •

وكذلك الحال اذا كانت فعلية مضارعية أما الماضية فتأتى في الاثبات بقدر أو منفية بما فلم تأت على نهج الحال فتأتى الواو أما الاسمية في الحال غير المؤكدة لدلالاتها على الثبوت تأتى بالواو وأما الظرف فحيث احتمل أن يكون جملة فعلية وألا يكون جاز ذكر الواو وعدم ذكرها كقولك رأيت على كتفه السيف : أو وعلى كتفه السيف : فان كان صاحب الحال نكرة لا تأتى الواو حين يراد الوصف وتأتى حين يراد الحال •

وعليه قوله تعالى : « وما أهلكنا من قرية الا ولها كتاب معلوم » (٢٤) •

(٢٣) المرجع ١٤٥ وما بعدها •

(٢٤) الحجر ٤ وراجع المفتاح ٢٧٤ - ٢٧٦ •

والواقع أن الحال في القرآن الكريم مطلقا في الاستثناء وغيره نحتاج بحثا متأنيا مخلصا من خلال استقصاء مواقعها وأسرار استعمالها في القرآن والاهتداء بما كتبه علماء التفسير في هذا الصدد اكتمالا للبحث المبشر أو المحدود عند البلاغيين ، وعلى ضوء مما كتب أئمة التفسير وأكثرهم كان اماما في البلاغة نقدم هذه التحليلات

قال تعالى « وما خلقنا السماء والأرض وما بينهما لاعبين ما خلقناهما الا بالحق ولكن أكثرهم لا يعلمون » (٢٥) •

وحين يكون المقصور عليه حالا يستثنى من عموم الأحوال المقدرة المنفية ولا يبقى مثبتا الا تلك الحال وهي دالة على أمرين وقوع الفعل وكونه على هيئة خاصة لا يتعدها •

والحال هنا « شبه جملة «بالحق» وهي في مقابلة الحال المنفية في الجملة الأولى «لاعبين» فهو قصر قلب تنزيلى لأن زعمات الكافرين واعتقاداتهم من اشراك الأصنام وتكذيب البعث وغيره من عقائد الاسلام يجعلهم في منزلة من يرى أن الخلق كله عبث لا حكمة فيه ، وقوله «بالحق» في تأويل الحال لأنه وقع في مقابلة «لاعبين» •

وقال تعالى « وما تشاءون الا أن يشاء الله ان الله كان عليما حكيما » (٢٦) •

وقال تعالى : « من ذا الذي يشفع عنده الا باذنه » (٢٧) •

وقد جاء قصر الحدث على مشيئة الله في أكثر من عشرة أساليب (٢٨) •

(٢٦) الانسان ٣٠

(٢٥) الدخان ٣٨ - ٣٩

(٢٨) المعجم المفهرى ٣٦٠ ، ٣٩٢ •

(٢٧) البقرة ٢٥٥ •

وكذلك القصر لأنواع منه وقعه في الدنيا والآخرة على اذنه تعالى (٢٩) أفراداً له بالارادة والمشية فهو وحده مدبر شئون الخون بحمته وقدرته و ارادته ، ومحل «أن يشاء» في الآية الأولى النصب على الظرف أى الا وقت مشيئة الله وهو رأى الزمخشري وتبعه كثير من المفسرين الا أبا حيان الذى رده بأنه لا يقوم مقام الظرف الا المصدر المصرح به نحو : أجيئك صباح الديك ولا يجوز «أن يصيح الديك» وتبع القرافى أبا حيان وأعرب « أن يشاء الله » متعاقبا بحال محذوفة أى الا مقترنين بأن يشاء الله وموافقين لها أو صفة مصدر محذوف : الا مشيئة مرتبطة بمشيئة الله (٣٠) ودلالة هذا الأسلوب انه لا نخل لمشيئة العبد الا من حيث الكسب وظاهرا لسبب وانما التأثير والخلق لقدرة الله تعالى حسب مشيئته سبحانه دعوة الى التوكل والتقويض مع مباشرة الأسباب دون الاتكال عليها وهذا معنى التوكل دون التواكل أو قطع الصلة مع مسبب الأسباب .

وفي الآية الثانية : « من ذا الذى يشفع عنده الا باذنه » فهو رد مع المشركين في زعمهم شفاعة الأصنام لهم عند الله وكانوا يقولون : « انما نعبدهم ليقرّبونا الى الله زلفى » .

والآية تبين جلال كبرياء الله وعظيم عزته وجبروته ، ومعنى الاذن : الأمر أو العلم أو التمكين والباء للمصاحبة وهى التى يعبر عنها بالحال كما قال أبو حيان أى لا أحد يشفع عنده الا مأذونا له (٣١)

(٢٩) المعجم المفهرى ٣٦ ، ٣٩٢ .

(٣٠) راجع البحر ٤٠٣/٨ وغرائب النيسابورى ١٢٥/٢٩ والتبعاى

١٦١/٢١ وأبا السعود ٧٦/٩ .

(٣١) راجع البحر ٢٧٩/٢ والقرافى ٦٤٣ .

ومن الحالة الكاشفة للسرائر قول الله تعالى « وما يؤمن أكثرهم
بإله الا وهم مشركون » (٣٢) .

والآية تتحدث عن المنافقين وجمعهم بين المتناقضين ، ايمان في
الظاهر على طرف اللسان وكفر مستكن في الأعماق ، تعجيبا من شأنهم،
وشذوذ طباعهم وتعري قلوبهم المسودة ، وتقييم الحجة الساخرة المثيرة
على كفرهم بطريق وثيق ، والمعنى : لا يؤمن أكثرهم بالسنتهم في
حال من الأحوال الا في حال شركهم بقلوبهم .

وانظر الاحتراس المعجز في التعبير بالأكثر هنا وفي بعض الآيات
نحو « وان تطع أكثر من في الأرض يضلوك » في الكفار لأن بعضا من
هؤلاء وأولئك قد أسلموا وحسن اسلامهم (٤٣) وقد جاءت الجملة
الاسمية حالية لدلالاتها أولا على الثبوت بمعنى ثبوت اشراكهم ولزومه
حتى قبل ايمانهم الظاهري الذي جاء في صورة الحال المتجدد وسما
لهم بسمه الاثراك وذما للنفاق والواو تعنى الاستئناف اشهارا لهذا
المعنى الغريب وان كان مقرنا للفعل .

وقال تعالى عن المشركين « ما يأتيهم من ذكر من ربهم محدث
الا استمعوه وهم يلعبون لاهية قلوبهم » (٣٤) والآية ترسم صورة
غريبة للمشركين حالما يستمعون الى الذكر الحكيم تنهات في النفور
والاعراض فهم يستمعون لا يسمعون دلالة الاحتشاد والاهتمام
لا اقبالا على القرآن بل امعانا في الكيد فهم يشغلون أنفسهم باللعب
الدائب كأنه ليس لهم من المستمع الا اسمه وشكله الخارجى أما قلوبهم
فقد أفلحوا في صرفها عن القرآن باللعب واللهو الدائم وتحرير المعنى:

(٣٣) راجع الاستغناء للقذافي ٦٤٣ .

(٣٢) يوسف ١٠٦

(٣٤) الانبياء ٢ .

ما يأتيهم في حال من الأحوال الا حال استماعهم اياه لاعبين مستهزئين به لاهين عنه أو لاعبين حال كون قلوبهم لاهية عنه انتباهي غفلتهم فتكون حالا متداخلة ، والحال الأولى اسمية خبرها فعلى تأكيداً للاسناد وهو الثعب الذي جاء في صورة المضارع لأن الحدث حركي مستمر أما الحال الثانية فقد جاءت حالا مفردة (٣٥) وخص القلوب لأنها مواطن التأثر فاذا امتلأت لهوا وعبثا كان ذلك أدل على الأعراض عن القرآن الذي لم يقع عندهم حتى على هامش الشعور واغلاق المنافذ عن ذكر الرب عمى وتسفل عن درجة الانسان •

وقال تعالى « اذ يتلقى المتلقيان عن اليمين وعن الشمال قعيد ما يلفظ من قول الا لديه رقيب عتيد » (٣٦) ورقيب : يرقب القول ويكتبه ، وعتيد : معد مهياً للكتابة ، وهناك رقيب في الخير ورقيب في الشر ، بدليل «المتلقيان» فترك أحدهما لدلالة الثاني عليه وتمام المعنى : ونحن أقرب اليه من ويريد قلبه حين يتلقى المتلقيان •

والآية تبين عمل الحافظين ليكون حجة على الانسان ثم يتداخله الترغيب مع الترهيب • وتلحظ في الآية زيادة على ما سبق :

١ - ذكر الرقيب وحذف فعله ومهمته وهو الكناية والتسجيل لدلالة الأسلوب عليه •

٢ - صياغة «رقيب» دون مراقب ، وعتيد دون معد يدل على بلوغ اهتمام الملكين بالتسجيل لا تفوتهما مثقال ذرة وقد وضحت السنة أن ملك السيئات ينتظر التوبة ساعات رحمة من الله بعباده : كما أن التعبير بالظرف «اديه» يدل على القرب الشديد من التعبير بشيبيه

(٣٥) راجع في الآية تفسير أبي السعود ٥٤/٦ والالوس

١٧ - ١٨ •

والاستغناء ٦٤٦

«عند» وهي دلالة مطردة في القرآن سواء كان قريبا حسيا أم معنويا . ولم تذكر أو انحال هنا تشبيها للاسمية بالفعلية في اتصالها وتداخلها مع صاحب الحال وهو الملائم للمقام . وهذه الحال يسميها القرافي الحال الوقتية (٣٧) .

بقي ملمح فنى بالغ في الجملة الحالية اذا كانت فعلا كقوله تعالى « وما أرسلنا في قرية من نبي الا أخذنا أهلها بالبأساء والضراء لعلهم يضرعون » (٣٨) وقال سبحانه « وما تأتيهم من آية من آيات ربهم الا كانوا عنها معرضين » (٣٩) .

قالوا : الحال تشبه الشرط هنا في ترتب جزائه على شره وتعقيبه له ، كقولك ان تذاكر تنجح ، واذا كان معروفا عن الحال أنها مقارنة لزم من حدوث الفعل لأنها هيئة من هيئاته كقوله تعالى : « ثم أدبر يسعى » فالسعى صورة للادبار وفي ذات زمنه ولما كان الأخذ بالبأساء متأخرا عن زمن الارسال والاعراض يأتي بعد اتيان الآيات قال العلماء ان في هذه الأساليب التي تشبه الشرط يقدر الحال محذوفا بالعزم والنية والارادة — حسب ملاءمة المعنى والسبب — ويكون ما بعد الا متعلقا بهذا العزم المحذوف .

ففي الآية الأولى يقدر : الا مردين أخذها والثانية الا عازمين أى الكفار على الاعراض فالحذف متعلق بالارادات الخفية وهي مطوية خارجا فطويت أسوبا تلاؤما والله أعلم كقوله « اذا قمتم الى الصلاة فاغسلوا وجوهكم » ثم ان حذفها أعان من ناحية أخرى على معنى

(٣٧) راجع في الآية : الطبرى ٩٩/٢٦ والكشاف ٦/٤ والبحر ١٢٤/٨

وآبى السمعودى ١٢٩/٨ والقرافى ٦٥٠ .

(٣٨) الأعراف ٩٤ (٣٩) الأنعام ٤

اللزوم في النسق وأنها لا تتخلف ولا تتغير كأنها خرجت عن طبيعة الحال وأشبهت الصفات وهذا قد يدخل تحت ما علق به المحققون وقوع الفعل — على وجه العموم — بعد الألبانه كلام في معنى الشرط فأشبهه الشرط فلذا وقع بعده الفعل ألا ترى أن معنى: لا يصيبهم ظمأ... الآية ان أصابهم ذلك كتب لهم «...» وقد نبهنا بدء هذا البحث على سر الصياغة لأفعل بعد الألبانه وهو اظهر جانب التسبب وما له من أثر نفسي ووقوع الحدث ضربة لازب على أن هذا اللزوم يقوى هذه القسم المفاد من أساليب الحصر حينما يتطلب النسق والمقدم ذلك •

ورأى القرافي ان الفعل الماضي في الآية الثانية « كانوا عنها معرضين » بمعنى المضارع « يكونون » تلاؤما مع المضارع المنفى بعد ما « تأتيتهم » لكنه رحمه الله لم يبين سر الماضي هنا ولا تأويل فكره مقارنة الحال لفعالها زما وهو ما قدمناه ، ويبدو — والله أعلم — أن التعبير بالماضي تأكيد لمعنى اللزوم الذي دل عليه التركيب وبخاصة أن فعل الكون الماضي قد يتحرر من فكرة الزمن وهذا خاص بالآية وما يشبهها وعلى العموم فتأكيد الأزوم بالمعنى يجعله شبيها بالحقائيق التي لا تنقض زما لأعراضهم الراسخ •

وتأمل هذه الآية على لسان يوسف عليه السلام « لا يأتيتكما طعام ترزقانه الا نباتكما بتأويله قبل أن يأتيتكما ذلكما مما علمنى ربى » ومع أن انباءهم نهم سابق على اتيان الطعام الا أن الزمن مستقبلي اذ لم يحدث ذلك قبل زمن الخطاب •

وهناك بعض الأساليب التي دارت حولها آراء الأئمة من علماء العربية كقوله تعالى: « وما أهلكنا من قرية الا واهما كتاب معلوم » •

فكثير من العلماء يعرب الجملة بعد الواو حالا • وقد التمس الفرضى بعقله المفذ لذلك سرا نحويا لأن ما بعد الا منفصل معنى عما

قبله لمباينته له نفيًا وإثباتًا والّا مؤذن من حيث المعنى بنوع من الانفصال وكذلك الواو والفعل لا يعمل مع حرفين مؤذنين بالفصل وإذا لا يقع عطف النسق بعد الّا أما واو الحال فان الفعل معها لا يظهر عمله لفظًا فيما بعدها بل هو مقدر ، وهذا الانفصال وعدم الضم مما يشبه الاستئناف هو ما ذهب إليه عبد القاهر في تعليل الواو ، لكن الامام الزمخشري اتبع المذهب الكوفي وأعرب الجملة صفة لقرية ، وتوسطت الواو — على غير قياس — لتأكيد لصوق الصفة بالموصوف وقد تعقبه بعضهم ، لكن تابعه أبو البقاء وانتصر له صاحب الكشف بأن المعنى على الوصف أبلغ يعنى بذلك اللزوم في الوصف ولصوقه للموصوف لا يفارقه وهو ما يناسب المقام ترجيحًا (٤٠) .

تقديم المقصور عليه :

لم يأت تقديم المقصور عليه على المقصور — في النفي والّا — في القرآن الكريم ، وأجازته العلماء — على قلة — بشرط أن يلي المقصور عليه الّا كقول الكميت :

ومالى الّا آل أحمد شيعة ومالى الّا مذهب الحق مذهب

والقصر فيه غير اصطلاحى لأن الاستثناء تام ، وانما قل ذلك لاستلزامه قصر الصفة قبل تمامها اذ فصل بين أجزائها بالمقصور عليه ، ولم يمتنع هذا التركيب لأن وجود الّا بعدها المقصور عليه قرينة تمنع الوهم واللبس (٤١) .

(٤٠) راجع في هذه القضية الكشف والانتصاف ٣٨٧/٢ والبحر المحيدل ١١٤/٦ والشهباب ٢٨٣/٥ ، ١٩١ والأطروال ٢١٤/١ والألوسى ١٠/١٤٠ وشرح الكافية ٢٣٥/١ والاستغناء ٢٩٧ .
(٢) راجع الامبابى ٩٠/٣ .

انما

الطريق الثانى من طرق القصر له دلالة ، واستعملاته الخاصة بتفديد الاثبات والنفى حملا على النفى والاستثناء ، وقد التمس بعض الأصوليين - لافادتها ذلك - أن أصلها ان المؤكدة التى بتفديد الاثبات وما الناقية ، وهو تعليل افتراضى فالعلماء على أنها ما الكافة اتصلت بان كما تتصل بأخواتها •

والقول بافادتها الاثبات والنفى حملا على طريق النفى والاستثناء قديم قدم التفسير القرآنى فقد رواه عن عبد الله بن عباس وابن مسعود ومجاهد وغيرهم رضى الله عنهم انهم قالوا فى « انما حرم عليكم الميتة » ما حرم عليكم الا الميتة ، وقد رواه الزجاج والفراء والطبرى ومن تبعهم •

الامام أبو حيان وانما :

نقل كثير من العلماء أن الامام أبا حيان يرى أن انما لا تفيد القصر بل مجرد التوكيد ومن هؤلاء ابن هشام والشهاب الخفاجى والأوسى وغيرهم وتلميذه الامام تاج الدين السبكي ووالده الامام على بن عبد الكافى السبكي قال تاج الدين ان الامم أبا حيان كان مصمما على رأيه ويتغالى فى الرد على من يقول بافادتها الحصر ثم رد عليه ومن جملة ما قاه أن من أحسن ما وقع فى الاستدلال على أنها للحصر قوله تعالى « وان تولوا فانما عليك البلاغ » فانها او لم تكن للحصر كانت بمنزلة قولك « وان تولوا فعليك البلاغ » وهو عليه البلاغ تولوا او لم يتولوا ، والمراد تسليته - عليه الصلاة

(١) راجع الطبرى ١/٥٠٠ والدلائل ٢٥٠ والصاحبى ١٨٣ وتفسير الرازى ١١/٥ والأطول ١/٢٢١ •

والسلام - وأن توليهم لا يضر وهو دلالة الحصر « كما وهمه ابن هشام في المغنى قائلا « لم يرتض كلامه ثقة من العلماء » • ونحوهما الشهاب والألوسی (٢) •

ومن يتبع أساليب انما وتعليقات أبي حيان في البحر المحيط يجد عجبا :

فقد ذكر في تأويل الآية « واذا قيل لهم لا تفسدوا في الأرض قالوا انما نحن مصلحون » (٣) •

أخر انما لا تفيد القصر ، ولا فرق بين ان ولعل من أخواتها اذا اتصلت بها ما ، واذا فهم الحصر فانما يفهم من سياق الكلام (٤) • وتأمل شرحه للآية التالية قوله تعالى « انما الصدقات للفقراء والمساكين والعاملين عليها •• » الآية (٥) •

قال : ولفظة انما : ان كانت وضعت للحصر فالحصر مستفاد من لفظها ، وان كانت لم توضع للحصر فالحصر مستفاد من الأوصاف اذ مناط الحكم بالوصف : التعليل وهو يقتضى الاقتصار عليه (٦) وهو ملتفت الى الأصوليين في فكرة التعليل بالوصف ويهمننا ترده هنا في انما وتجويزه اخادتها الحصر •

ثم تأمل هذا الموقف الأخير وهو يتكىء على ذوقه الفني وما يطبعه الأسلوب القرآني في قلبه وحسه حين يشرح الآية : انما يأتكم به الله ان شاء « (٧) يقول مفسرا « ليس ذلك الى انما هو للاله الذي يعاقبكم على عصيانكم ان شاء » كما كرر تلميذه العبارة بذاتها (٨) واذن فملكته الفنية كانت تغلب في بعض الأحيان تقعيداته البلاغية •

(٢) راجع : مغنى اللبيب ٣٠٩/١ ، والشهاب ٢٨٧/٥ ، ٢٧٩/٦ والألوسی ٢١/١٤ والابهاج ٣٥٨/٣ •

(٣) البقرة ١١

(٤) البحر ٦١/١

(٥) التوبة ٦٠

(٦) البحر ٥٧/٥

(٧) هود ٣٢

(٨) البحر ٢١٩/٥

هل يمكن بعد هذا أن نقول ان له وجهين من الرأي ، أو أنه متوقف في افادتها الحصر أو أن تحطيله الأخير يعد رجوعا عن رأيه الأول يمكن القول بكل ذلك .

واذن فهو لم ينف افادتها الحصر على وجه القطع واليقين .
والواقع أن استيفاء رأى عالم كبير كأبى حيان من الخطورة بمكان دقة وأمانة .

وردا على رأى القلة من العلماء التى لا ترى فى انما أداة قصر نصب الامام عبد القاهر أدلة على افادتها القصر ثم زاد عليها السكاكى لتكون ثلاثة ترددت فى كتب البلاغيين (٩) :

أولا : قول قدامى المفسرين من عرب الصحابة والتابعين المعرفين بموضوعات الألفاظ ودلالاتها كابن عباس وابن مسعود ومجاهد رضى الله عنهم وهم حجة فى ذلك : قالوا فى الآية الكريمة « انما حرم عليكم الميتة » بنصب الميتة : معناه : ما حرم عليكم الا للميتة وهذا موافق فى الدلالة القراءة رفع الميتة مع بناء حرم للفاعل ، على أن ما موصولة وجملة حرم : صلة ، والميتة : خبر ان والقصر هنا طريقة تعريف الطرفين والمعنى : ان الذى حرمه الميتة ، وهذا ما تفيدته القراءة الأولى والأصل توافق القراءات فى المعنى .

ثانيا : نص علماء النحو القدامى على أن «انما» لاثبات ما بعدها ونفى ما عداه ، وهذا عين ما يفيدته النفي والاستثناء .

ثالثا : صحة انفصال الضمير معها مع امكان اتصاله ، دون أن يكون فصله عن المواطن المعروفة فى النحو ، ومنها أن يقع الضمير

بعد الا فيأتى منفصلا كقول الله تعالى : « لا اله الا أنت • لا اله الا
أنا » وقال الشاعر :

قد علمت سلمى وجاراتها ما قطر الفارس الا أنا

وعدوا من الشاذ نحوا وبلاغة قوله :

* الا يجاورنا الاك ديار *

وقد جاء الضمير بعد انما منفصلا قياسا على الا كقول الفرزدق :
أنا الذائد الحامى الذمار وانما يدافع عن أحسابهم أنا أو مثلى

والشاعر يفتخر أنه بطل غيور يحمى حماه ، ويذود عن حقيقته
وحسبه ، وقد أدى التركيب ما أراده فانفصل الضمير فاعلا ، ليقتصر
الدفاع والذود عن الأحساب على نفسه دون سواه ، وهذا مناسب
لمقام الفخر وطبيعة الفرزدق ولو قال - كما افترضوا - وانما أدافع
عن أحسابهم أنا ، لكان أنا توكيدا للضمير المستتر وجوبا وهو الفاعل
في أدافع والتأكيد لا يكون مقصورا عليه لأنه عين المؤكد ، وعليه يكون
المعنى : أدافع عن أحسابهم لا عن أحساب غيرهم وهذا غير مراد ، وغير
مناسب لمقام الفخر العالى النبوة ، ولذا فصياغة الشاعر البصير باللغة
مرادة لتصوير ذات نفسه المطبوعة على الإباء فهو يريد القصر وهو
متضمن معنى ما والا (١٠) •

انما وانما :

وانما بفتح الهمزة قد تؤول بمصدر اسم مفرد ، ولذا نازع — في افادتها القصر — بعض العلماء لكن يرى الزمخشري ومدرسته في التفسير البلاغى أنها مثل المكسورة فقوله تعالى « قل انما يوحى الى انما الحكم اله واحد فهل أنتم مسلمون » (١١) يؤيد أنها مثل انما المكسورة لجيئها بمعناها لوقوعها بعد الوحي الذى هو فى معنى القول ثم انها مقولة «قل» فى الحقيقة — كما ذكر الشهاب — ولا شك فى افادتها التوكيد ، فاذا اقتضى المقام القصر كما هنا انضم الى التوكيد « قال : ولكنه ليس بالوضع كما فى المكسورة فقد جاء ما لا يحتمله كقوله تعالى « وظن داود أنما فنتاه » ولذا فسره الزمخشري بقوله « ابتليناه لا محالة » مع تصريحه بالقصر هنا وهو الحق (١٢) .

وموجز كلامه أن انما « بالفتح : تفيد التأكيد قطعاً ، والقصر ان اقتضى المقام كآية الوجدانية ، وربما لا يقتضى المقام القصر ولا يحتمله كآية « داود » .

والشهاب — مع كثرة نقله عن أبى السعود — لم يورد هنا عن أبى السعود ما يعد رداً على الزمخشري ، فقد حلل الآية على القصر بتأويل «فتن» الى فعل الفتنة وتوجيه النفي الى مطلق الفعل ، «فعل» والاثبات الى المعنى المقيد المقارن له من المعنى المخصوص وهو أثره فى الحقيقة أى فعلنا به الفتنة لا غير (١٣) .

وقد طبق هذا التحليل على بعض الشواهد القرآنية بدلالة المقام كما سبق فى الآية « انما أتبع ما يوحى الى » ، ومثله قوله تعالى على لسان هرون عليه السلام «لعابدى العجل فى غيبة موسى عليه السلام»

(١١) الأنبياء ١٠٨

(١٢) راجع الكشاف ٣/٣٧١ والشهاب ٦/٢٧٩ .

(١٣) راجع تفسير أبى السعود ٧/٢٢١ - ٢٢٢ .

« يا قوم انما فتنتم به » أى أوقعتم فى الفتنة بالمعجل لا الارشاد الى الحق ، لا على معنى : انما فتنتم بالمعجل لا بغيره (١٤) اذ هو غير مراد .

وعلى هذا فلا مانع من القول بأن أنما مثل انما دائما فى افادة القصر وان كانت محمولة عليها حمل الفرع على الأصل .

انما وأنواع القصر :

وانما كالنفي والاستثناء جاءت فى أنواع القصر كما ذكر السكاكى وان لم يذكر شاهدا على القصر الحقيقى وقد جاء فى القرآن الكريم قوله تعالى « انما الهكم الله الذى لا اله الا هو » (١٥) .

وقال تعالى : عن وجوب اتباع القرآن : « فاتبعوه واتقوا لعامكم ترجمون ، أن تقولوا انما أنزل الكتاب على طائفتين من قبلنا ، وان كنا عن دراستهم لغافلين (١٦) : بقصر انزال الكتب على طائفتى اليهود والنصارى يعنى : التوراة والانجيل لأنهما أشهر الكتب قديما مع اشتمالهما على تشريعات وأحكام منظمة واذا لم يذكر غيرهما كصحف ابراهيم ، وزبور داود وغيرها فهو قصر حقيقى غير تحقيقى . كما جاءت فى قصر الافراد التنزيلي كما فى قوله تعالى « وانما نرينك بعض الذى نعدهم أو نتوفينك فانما عليك البلاغ وعلينا بالحساب » (١٧) وكثير مجيئها فى قصر القلب فيما سبق من قصره صلى الله عليه وسلم - أو غيره من الأنبياء عليهم السلام على البشرية كقوله تعالى « انما أنا بشر مثلكم » (١٨) واستعمال انما غالبا وكثيرا فى قصر القلب شىء لاحظناه من خلال ما قدمنا من أساليب هراڤانية وما لم نقدم من شواهد وهو ما يسبق أيضا - بادىء الرأى - الى الخاطر .

(١٤) المرجع ٦/٣٧ (١٥) طه ٩٨ (١٦) الأنعام ١٥٦ .

(٢٨) البقرة ١١٠ .

(١٧) الرعد ٤٠ .

الامام عبد القاهر وانما :

من خلال تحليلات الامام لأسلوب القصر بلا العاطفة ذكر أنها تكون في قصر القلب ثم قاس عليها انما فهي تأتي في قصر القلب ثم قيد ذلك بقوله « ثم الاعتبار به اذا أطلق فلم يقيد - بوحده - وما في معناه » (١٩) يعني مما يدل على الافراد في السياق وقد دافع العصلم بأن انما بمعنى ما والا والمتبادر منه نفى الشركة وقياس الامام انما على العطف لا في افادة القصر بل في افادة نوع القصر (٢٠) فكأنه كلام على سبيل التمثيل فالنقاش في المثال الذي أورده لا في الحكم .

ويمكن أن نفهم من تقييد الامام السابق بنحو وحده وما في معناه : الاشارة الى المقام والقرائن في تحديد نوع القصر وهي اشارة ذكية تقرب تحليلاته من الصواب وبخاصة أنه رحمه الله كان يتكئ كثيراً على ذوقه الفني الخالص في بيان الدلالات وأسرارها وهو بصدد ارساء معالم عقيدة للبلاغة العربية وهو أمر شغله عن فكرة استقصاء الأساليب التي أخذ بها علماء الفقه والأصول وظهرت منها محاولة ثرية عند الزمخشري في أساس البلاغة والراغب في المفردات كتأليف تام .

أما الاستقصاء في الجزئيات فقد بدأ مبكراً عند الجاحظ حين حاول تحديد مدلول اللفظ القرآني « مطر ، وجوع وخوف من خلال استقصاء قرآني حاسم .

وقد أحس الامام عبد القاهر أنه لم يستوف القول في « انما » وانظر الى هذه العبارة الدالة « واعلم أنه ايس يكاد ينتهي ما يعرض بسبب هذا الخرف من الدقائق » (٢١) .

مقام أنما :

وإذا كان النفي والاستثناء يأتي في المقامات الجهرية العالية النبرة ، المشدودة بالأحاسيس المواراة ، ومواقف الجدل والمرء ، أو تأكيد موقف غريب هاجم ، أو تصوير حال المتكلم ووجدانه المهتز النقلق بالهواجس والخواطر ، أو أفكاره الملونة بالمشاعر والموساوس كما جاء في الحكاية عن البشر ، أو التركيز على تقديم غيب غريب خفى في الماضي ، أو تصوير مشهد مثير آت فان «انما» بجرسها وغنتها وقوتها ودلالاتها لا تكون الا في المواقف المهادئة الناعمة دون جلبية أو ثورة انها تنصدر الحقائق والأفكار والمشاعر والمواقف ، تبعث فيها حياة جديدة وتسوقها الى النفس المتلقية سوفا هادئا وتطبعها بتؤدة وريث ، سواء كان ذلك حقا أو ختلا ومواربة واعراضا وعدم مبالاة كما جاءت على لسان الكفر وأشياعه •

ولا شك أننا نلاحظ أبدا — خلافا شديدا بين سياقات الكلام — وصياغات العبارات وتتابع المعانى والمشاعر بين جذب واين ، وعنف ورخاوة انفعال طاغ واتزان شعورى مما يلائم أداة دون أخرى • تأمل لو وضعنا انما بدل النفي والاستثناء في الآية الكريمة « لقد كفر الذين قالوا ان الله ثالث ثلاثة ، وما من اله الا اله واحد وان لم ينتهوا عما يقولون ليمسن الذين كفروا منهم عذاب أليم » (٢٢) •

لو فعلنا : لضاع المعنى ، وانكسر التدفق ، واعوجت العبارة وبرد الايقاع وذهبت الصحة والبلاغة معا ، لأن انما — بهدوئها ولينها — لا تقوى على عنف السياق ، والغضب الالهى المالحق فيه، فهو بدأ الآية بالحكم الصارم المؤكد بالكفر — وما أشنع — على من اعتقد تعدد الآلهة لهذا الكون ؛ ذاكرا من أوصافهم أبشعها ، ومن أقوالهم أفظعها،

هو القول الجماعي دون حق ودون رصيد من صدق القلوب — بأن الله ثالث ثلاثة ، يذكر لفظ الجلالة المهيب هزا للقلوب والأكوان في مقابلة آلهة مرصوفة في عدد أعجم لا يبين انها مخلوقات وكفى ، ثم تحور النظم وتعددت أدوات التأكيد والعموم لنفى المقابل الفانى وأثبتت الألوهية الواحدة بأقوى الأساليب معقبا بالتهديد ومنهيا بالقسم العظيم وهو المقسم والمقسم به على وعيدهم بعذابه الأليم ان لم ينتهوا مكررا مع القسم سمة الكفر التى تستأهل أليم العذاب .

ثم تأمل الآية الكريمة « يسألونك عن الأنفال ، قل الأنفال لله والرسول فاتقوا الله وأصلحوا ذات بينكم وأطيعوا الله ورسوله ان كنتم مؤمنين انما المؤمنون الذين اذا ذكر الله وجلت قلوبهم واذا تليت عليهم آياته زادتهم ايمانا وعلى ربهم يتوكلون الذين يقيمون الصلاة ومما رزقناهم ينفقون أولئك هم المؤمنون حقا ۞۞۞ » (٢٣) .

والآيات تسمح بيد الحنو على هذه القلة المؤمنة المحتسبة التى تركت الوطن والديار والأهل والأموال مهاجرة في سبيل ربها الى موطن النور ثم الذين يئثرون على أنفسهم من الأنصار يحبون من هاجر اليهم ويقاسمونهم بيوتهم وأموالهم ، وقد تطلعوا الى الأنفال جميعاً بعد أن أفاء الله عليهم ظفرا في غزوة بدر — في لحظة ضعف بشرى ، فكان العتاب الرقيق ، والتوجه الحانى الى ما هو أبقى وأعلى انه سياق ارشادى يرسم ملامح المؤمنين ظاهرا وباطنا متطلعين الى رحاب أقوى بحساسية ايمانية ، تهتز القلوب وجلة كلما ذكر اسم الله ، وتزدادا ايمانا كلما سمعت آياته متوكله ، مصلية منفقة ان المقام ودود رفيق . ولذا لو وضعت النفى والاستثناء بدل انما كنت قد وضعت الشيء في غير محله كانار موضع الأزهار ولذا قالوا ان «انما تستعمل في الأمر الجلى» أو الخفى المنزل منزلة الجلى » .

انما في الأمر الجلى :

والمراد بالأمر الجلى : أنه جلى في نفسه ، مقبول لدى المتكلم ، كأنه لا ينبغي أن يكون مثار جدل أو انكار حتى ان أنكره المضاطب فانكره في غير موضعه تأمل هذه الآية في شأن المنافقين وغالبا ما يكون المنافق المظلم القلب عليم اللسان « واذا قيل لهم لا تفسدوا في الأرض قالوا انما نحن مصلحون ألا انهم هم المفسدون ولكن لا يشعرون » فقد نهى المنافقون عن الافساد وهو افساد عام ملأ الأرض (٢٤) وعن التآليب على المؤمنين وتتبع عوراتهم وافشاء أسرارهم الى أعدائهم فردوا مدعين : أن صلاحهم ، وحسن نواياهم واعتدال سلوكهم أمر واضح لا يخفى ، وهذا القصر لا يصور واقعهم النفسى ولا الخارجى بل كان قناعا يخفى خبيثا ، ولذا شدد الله تعالى وهو العليم بالسرائر ، شدد النكير عليهم وانقلب الأسلوب لا يقصرهم على الفساد بل يقصر الافساد - وهو فعل الفساد عن عمد - عليهم فهم أس البلاء والشرور بأقوى الأساليب التى تضافت فيها وسائل التوكيد من « ألا » التى تنبئه لافته الى خطورة مدخولها ثم ان وضيمير الفصل الذى يؤكد الاختصاص الفاد من تعريف الطرفين ثم اسمية الجملة مع نفى الادراك والحس عنهم تأنيبا وتأمل تكرار ضميرهم « هم » مرتين متصلا بالفساد سمة لهم أبدية فهو ديدن وطبع لهم وهم أرضه يومئذنه ، وقال الله تعالى فى شأنهم أيضا « واذا لقوا الذين آمنوا قالوا آمنا واذا خلوا الى شياطينهم قالوا انا معكم انما نحن مستهزون الله يستهزئ بهم » (٢٥) •

فهم يقولون حين يلتقون بالمؤمنين «آمنا» دون تأكيد لأنه مجرد كلام يتيح لهم الحياة ويصرف عنهم العقاب دون رصيد فى قلوبهم فهو

(٢٤) راجع حاشية السيد على الكشاف ١/ ١٨٠ •

(٢٥) البقرة ١٤ - ١٥ •

اعتراف شدي لا يقبلون على تأكيدهم ثم هو لا يجد رواجاً لدى المؤمنين ذوى الفراسة ، فاذا ما اختلفوا برؤسائهم من اليهود الذين سمّتهم الآية : «شياطينهم» استهواً وسيطرة واقنذاء فهم لهم امعات ذابت في رؤسائهم شخصياً اذ ليست لهم حماية ذاتية من عقيدة صحيحة اذا ما اختلفوا بهم قذفوا بما في أعماقهم من خبر أثير لديهم حبيب الى اليهود « انما نحن مستهزئون » فاعترفهم اشكلى بالايمان مجرد استهزاء ساخر . بقصر نفوسهم على الاستهزاء دون الجدية والصدق وأن هذا أمر لا ريب فيه وانما يلاحقهم الرد الالهى قارعا نفوسهم كابتا لهم واضعهم في حجبهم مخلوقات شاردة « الله يستهزىء بهم » وتأمل وقع هذا الاستئناف بلفظ الجلالة الأقدس — على النفس قاهراً منزلاً ، وذكر الاستهزاء مجازاة ومشاكلة ثم هدهم بالإملاء والمد والاهمال لهم كيدياً واستدراجاً ليكون العقاب عظيماً (٢٦) .

وقال تعالى : « قل انما حرم ربى الفواحش ما ظهر منها وما بطن والأثم واليغى يغير الحق وأن تشركوا بالله ما لم ينزل به سلطاناً وأن تقولوا على الله ما لا تعلمون » (٢٧) .

فهو قصر لجملة من الرذائل وأضحة الشر سيئة الآثار يدركها كل عقل واع وكل ذى نظرة بصيرة لا تتحمل انكاراً ولا مراءى ، ومن يقبلون هذه الكبائر انما لما ران على نظرهم وغشى على قلوبهم من أهواء .

وفي آية السحر عن هاروت وماروت « وما يعلمان من أحد حتى يقولوا انما نحن فتنة فلا تكفر » (٢٨) فهما يعلمان الناس السحر ، ابتلاء واختباراً للانسان ، وصلابة ايمانه في الصراع بين الحق والباطل.

(٢٦) راجع الكشف ١٨٧/١ .

(٢٨) البقرة ١٠٣ .

(٢٧) الأعراف ٣٣ .

، وهما ينصحان كل من يريد التعلم بأنهما فتنة وأن مزاولة السحر شر
يؤدي الى الكفر ، وان ذلك أمر واضح حالا وخارجا ولذا كان القصر
بانما ، وقال تعالى :

« انما أمرت أن أعبد رب هذه البلدة الذى حرّمها » (٢٩) وهو
قصر للأمر الخاص من الله تعالى لرسوله - صلى الله عليه وسلم -
بعبادته على رب مكة البلد الحرام دون غيره على الاطلاق والمقصود
عليه رب هذه البندة وهو رب العالمين وقد خص البلد الحرام تشريفا
وتقديسا وترغيبا .

وتجد في هذه الأمور الجلية أن المقصود ليس الحكم الواضح
الذى لا يرقى الى الانكار بل افادة معنى ثانوى هو التعريض الذى
يحتاج قدرا من الفكر الواعى واللزوم الذهنى البصير مثيرا لراكدا
الانفعالات وهو عنى ترتيب الآيات : سخرية المنافقين وكفرهم ،
والتعريض بمن يتعلم السحر وميله الآثم ، والتعريض بمن يقارف
الفاحشة، اهنة لذويها، وترغيبا فى الفضائل المقابلة ثم الدعوة بالحكمة
الى عبادة الله ، وتنزيه البلد الحرام من رجس الجاهلية والله أعلم .

دعوة ابراهيم عليه الصلاة والسلام وأساليب القصر :

من عجب أننى تتبعت - فى المصحف الشريف - ما جاء بشأن
ابراهيم الخليل عليه الصلاة والسلام اخبارا أو مقالولة وحوارا أو
دعاء متبتلا فما وجدت أسلوب قصر واحد بالنفى والاستثناء بل
وجدت القصر بانما وتعريف الطرفين كقوله حتى فى معرض الحجاج
مع نمرود « ربى الذى يحيى ويميت » وكذلك ضمير الفصل كما سبق
« الذى خلقنى فهو يهدين والذى هو يطعمنى ويسقئ » (٣٠) .

(٢٩) النمل ٩١

(٣٠) الشعراء ٧٨ - ٧٩

وهذا متلائم - في اعجاز - مع ما رسمه القرآن لشخصية ابراهيم الخليل من وقار وحلم وأناة وهدوء وتسامح كما قال الله تعالى « ان ابراهيم لحليم أواه منيب » (٣١) وقد أشار الى ذلك الأستاذ المرحوم سيد قطب (٣٢) وان كنا نخالفه في جعله موسى عليه الصلاة والسلام نموذجا للزعيم المتدفع العصبى المزاج وقد سبق تعليقا وردنا •

وتأمل أناة ابراهيم وسلامة النفس في تعليقه على احياء الله الطيور الموزعة الأجزاء « أعلم أن الله على كل شيء قدير » (٣٣) •

ومن أساليب القصر بانما في دعوته عليه السلام قواه تعالى : « و ابراهيم اذ قال لقومه اعبدوا الله واتقوه ذلكم خير لكم ان كنتم تعلمون ، انما تعلمون من دون الله آوثانا وتخلقون افكا » (٣٤) •

وفي آية أخرى « انما اتخذتم من دون الله آوثانا مودة بينكم في الحياة الدنيا » (٣٥) •

فالمفهوم من قوله ذلكم أى التوحيد خير لكم وأن ما هم عليه شر محض لا خير فيه ، فأثبت ما يدل عليه من حصر عبادتهم في آوثان من الحجارة ، فهو كما يقول الشهاب ، استدل على شرارة ما هم عليه من حيث انه زور وباطل « (٣٦) فهى كناية مصورة ثم ان هذا الاستدلال فيه قدر من الوضوح ووضع أيديهم على عظيم باطلهم وتافه فكرهم •

• (٣١) مود ٧٥ •

(٣٢) التصوير الفنى ٢٠٣ البقرة (٣٣)

(٣٤) العنكبوت ١٧ (٣٥) العنكبوت ٢٥ •

(٣٦) راجع الشهاب ٩٥/٧ وروح المعانى ١٥٠/٢٠ •

ومن المثير - أن كنت مهتماً بدلالة الإحصاء - أن كلمة الأوثان جاءت ثلاثاً في القرآن منها اثنتان في دعوة إبراهيم في الآيتين السابقتين ، والثالثة في معرض مناسك الحج لقريش « فاجتنبوا الرجس من الأوثان » (٣٧) وهم من نسل إبراهيم وأهل بيت أقامه إبراهيم بأمر الله كما جاء لفظ الأصنام خمسا منها أربع في دعوة إبراهيم والخامسة حكاية عن اليهود من قوم موسى وقد وجدوا أقواماً « يعكفون على أصنام لهم فقالوا يا موسى اجعل لنا الهة كما لهم آلهة قال انكم قوم تجهلون » (٣٨) وهذا يدل أولاً على أن الأحداث في قصة إبراهيم التي تعددت حلقاتها في مواطن كثيرة من القرآن فوق ما فيها من عظمت وعبر وتسرية عن نبي الإسلام بانتصار الحق على الباطل مهملاً طلال أمداء وأكثر رغاء وزبدا كانت انذاراً مباشراً للكفار العرب وبخاصة قريشاً التي نصبت الأصنام والأزلام حول الكعبة تزييفاً لهذه الأوهام الباطلة .

ذلك أن إبراهيم وهم يفخرون بالانتساب إليه رفع القواعد من البيت ليكون مطهراً « للطائفين والقائمين والركع السجود » (٣٩) وهو هو البيت الذي به كانوا سادة القبائل العربية .

وفيه ثانياً التوجيه إلى المتأسى من خلقم الأنبياء بأبيه إبراهيم عليهما الصلاة والسلام في الصبر والمصابرة والمثابرة في الدعوة والحلم . وقد كان الرسول الكريم أشبه الناس بإبراهيم خلقاً وحقاً كما جاء في الأثر .

(٣٨) الأعراف ١٢٨ .

(٣٧) الحج ٣٠

(٣٩) جزء آية من الحج ٣٦ .

تدليلات :

ومن أساليب انما في الأمر الجلي قوله تعالى « انما المؤمنون
أخوة » (٤٠) .

وقد نزلت الآيات بشأن ما وقع من ايذاء بالقول من عبد الله بن
أبي راس النفاق لرسول الله - صلى الله عليه وسلم ورد عبد الله بن
رواحة رضى الله عنه ثم لما مضى الرسول الكريم طال الخوض بينهما حتى
استبأ وتجادلا وجاء قوماهما من الأوس والخزرج فتجادلوا بالعصى
فرجع اليهم الرسول - صلى الله عليه وسلم - وأصلح بينهم ونزلت
والمعنى : ليس المؤمنون الا اخوة كما قال الزمخشري (٤١) أى لا أعداء
لا كما قال الرازى : انما للحصر أى لا اخوة الا بين المؤمنين وأما بين
المؤمن والكافر فلا ، وقد يرمى النسق الى هذا كما دلت عليه آيات
التوبة (٤٢) لأن مفهوم الآية انهم اخوة كاخوة النسب في الحب
والموالة دون العداوة والبغضاء والعراك والأخوة عند بعض أهل
اللغة جمع أخ من النسب والاخوان جمع أخ من الصداقة فالأسلوب
يؤكد المودة والتحاب بين المؤمنين اشارة - كما يقول الرازى نفسه -
الى أن ما بينهم ما بين الاخوة من النسب والاسلام كالأب ولا بأس
هنا أن نناقش ما يقول الرازى هنا حين يعقد موازنة بين (بما) و (انما) في
أنه لو حذفتما في الأول كما في الآية « فيما رحمة من الله لنت لهم »
لما كان كلاما ولو حذفتما انما في قولك لما ضر وصح اذ الباء متعلقة
بما بعدها وهو محتاج اليها فكذا ما اتصل بها بينما لو حذفتما انما لما
ضر (٤٣) .

(٤٠) جزء آية الحجرات : (١٠) .
(٤١) الكشاف ٥٦٥/٣
(٤٢) ٦٧ - ٧١ .
(٤٣) راجع الرازى ١٢٩/٢٨ - ١٣٠ .

ولعله يقصد الصحة النحوية في أصل المعنى اذ البلاغة تزين الصياغات بموازين دقيقة فاذا اقتضى المقام انما ثم حذف لما صح الأسلوب بلاغة والرازي مثل غيره يفترض أصل المعنى والمعنى الزائد وأصل المعنى في الواقع فكرة ذهنية تجريدية حاربها الامام عبد القاهر اذ المقام هو الذي يقتضى نظماً خاصاً ملائماً لو أغفل شيء منه لانطقات البلاغة وبسقط الأسلوب ، والواقع أن بعض البلاغيين متأثر بالمنهج النجوى في فكرة أصل المعنى وقد سبب ذلك عدداً من الأخطاء في تناول بعض القضايا البلاغية .

ونعود الى الآية ففيها كناية عن وجوب التراحم والتواد ، فان رمى الأسلوب الى معنى آخر لا يؤخذ من ذات التركيب بل من ظلاله ومقتضاه فهو تعريض يثير طاقات الفكر والوجدان كهذا المقطع من حوار ابني آدم من سورة المائدة ، بين قابيل وهابيل « قال لأقتلنك قال انما يتقبل الله من المتقين » (٤٤) .

والرمد يتفرق في نسيجه الحكمة والثقة والحلم فهو وارد على الأسلوب الحكيم لأنه تلقاه بغير ما يترقب من جواب وبما هو أهم والمعنى : أنك أتيت من قبل نفسك لبعدها عن التقوي لا من قبل فلم تقتلني ، فلم يصرح بذلك بل سلك مسلك التهريض جذراً من تهريج غضبه الشيطاني ثم دعوة رقيقة الى التقوي عماه أن يفجر الى ربه . ولذا أسند الفعل الى اسم الجلالة مع التصريح بالتقوي ليفتح غضبه ويمكن روعه ويرده الى الهدى وما أفلح فهو كلام حكيم جامع لغزير المعاني بل انه حديث مثالي غريب لرجل بينه وبين عهد الجبة الطاهر جيل واحد .

(٤٤) المائة : ٥ وراجع الكشف ٦٠٦/١ و٦٠٦/٣ والسعود ٢٦/٣

والشهاب ٢٢٢/٣

— وقد تتصدر انما حقيقة من الحقائق أو حكمة من الحكم أو مثلا وهو قول موجز يمثل خلاصة الوعي وصدق التجربة الانسانية وشمولها وتلاؤمها الدائم مع مواقف — لا يد — كائنه متساوية كآية هابيل وقول يعقوب عليه السلام ، « انما أشكو بثي وحزني الى الله » (٤٥) .

فهو هنا يظهر الضعف ويفوض الى الله أمره طامعا في رد غائبه الحبيب ، وحين تذكر الحقيقة أو الحكمة أو القول الساطع الموضوح لا يهدف الأسلوب الى معناه الأول أو السطحي بل الى معنى آخر يومض به الأسلوب ويدل عايه السياق وهو معنى التعريض، التعريض بمعان ثانوية تختلف باختلاف المقام .

فقى قوله تعالى : « انما يستجيب الذين يسمعون » (٤٦) تعريض بالكفار وأتهم أعرضوا لفقدهم مظاهر الادراك والتحقوا بالدواب ذفا وتعيرا وقريب منه « انما تتدبر الذين يخشون ربهم بالغيب » (٤٧) : المعنى كما يقول عبد القاهر « على أن من لم تكن له هذه الخشية ، فهو كأنه ليس له أذن تسمع وقلب يعقل فالانذار معه كالا انذار » (٤٨) والآية « انما الله واحد » « انما هو اله واحد » تعريض بالشرك وكأنه فقد بصره فلم يدل على آيات الله في كونه وبصيرته فلم يحس بحقيقة الوجدانية في أعماقه .

مع الامام عبد القاهر :

قال رحمه الله « نحن نعلم أن ليس الغرض من قوله تعالى « انما يذكر أولو الأبواب » أن يعلم السامعون ظاهر معناه ولكن أن يذم

(٤٥) يوسف

(٤٦) الأنعام ٣٦

(٤٨) الأعراف ٢٣٠

(٤٧) فاطر ١٨

الكفار وأن يقال أنهم من غابة فرط العناد ومن الهوى عليهم - في حكم من ليس بذى عقل وأنكم إذا طمعتم فيهم في أن ينظروا ويتذكروا كمن طمع في ذلك من غير أولى الألباب » (٤٩) •

وموجز رأيه أن انما تدخل كثيرا على ما لا يجمله المخاطب كآلية السابقة « ولا يراد بالكلام نفس معناه ولكن التعريض بأمر هو مقتضاه » وقد تدخل على ما ينزل منزلة الواضح (٥٠) •

أما الخبر بالنفي والاستثناء فيكون للأمر ينكره المخاطب ويجد الانكار (٥١) •

وما قاله الامام وبخاصة حول وضوح المعنى في الآية « انما يتذكر أولو الألباب » والتعريض بزم الكفار رده القزويني وشراح تلخيصه وغيرهم حتى يوم الناس هذا (٥٢) •

والواقع أن الجهل أو الوضوح أمر نسبي وبما يعد واضحا في مقام قد ينكر في مقام آخر لاختلاف المناسبات والاعتبارات والمخاطبين وأحوالهم النفسية ، وتفاوت الأنسقة وبخاصة في سور متعددة لأن لكل سورة روحا خاصا وتصميما معينا أو درجة خاصة من الأداء بين عنف وقوة على درجاتها وهدوء ولين وترغيب وتحبيب وترهيب وانذار، ومن هنا قد نجد فكرة واحدة خافية أو واضحة أديت بأكثر من أداء بالنفي والاستثناء وانما • ولعل غيبة هذا التصور في المعالجة القرآنية أوجد بعض التجاوزات في اطلاق الأحكام دون تقييد أو تحديد وتأمل هذه المجموعات •

(٤٩) الدلائل ٢٣٠ •

(٥٠) المرجع ٢١٦ (٥١) المرجع ٢١٧ •

(٥٢) راجع الايضاح ٢٢١ وشروح التلخيص ٢٢٣/٢ وتقرير

الامبابي ٨٩/٣ •

١ - تذكر أولى الألباب :

وقد جاء تذكر أولى الألباب بانما مرتين في القرآن الكريم .
 ١ - في قول الله تعالى : « أم من هو قانت آناء الليل ساجدا
 وقائما يحذر الآخرة ويرجو رحمة ربه قل : هل يستوى الذين يعلمون
 والذين لا يعلمون انما يتذكر أولو الألباب » (٥٣) .

فقد ذكر وصف القانت اثر وصف الجاحدين ثم نبه الى شرف العلم
 والعمل به كالقانت المذكور نافيا التسوية بين العالم والجاهل المعاند
 تكريما وتنديما وأتى بالتذييل المقرر اتعاض أصحاب العقول الخالصة من
 شوائب الغفلة بما عدده الآيات السابقات من زواجر لا تتأثر بهما
 قاوب الكافرين لاختلال عقولهم اذ عطلوها عن متابعة الحق ذما لهم
 وتهجيننا .

٢ - جاءت العبارة ثانية بعد ضرب المثل للعلم النافع للمؤمن ذلك
 الذى يصد عنه الكافر « أنزل من السماء ماء فسالت أودية بقدرها
 فاحتمل السيل زبدا رابيا . . . الآية (٥٤) ثم نبه بالاستفهام على نفى
 المساواة بين الموقن بآيات الله وبين الكافر الأعمى « أفمن يعلم أنما
 أنزل اليك من ربك الحق كمن هو أعمى انما يتذكر أولو الألباب الذين
 يوفون بعهود الله ولا ينجضون الميثاق » فقد زكى المؤمنين وجعلهم أولى
 الباب وبصيرة ينتفعون بما أنزل الله من علم ، ثم مدحهم بفضائل عالية
 جيانا لأثر التذكر في قلوبهم وسلوكهم .

وفي الأيتين تعريض بالكافرين المعرضين عن الحق ، وأنهم كمن

(٥٣) الزمر ٦ وراجع في الآية : أبا السعود ٧/٢٤٥ .
 (٥٤) الرعد وراجع فيها الرازى ١٩/٢٨ وأبا السعود ٥/١٦٦ .

أغلق منافذ حسن وفقد قلبه وعقله قال العصام فيها تعريضان بالكفار بأنهم فقدوا الإدراك وتعريض بين يطمع في النظر منهم (٥٥) •

كما جاءت آية الغاشية خطابا للنبي — صلى الله عليه وسلم — « فذكر إنما أنت مذكر لست عليهم بمسيطر » بعدما قدم الله من آياته الكونية مشهدا جايلا « أفلا ينظرون إلى الأبل كيف خلقت وإلى السماء كيف رفعت » (٥٦) الآية والمعنى : فاقصر على التذكير وأعرض عنهم ولا يهمك أعراضهم إنما أنت مذكر لا تملك هدايتهم ولا التسلط عليهم •

وفيه تعريضان : الأول بالنبي الكريم عتابا حانيا ورحمة شغوبا ألا يتأثر قلبه الكبير بما يرى من أعراضهم ، وتعريض بليغ بهم لانصرافهم عن الآيات الالهية المبثوثة في الكون •

والملاحظ أن التعبير الأول سبقه العلم مثبتا ومنفيا في الآيتين الأوليين وأن التعبير الثاني في خطاب النبي سبقه النظر المنفى وهو وسيلة العلم وهو لون من العلم يمكن أن تهتدى اليه الفطرة لو أقبلوا على الايمان وفقهوا عن الرسول الكريم •

تذكر أو أي الأبواب بالنفى والاستثناء :

جاء ذلك في آيتين قال الله تعالى « يؤتى الحكمة من يشاء ومن يؤت الحكمة فقد أوتى خيرا كثيرا وما يذكر الا أولو الأبواب » (٥٧) • وعن موقف الراسخين في العلم من الحكم والمتشابه في القرآن « والراسخون في العلم يقولون آمنا به كل من عند ربنا وما يذكر الا أولو الأبواب » (٥٨) •

• (٥٥) الأطول ١/ ٢٢٩

• (٥٦) الغاشية وراجعه أبا السعود ٩/ ١٥١

• (٥٨) آل عمران ٧

• (٥٧) البقرة ٢٦٩

والحكمة عند الراغب (٥٩) أصحبه الحق بالعلم والعقل ويعينه معجم
 ألفاظ القرآن ونقل الرازي وأبو السعود عن مقاتل أن الحكمة في القرآن
 على أربعة أوجه : مواعظ القرآن كقوله تعالى « وما أنزل عليكم من
 الكتاب والحكمة يعظكم به » وبمعنى الفهم والعلم كقوله تعالى « ولقد
 آتينا لقمان الحكمة » وبمعنى النبوة كقوله تعالى في داود : وآتيناه
 الحكمة وفصل الخطاب ثم القرآن بما فيه من عجائب وأسرار كقوله
 تعالى « ادع الى سبيل ربك بالحكمة » قال الرازي وجميعها ترجع الى
 العلم (٦٠) وأدق منه ما في الكشاف من أنها التوفيق للعلم والعمل به (٦١)
 ونقل أبو حيان عن ابن عطية أقوالا في تفسير الحكمة فوق العشرين
 وكلها - ما عدا النبوة - ترجع الى اتقان العلم والعمل وأوماً ابن عباس
 الى لون من ألوان العلم فقال الحكمة : معرفة ناسخ القرآن ومنسوخه
 ومحكمه ومتشابهه ومقدمه ومؤخره (٦٢) بيد أن هذا في تفسير الحكمة
 الانسانية لأن ثم حكمة ثابتة لله تغاير حكمة البشر وهي - كما قال
 الراغب - معرفة الأشياء وإيجادها على غاية الاحكام .

والحكمة في الآية الكريمة ما يتعلق بالأحكام المبتوثة في تضاعيف
 الآيات السابقة ٢٦١ - ٢٧٩ من الانفاق المخلص وأنه كحبة ذات
 سنابل ، وتمثيل المنفق المنافق بصفوان عليه تراب وعمل المخلص بجنة
 ذات ربوة والمرأى بجنة أصابها اعصار فيه نار فهي حكمة بمعنى
 الفقه والغوص وراء أسرار القرآن وعجائبه وأمثاله الحقيقية التي
 لا يعقلها الا الحكماء (٦٣) الذين يعرفون أن ما في قلوبهم من مغارفه
 يتكشّف بها الغوامض انما هي من عند الله انتقالات الى السبب الحقيقي

(٦٠) الرازي ٧/٦٧ وأبو السعود ١/٦٢

(٦٢) البحر ٢/٢٠

(٥٩) المفردات ١٢٧

(٦١) الكشاف ١/٣٩٦

(٦٣) البصائر ١/٢٧١

وعلى هذا فالتذكر هنا تذكير خاص للون من العلم عال هي الحكمة وهي
بضاعة قوم مخصوصين لهم صفات عقلية ونفسية خاصة .

وفي الآية نرغب في العمل بحكم القرآن وأحكامه وبخاصة
ما يتعلق هنا بقضية الانفاق في سبيل الله ، وفي الآية الثانية جاءت
العبارة مدحا للراسخين في العلم بجودة الذهن وحسن النظر وتوجيه
ذكائهم الى النافع من المعرفة وهو هنا الموقف على المحكم وتمييز
المتشابه في الكتاب العزيز ومنه فسر ابن عباس رضى الله عنهما
الحكمة .

فالتذكر في الآيتين تذكر خاص بالعلماء في الموقف على المحكم
والمتشابه وأمثال القرآن وعلومه وغرائبه وقريب منهما آية العنكبوت
بعد ضرب المثل للذين أشركوا مع أصنامهم ببيت العنكبوت « مثل الذين
اتخذوا من دون الله أولياء كمثل العنكبوت اتخذت بيتا وان أوهن البيوت
لبيت العنكبوت لو كانوا يعلمون » (٦٤) فقل بعد آية « وتلك الأمثال
نضربها للناس وما يعقلها الا العالمون » (٦٥) أو الراسخون في العلم
وعنه — عليه الصلاة والسلام — العالم من عقل عن الله تعالى وعمل
بظاعته واجتنب معصيته » (٦٦) وفي الآية تعريض بالعاقلين .

وعلى هذا فالتذكر اذا جاء اثر آيات كونية أو ضرب مثل منتزع
من الطبيعة المنظورة يروونه أبدا كآية الغاشية والرعد أو ما جاء مقصودا
به الاعتبار والتأثر ثم الاخلاص في العبادة كآية السجدة : انما يؤمن
بآياتنا الذين اذا ذكروا بها خروا سجدا وسبحوا بحمدهم وهم
لا يستكبرون » (٦٧) .

(٦٥) آية ٤٥

(٦٧) السجدة ١٥

(٦٤) آية ٤٤

(٦٦) أبو السعود ٤١/٧

فهو تذكّر عام أو لون منه قريب تقوم به انما وان كان تذكرا
 خاصا عميقا دقيقا عليما جاء بالنفى والاستثناء وتلحظ ذلك في صياغة
 الفعل «يذكر» والادغام مصدر لما عمق منه وعلى هذا فالسياقات
 والمقامات هي التي تحدد طريقة النظم وطبيعة الصياغة كما أن قولهم
 ان تذكر أولى الألباب يجيء بانما لأنه من الوضوح بمكان عار عن
 الدقة لأن للتذكر درجات ومنازل •

كما أن التعريض ليس خاصا بأساليب انما في الحكم الواضح
 بل تتسع دائرته ويشمل عديدا من أساليب النفي والاستثناء وغيره ،
 وهو أمر ذوقى يوميء اليه التركيب •

وحتى اذا أردنا اجراء عباراتهم على الصواب لا بد من تقييدها
 بالقول ن تذكر أولى الألباب من الوضوح بمكان في هذه الآية أو هذا
 السياق والله أعلم •

٢ - استجابة من يسمع :

قال تعالى من سورة الأنعام « وان كان كبر عليك اعراضهم فان
 استطعت أن تبغى نفقا في الأرض أو سلما في السماء فتأتهم بأية
 ولو شاء الله لجمعهم على الهدى فلا تكونن من الجاهلين انما يستجيب
 الذين يسمعون وانوتى يبعثهم الله » (٦٨) والآيتان فيهما هذا الاشفاق
 المحنون من نبي الرحمة - صلى الله عليه وآله وسلم - والعتاب الرقيق
 والتعريض بما ينقل قلبه الكبير من صدهم والطمع في ايمانهم راجعة
 بالهداية والتوفيق الى الله تعالى •

وأنه — صلح الله عليه وسلم — لو حاول المجال فلن يهديهم
السبيل. فلو شله الله لجسمهم على الهدى ثم تصب الآية غضبها وضمها
للمشركين معلة كفرهم بأنهم فقدوا السمع فهم بمنزلة الأموات الذين
لا يسمعون كقوله — انك لا تسمع الموتى — .

وأن هذا جد واضح فيهم وهذا أبلغ في الذم — وهو التعبير بانما
تناسبا مع التعريض والعقاب النبوى .

فقول الامام عبد القاهر « كل عاقل يعلم أنه لا تكون الاستجابة
الا ممن يسمع أو يعقل ما يقال ويدعى اليه وأن من لم يسمع لم يعقل
ولم يستجب » (٦٩) ومن يتبعه كالسكاكى ومدرسته في أن دخول
انما هنا على المعلوم الواضح أفاد التعريض : ينبغى أن يقيد أيضا
بالمقام الذى وردت فيه الآية واقتضاه النسق .

ذلك أن الاستجابة هنا معناها : الايمان ونفى السمع لنفى ثمرته
لأنهم لا يسمعون ما يلقي اليهم سماع فهم وتدبر فهم موتى — كما
عبر الكشاف وأبو السعود (٧٠) .

وانظر حين ينعكس المعنى في آيات قرآنية فيقصر السماع على
المؤمنين كقوله تعالى « انك لا تسمع الموتى ولا تسمع الصم الدعاء اذا
ولوا مدبرين وما أنت بهادى العمى عن ضلالتهم ان تسمع الا من
يؤمن بأيتنا فهم مسلمون » الآيات من سورة النمل (٧١) وجاءت
الآيتان بذات النفى في الزوم بالفاء «فانك» (٧٢) أى ما تسمع سماعا

(٦٩) راجع الدلائل ٢٦٧ والمفتاح ٢٩٥ .

(٧٠) راجع الكشاف ١٦/٢ وأبا السعود ١٢٠/٣ والاستغناء ٣١٧ .

(٧٢) (٧٢) ٥٢٠ — ٥٢٣ .

الآيتان ٨٠ — ٨١ .

يجدى نفعاً إلا من يُسأنهم الايمان أو من علم الله انهم يصدقون أو المشركون لذلك وهذا لا يختلف كثيراً عن آية الأنعام لأن الاستجابة تعني الايمان أى انما يؤمن من يسمع كما أن المقصود المعنى الثانى وهو أنهم موثى (٧٣) •

وعدم تحديد ما سبق وغيره كقضية الانذار عموماً أو انذار من يخشى التى سبقت انما هو راجع الى عدم استقصاء الأساليب وهى فكرة منهجية شاعت الدعوة اليها بقوة فى العصر الحديث وان وجدت — كما أسلفت — أحياناً فى كتب التراث •

انما فى الأمر والخفى :

وقد تأتى انما فى الأغراض التى يأتى اها النفى والاستثناء بمعنى أن يكون الأمر — من شأنه — الانكار والجدل أو يكون خفياً ، أو غيباً مثيراً مكتوناً ، أو تأكيد أثر من آثار الصفات الحسنى • أو اثبات المنبوة أو مظاهرها ، والفرق أن التسييق — بانما — هادى ونبرة الكلام خفيفة وظلال المعانى ناعمة دلالة — على أن هذه الأمور واضحة فى ذاتها ، بينة عند العقلاء وان خفاءها عند المجادل الأشر والمنكر البطر حال طارئة ، دعوة الى التأمل المترىث والخطر المعتر ، اذ لا ينبغى أن تكون موضع انكار •

تأمل قول الله تعالى « انما المسيح عيسى بن مريم رسول الله وكلمته ألقاها الى مريم وروح منه فآمنوا بالله ورسوله ، ولا تقولوا : ثلاثة : انتهوا خيراً لكم ، انما الله واحد سبحانه أن يكون له ولد له ما فى السموات وما فى الأرض وكفى بالله وكيلاً » (٧٤) •

(٧٣) راجع الكشاف ١٥٩/٣ والبحر ٩٦/٧ وأبنا السعود ٣٠٠/٦ •

(٧٤) النساء ١٧١

وقد سبق أن فكرة ألوهية عيسى جاءت في آيات المائدة ٥٣-٧٥
 بأساليب ترتجف غضبا وهولا بقصرين « وما من اله الا اله واحد »
 « ما المسيح بن مريم الا رسول قد خلت من قبله الرسل وأمه صديقة
 كانا يأكلان الطعام : فتوالت في الأول أدوات التأكيد للنفي والعموم
 والوصف والثاني كان المقصور « المسيح بن مريم » مشتملا على قصر
 أسلوبى غير اصطلاحى فهو ابن مريم لا ابن الله تعالى الله • ثم عقب
 بكناية خارقة من أكل الطعام وما يتبعه ضعفا وعجزا واحتياجا بشريا
 بعيدا عن كمال الآله •

أما في آية النساء فهنا الهدوء واثارة التأمل ، وتجاوز مع النفس
 والعقل وتلويح الأسلوب بين قصرين طال فيهما المقصور عليه طولا
 مستوعبا مستقصيا مثيرا مقنعا ، وبين أمر مؤكد بنهى وإيجاز جامع :
 لا تقولوا ثلاثة : أى الآلهة ثلاثة أو الله ثلاثة : انتهوا : عن القول
 بالتثليث وأنتوا خيرا اكم دعوة الى الايمان والتوحيد ونصحا صادقا
 ثم ختم الآية بهذا التنزيه المتعالى عن الولد والتسبيح المجيد ثم أقام
 الدليل بأنه ماك الكون كله بآياته الماثوثة المحيطة يحفظها بقدرته وفي
 الأسلوب تناسم وترقى واستعلاء على ترهاتهم ، ومثله قوله تعالى
 « قل انما العظم عند الله وانما أنا نذير مبين » (٧٥) •

« انما أنت منذر » (٧٦) ، « انما أنا لكم نذير مبين » (٧٧) على

لسان النبى - صلى الله عليه وسلم - •

وقال على لسان قارون « انما أوتيته على علم عندى » (٧٨)
 وانظر كيف يصور الأسلوب الصلاقة وانتفاخ الصدر وبطء المقاطع وتأتأة

(٧٦) الرعد ٧

(٧٨) القصص ٧٨

(٧٥) الملك ٢٦

(٧٧) الحج ٤٩

المتكبر وعللته وایجاز ما یعد صریحا خطیرا بالتعبیر الحدیث فی الزمن الحدیث دلالة وضوحه وسطوعه وعدم طریق لنقش •

وقال تعالی عن ابعاد المشركین عن بیته الحرام « انما المشركون نجس » (٧٩) وقال جبریل مزیلا هو اجس مریم واضطرابها العذری « انما انا رسول ربك » (٨٠) فهذا واضح فی نور جهة وطريقة دخولها محرابها •

وتأمل أخیرا قول السحرة وقد آمنوا برب هارون وموسى لفرعون لما أردد وتوعد بنمزيقهم وتصلیهم والتمثیل بهم قالوا ، « لن نؤثرک علی ما جاءنا من الیینات — والذي فطرنا — فاقض ما أنت قاض ، انما تقضى هذه الحیة الدنیا انا آمننا بربنا لیغفر لنا خطایانا وما أكرهتنا علیه من السحر والله خیر وأبقى » (٨١) •

انهم بعد أن ذاقوا حلاوة الايمان وسكنت ریح القلق الکافر وجاءت نسمات الايمان الصادق استعذبوا العذاب وهان علیهم فرعون وتهديده وما فرعون الزائل التافه بجانب الخلد الباقي ان الثقة الكاملة بالله هی التي أنطقتهم بهذه الكلمات الخوالد وقد قصدوا تحکم فرعون علی امن الدنیا وتذوق الاشارة والوصف « هذه الحیة الدنیا » تجد الايماء الی کل عيوبها قلة وحقارة ومتاعا زائلا ونصبا ملازما فقد قصره علی الدنیا تلك دون الآخرة ، ولم یکن فرعون یبالی بدنیا أو أخرى ، وما كان یدور فی خلدہ بعث ولا جزاء لكن لما كان استبداء طاغیا نزل منزلة من ظن أنه یملك الدنیا والآخرة دون عقاب من خالقه • ملك الناس الہ الناس •

(٧٩) التوبة ٢٨ •

(٨٠) مریم ١٩ (٨١) طه ٧٢ - ٧٣ •

٨٠٦ • طبعة تحفہ دار الفکر (١٩٩٠)

وتأمل بعد قوله تعالى عن الساعة «فانما هي زجرة واحدة» (٨٢) وقوله « وما أمر الساعة الا كلمح البصر أو هو أقرب » (٨٣) والمثير أن تجد شدة الأيجاز بأسلوب انما الواضح بالاضافة الى الأيجاز المبسوط في أسلوب النفي الشديد الهائل فالضدان يلتزمان في القرآن على وجه خارق بديع البيان .

صفوة القول :

أن انما تأتي في الأمر الواضح الجلي في نفسه وان كان خافيا عند المخاطب أو المتلقى ومن هنا كان القصر أساسا ، وقد تكون في النفي أو المنكر المنزل منزلة الواضح لما يحققه من قرائن وأدلة (٨٤) .

وأن التعريض ليس خاصا بانها ولا انما خاصة بالتعريض في القسم الأول .

فقد يفيد النفي أيضا التعريض : كما يفيد أسلوب انما الكناية .

وقد يتوارد النفي وانما على معنى واحد ويقتضى المقام والسياق العام والخاص طريقا دون سواء ولا يمكن أن يحل محله لاختلافهما ايقاعا ودلالة ، وصياغة وقوة ووجهة خاصة من الأغراض والمعاني .

الحياة الدنيا وأساليب القصر والتشبيه :

والموازنة هنا خاصة بالحياة الدنيا وزوالها السريع . ومتاعها القليل وهي فكرة أو قضية قدمها القرآن في معارض عديدة من الألوان البلاغية :

(٨٢) النزعات ١٣ (٨٣) النحل ٧٧ .

(٨٤) راجع حاشية عبد الحكيم ٣٠٨ .

وجاء في معرض انما والتشبيه في ثلاث آيات :

آية يونس ٢٤ : « وانما مثل الحياة الدنيا كماء أنزلناه من السماء فاختلط به نبات الأرض مما يأكل الناس والأنعام حتى إذا أخذت الأرض زخرفها وازينت وظن أهلها أنهم قادرون عليها أتاها أمرنا ليلاً أو نهاراً فجعلناها حصيداً كأن لم تغن بالأمسى كذلك نفصل الآيات لِقَوْمٍ يُتَفَكَّرُونَ » .

وآية الحديد ٢٠ : « اعلموا أنما الحياة الدنيا لعب ولهو وزينة وتفاخر بينكم . وتكاثر في الأموال والأولاد كمثل غيث أعجب الكفار نباته ثم يهيج فتراه مصفراً ثم يكون حطاماً وفي الآخرة عذاب شديد ومغفرة من الله ورضوان وما الحياة الدنيا الا متاع الغرور » .

ومادة التشبيه من دنيا الزرع المنظور الذي تقلب في أطوار خضرة يانعة فارعة ومبهجة آخذة ممرعة يعقبها صفرة شاحبة وجففة حسير وزوال كئيب كما نلاحظ في الصورتين :

١ - أوجز في جانب المشبه في الآية الأولى وكذلك في بعض أطوار الزرع في المشبه به وان أطال فيما يعجب منه مشهدا وأثرآ حين تأخذ الأرض زينتها فترتدى قشيب أثوابها مزركشة الألوان والأضواء فائضة النماء والخيرات حتى يظن الناس أنهم مسيطرون عليها قادرون على استلاب خيرها والتحكم في أقدارها وهي اطالة مقصودة لأنها أهم ما في الدنيا حين تقبل وانعكاس ذلك على قلوب أهلها طمعا وعثوا .

ثم ان التسلسل في أحوال الزرع والدنيا محكوم بقوانين الهية توجب امتثالا في العكس والتجريب والافادة من المفيد حكما وعلميا ودلائل على المؤثر .

ولذا أتى في الآية بـمثل « وهو الصفة الغريبة العجيبة ، وبإدراة

التشبيه «الكاف» التي تفيد شيئاً من التقارب بين الطرفين مسبوقه بأنما
اعلاما بالوضوح في الحكمة من التمثيل و إذا كن التصوير بالزرع المشاهد
أبداً متلائماً مع هذا البيان • وهو تصوير ودلالة تامة على زوال الدنيا
عظة وعبرة وتوجيهها للدنيا الى الخير اقتبالاً للثواب والرضا •

أما آية الحديد فقد رتبت فيها أحوال الدنيا خمس مراحل زمنية
وقصر عليها الحياة الدنيا بمعنى قصر الدنيا على أحوالها المتعاقبة
التي تمثل مراحل زمنية متوالية •

ثم شبه كل ذلك بهيئة النبات في أطواره المتعاقبة المتغيرة ، المتدرجة
بما يقابل حالات المشبه مع توزيع الزمن بدقة متناهية بما تفيد الفناء
والمكررة من دلالة خاصة بمعنى أن فترة الاخضرار المعجب تستغرق
زمناً وكذلك فترة الاصفرار وهي تقابل اللهب والزينة ثم التكاثر واكتفى
بالواو في جانب المشبه انكاء على التفصيل الأزمنى في المشبه لأنه مرتبط
باللون متطور مراقب أبداً •

وقد أخبر بالمصادر عن الدنيا مبالغة وتصويراً فلدينا ذات اللهب
واللعب وما بعدهما كما رشح الفعل : اعلموا والتشبيه بالزرع بالوضوح
في الأسلوب والأثر والعبرة والترغيب والترهيب • كما أن الآيتين في
سياق هادىء نسبياً يذكرهم في آية يونس رحمة الله التي تسير بهم
الفلك وتنجيهم من غوائل البحر حين يدعون مخلصين وتعقب ذلك كله
بعد أسلوب القصر • بالدعوة — في الاسلام — الى دار السلام :
الآيات ٢٢ — ٢٥ •

وقد ناسب ذلك البسط والتمهل في العرض وفي آية الحديد
الخطاب مع مؤمنين تربية وتوجيها بعد ذكر طوائف منهم هم المتصدقون
والصديقون والشهداء ومقابلوهم من الكافر تصويراً بالطباق في ايجاز
وذكر الدنيا هنا لأن سورة الحديد ركزت على غرضين أساسيين :

الإيمان بالله الواحد والانفاق في سبيله ولما كانت الدنيا قد تمثلت عائقا في بعض الأحيان كشفها التشبيه عن حقيقة زائلة لها أثرها في الأعمال والجزاء • وفي الانفاق أيضا جاءت آية سورة القيل « اعلموا أنما الحياة الدنيا لعب ولهو وإن تؤمنوا وتتقوا يؤتكم أجوركم ولا يسألكم أموالكم » تعالج التكالب على الدنيا الفلانية واليخل بها عن الانفاق كسلوك إيماني • والخطاب أيضا مع المؤمنين •

أها لساليب النفي والاستثناء :

فقد جاء بها قصر الدنيا على اللعب واللهو في قوله تعالى من سورة الأنعام ٣٢ « وما الحياة الدنيا الا لعب ولهو وللدار الآخرة خير للذين يتقون أفلا تعقلون » وجاء في سورة العنكبوت « ولئن سألتهم من نزل من السماء ماء فأحيا به الأرض من بعد موتها ليقولن اللهم قل الحمد لله بل اكثرهم لا يعقلون ، وما هذه الحياة الدنيا الا لهو ولعب وإن الدار الآخرة لهي الحيوان لو كانوا يعلمون » ٦٣ - ٦٤ •

واللعب مقدم في آية الأنعام على اللهو ترتيبا طبيعيا وزمنا لأن اللعب زمن الصبا ، واللهو زمن الشباب أما آية العنكبوت فانها تعقد موازنة بين حياة الدنيا (٨٥) •

واللهو زمن الشباب وهو أطول زمنا وأحب الى النفس وفيه مرح القلوب وبهجة الحياة فقدمه لذلك صدقا في الموازنة بين الدنيا وبين أعجب وأحب مراحلها وبين حياة هي الحياة الحقيقية لا زمان لها ينتهي ولا لغة تصف حقيقة النعيم فيها لأن شبابها وشباب النعمين له طعم

(٨٥) راجع أسرار التكرار للكرمانى ٦٨ - ٦٩ •

خاص ودوام أبدى وهذا معنى المبالغة : « لهى الحيوان » قصرا آخر
 للصفة البليغة فى الحياة على الآخرة دون الأولى والنسق فى الآية يسخر
 من عقولهم التى تعترف بالله ربا خالقا ولا يتخذة معبودا ووليا وكذلك
 آية الأنعام جاءت بعد سياق شديد يواجه الذين كفروا وكذبوا بلقاء
 الله ويحقق أن وراء الدنيا حياة أخرى ياقون فيها خطوبا وأهوالا ثم
 يعقد موازنة فاصلة بين الأولى وبين الآخرة •

وقد نزل الكافرون فى الآيتين منزلة من ينكر أن الدنيا لعب ولهو
 فكان الأسلوب الخاص بالنفى والاستثناء مع الإيجاز المركز والمبالغة
 بالأخبار بالمصادر تذكرة قوية تجاذبها الترغيب والترهيب •

والله اعلم بالصواب

المصدر: تفسير القرآن العظيم، ج ١، ص ١٠٠

والله اعلم بالصواب

والله اعلم بالصواب

موازنات بين طرق القصر

يدل الاستثناء وإنما والعطف على القصر وضعا ، بينما يدل التقديم على القصر بالمفهوم والفحوى ثم ان النفي بلا عاطفة يمكن أن يجتمع مع انما والتقديم دون النفي والاستثناء (١) .

تقول : انما أنا شاعر لا كاتب ، وذلك جائز لأنه توقفت دلالتا القصرين مع وضوح المعنى وتعيين المقصور عليه فيهما ، اذ هو في انما المؤخر (شاعر) وفي العطف بلا هو المقابل لما بعد الا وهو شاعر ففيه تأكيد مضاعف .

أما اجتماع انما مع التقديم فهما متدافعان في موضع المقصور عليه لانه في التقديم هو المقدم وفي انما المؤخر ، فاذا كان التقديم بالخبر نحو قوله تعالى « انما عليك البلاغ وعلينا الحساب » (٢) افيد القصر من انما واما دلالة التقديم فهي ملغاة كما تبطل في النفي والاستثناء في قولك ما عليك الا البلاغ وقال تعالى « ان عليك الا البلاغ » والتقديم لغرض آخر دون القصر كالاهتمام وتحديد المهمة وتقديم ضميره للانتباه والحكم الخاص عليه وفي جملة العطف من الآية « وعلينا الحساب » ان عطف على ما بعد انما كان الحساب مقصورا عليه وهو رأي عبد القاهر ، وان عطف على جملة القصر بانما (انما عليك البلاغ) كان المقصور عليه (علينا) وبه قال الزمخشري وهو الظاهر من المنطوق والسياق أى الحساب علينا لا عليك ولو أريدت دلاله التقديم في جملة القصر اكان المعنى : ما البلاغ الا عليك لا على غيرك وهو غير مراد . (٣)

(١) راجع الايضاح ٢١٨ وتقرير الامبابى ٣/٧٥ .
 (٢) الرعد ٤٠ .
 (٣) راجع الدلائل ٢٣٤ والكشاف ٢/٣٦٣ والشهاب ٥/٢٤٧ .

هذا ما قاله المتأخرون في تقديم الخبر ، ويبدو أنه غير مطرد ففي الآية الكريمة : « فان تولوا فانما عليه ما حمل وعليكم ما حمتم وان تطيعوه تهتدوا وما على الرسول الا البلاغ المبين » (٤) وقوله ما حمل يعنى ما كلف به من التبليغ والمصابرة وقوة التحمل ومقابلة الأذى بالخير وذكر (ما حمل) بمعنى ما كلف للمشاكله مع حملتم وقد قصر التحميل بهذا المعنى عليه - صلى الله عليه وسلم - دونهم ، وقصر التحميل الثانى أى العمل الخاص بهم عليهم دونه فالمقصود عليه فيهما هو المقدم « عليه - أيكم » والأدق هو الضمير المجرور المقدم : وعلى هذا فالآية من تقديم الخبر وقد ألفت دلالة انما على القصر فهي هنا مجرد التأكيد لا لا قصر ، ويمكن القول بأن تقديم الخبر على المبتدأ مع انما حسب المقام والقرائن أن أفاد القصر ألفت انما والا بقتت دلالتها والتي هذا قد يرمى ، قول الدسوقي في اجمال محل تأخير المقصور عنه في انما حيث استفيد القصر منها ، ولم يعرض عارضه لتقديمه (٥) وآية النور تشبهه في المعنى هذه الآية « لكم دينكم ولي دين » .

فاذا اجتمعت انما مع التقديم بالمفعول به والمعروف أن القصر يفهم منه بالذوق السليم وهذا أدخل في البلاغة ثم هو لا يحتاج الى تأويل - كما نقل الامباي - (٦) ألفت دلالة انما على القصر وبقيت دالة على التوكيد ، كما تبقى دلالة التقديم على القصر فقولك انما زيدا أكرمت يدل ذوقا وفحوى على أن زيدا هو المقصور عليه في التقديم ،

(٤) النور ٥٤ .

(٥) راجع حاشية الدسوقي ومواهب الفتاح ٢٣٢/٢ وحاشية

الشهاب ٣٩٦/٦

(٦) راجع الامباي ٧٧/٣

ولو أعملنا انما من حيث افادة القصر لكان المقصور عليه (أكرمت)
 فهما متدافعان فتعتمد دلالة التقديم دون انما من حيث افادة القصر
 لكان المقصور عليه (أكرمت) فهما متدافعان فتعتمد دلالة التقديم دون
 انما اذ المعنى قصر الاكرام على زيد دون سواه ، وهذا يدرك بالذوق
 والحس البلاغى ، ومنه قول المتنبى وقد ذكر نسب المدوح اسمه واسم
 أبيه وجده مما يدخل تحت الاطراد فى البديع ، وقد يوهم ذلك أنه غير
 معروف فيعرفه وهذا فادح فى الملاح فقال محترسا :

أساميا لم تزده معـرفه وانما لذة ذك رناها

وهو قصر قلب للذكر على التلذذ والتغنى بها دون تعريفه ، ويبدو
 أن هذا من حساسية المتنبى فالممدوح كان شهيرا وهذا الأسلوب ورد فى
 شعر الشعراء قبله بل فى حديث النبى — صلى الله عليه وسلم — : عن
 يوسف عليه السلام مما سمي بالاطراد فى البديع (٧) • ثم ان النفى
 فى انما ضمنى يفهم من التركيب ولذا جاز اجتماعها مع النفى بلا
 العاطفة حينئذ لا يضيف فائدة والمعروف أن القصر فى الوصف الظاهر
 الاختصاص تنزىلى فينزل المخاطب منزلة المنكر أو الجاهل بالحكم
 ليتأتى القصر أساسا ، وواضح أن قولنا : انما زيد عالم لا يحسن أن
 يقال : لا جاهل لأنه لا حاجة لاجتماع قصرين فى أمر واضح هكذا •

وفى قول الله تعالى : « انما يستجيب الذين يسمعون » فانه يمتنع
 أن يقال : (لا الذين لا يسمعون) لأنه من الواضح فى المعنى الأولى
 ونزيد بأنه مستحيل لان فى التعريض يلتقى بالرمز واللحم أولا ثم هذا
 القول (لا الذين لا يسمعون) فيه صرف عن ارادة المعنى الثانى المراد
 وهو أنهم صم لا يؤمنون : وقد مر •

بخلاف قولك : انما يقوم محمد لا على • اذ القيام ليس خاصا
بمحمد ، وقال عبد القاهر لا يحسن ويجوز « (٨) ويعنى بالجواز
الصحة اللغوية وكفى بنفيه الحسن فهو نفي للبلاغة من أساسها •
نقيا للجواز البلاغى من باب أولى على أن بعضهم قال : يجوز
عند زيادة التحقيق لغرض بلاغى ، ولست ميالا لذلك لأننا نتحدث عن
بلاغة العرب لا بلاغة الانباط والعجم •

موقع المقصور عليه فى انما

والمقصور عايه — بعد انما — هو الجزء الأخير عمدة — بالتعبير
النحوى — أو غضلة مفردا — له موقع أعرابى — أو متعددا كالموصوف
مع صفته والحال المتداخلة •

شبه جملة أو جملة أو جملا — مما مر تحليله قالوا : المقصور
مقدم طبعا فقدم وضعاً • ولما كانت — الا — قرينة على المقصور
عليه بعد الا فى الاستثناء جعلوا تأخيره بعد انما دليلا عليه خوف
اللبس وهذا هو المشهور عند العلماء •

وقد رأى بعضهم ومنهم أبو اسحق الزجاج — فيما نقل عنه بهاء
الدين السبكى أن المحصور لا يتعين أن يكون هو المؤخر ، بل قد يكون
غيره ، بالقرينة ، ثم أورد السبكى شواهد تدعم رأى الزجاج • وهى
عديدة — ثم انه لم يؤولها ، وقد يفهم من كلامه أنه على رأى الزجاج —
ويبدو أنه كان لموقف شيخه أبى حيان من انما وتردده فى القول بافادتها
الحصر من أساسه مع نقله المتكرر عنه فى عروس الأفراح يبدو أن لذلك
أثرا فى موقفه هنا — غير المحدد ، ثم ان الامبأبى اقتصر على ايراد
هذه الشواهد دون نقاش • (٩)

(٨) الدلائل ٢٣٨ •

(٩) راجع عروس الأفراح ٢٩٣/٢ والامبأبى ٩٣/٣ •

وقد سبق ان دلالة انما على القصر تلغى اذا اجتمعت في أسلوب مع التقديم بالفعل وقد احتاط ابن يعقوب المغربي والدسوقي بالتقييد فقالوا : يؤخر المقصور عليه بعد انما اذا استفيد القصر منها فقط ، ولم يعرض عارض لتقديم المقصور عليه • ونقل عبد الحكيم عن الشريفى في شرح المفتاح انه اذا لم يذكر مع الفعل شىء من متعلقاته نحو : انما قمت جاز انفصال الضمير أى انما قام أنا ، نظرا الى المعنى والاتصال ، نظرا الى اللفظ ونقل الدسوقي يجب الانفصال : اذا أريد الحصر فى الفاعل ، فاذا عرض عارض لتقديمه ، كما اذا أريد قصر الفاعل على الفعل فلا يصح تقديم انفاعل عليه — اذ لو قدم لن يبقى فاعلا • ويبقى على ما هو عليه نحو : انما قمت أى لا خرجت وهذا هو المراد بقولهم اذا لم يعرض عارض لتقديمه • (١٠)

مع الامام بهاء الدين السبكي فى شواهد

يرى السبكي أن من تقديم المقصور عليه قولك : انما قمت اذ لو قصد قصر الفعل على الفاعل لانفصل الضمير وقيل انما قام أنا تياسا على ما قام الا أنا •

وقد سبق تفصيل ذلك والرد عليه ثم أورد السبكي مجموعة من الشواهد القرآنية وحديثا نبويا يبدو من ظاهرها تقديم المقصور عليه بعد انما : وهاك الشواهد والرد عليها :

١ — قول الله تعالى « أو تقولوا انما اشرك آباؤنا من قبل » (١١) وقوله تعالى على لسان هارون عليه السلام لعابدى العجل « يا قوم انما فتنتم به » (١٢) ومنه حديث النبى صلى الله عليه وسلم « انما

(١٠) راجع عبد الحكيم ٣٠٥ والمغربى والدسوقي فى الشروح ٢/٣٢٢.

وتقرير الامبابى ٣/٩٣ •

(١٢) طه ٩٠ •

(١١) الأعراف ١٧٣

يأكل آل محمد من هذا المال ليس لهم فيه الا المأكل » والمعنى في ذلك :
 قصر الآباء على الاشرار وقصر اليهود على الفتنة والشر دون الخير،
 وقصر المال على الأكل دون سواه .

أما الآية : « انما فتنتم » كالتعبير انما قمت في أنه عرض عارض
 لتقديمه اذ لو قدم الفاعل لما بقى فاعلا ورأى ثان في الرد عليه هو
 ما رآه الأمام أبو السعود في مثل هذه التعبيرات التي يقتضى المقام
 للحصر في الفعل وهو مقدم نحو : انما أتبع ما يوحى الى من ربى —
 انما فتنتم به — أى امتحنتم به : بحل الفعل الى فعل مطلق وقيد له
 ضرورة اشتغال الأفعال المخصوصة — لا العامة — على ذلك ففى نصر
 مثلا : فعل النصر بقصر الأول ويكون منفيا على قيده المثبت : أى قصر
 العقل على اتباع الوحي دون غيره .

وفى : انما فتنتم : أى لم يقع الا فتنتكم ، وفى قوله « انما أشرك
 آباؤنا : أى لم يقع منهم الا الاشرار وعلى هذا يحمل الحديث النبوى

وفى أساليب الفتنة فى القرآن الكريم نجد ما يؤيد رأى أبى
 السعود رحمه الله . من ذلك قول الله لموسى « انا قد فتنا قومك من بعدك
 وأضلهم السامرى » (١٣) : أى وقعت بهم الفتنة والضلال ، كما جاء
 على لسان الملكين ببابل « وما يعلمان من أحد حتى يقولوا انما نحن
 فتنة » (١٤) : يقصرهم على الفتنة دون الخير ، ولما لم يوجد عارض
 يمنع التقديم هنا اذ الجملة اسمية قدم فيها المسند اليه بينما الجملة
 الفعلية (فتنتم) يمتنع فيها تقديم الفاعل صناعة .

— وقال تعالى « اذا قضى أمرا فانما يقول له كن فيكون » (١٥)

مما أورده السبكي • والمراد : لم يقع الا قول كن ، ومثلها آية النحل
 « انما قولنا لشيء اذا أردناه أن نقول له كن فيكون » (١٦) : فهو
 قصر القول العام على قول كن والمعنى : انما ايجادنا لشيء عند تعلق
 مشيئتنا به أن نوجده في أسرع ما يكون ، والمنفى (١٧) ما أوماً اليه
 الطبرى وهو المعاناة والكلفة •

وقد وجدت من قصر المطلق في الفعل على قيده أو معناه ما يماثل
 هذه الأساليب في قوله تعالى « ولا تحسبن الله غافلاً عما يعمل الظالمون
 انما يؤخرهم ليوم تشخص فيه الأبصار » (١٨) فإسلوب القصر تعليق
 للنهي والخطاب على الأرجح ليس خاصاً بالنبي الكريم بل للعموم تسلياً
 للمظلومين وتهديداً للظالمين •

والمنفى في انقصر هو التعجيل ذلك أن التأخير مد وأمهال تشديداً
 وتغليظاً ، وإيقاع التأخير عليهم « يؤخرهم » مع أن المؤخر هو عذابهم
 لتحويل الخطب فهم مرصودون للعذاب وهم بذواتهم عنوان العذاب
 كأنهم الوقود وما يوقد عليه وإبيان أن التأخير قهري لهم لا اختيار
 لهم فيه فمن حقهم الاستئصال •

والمعنى المراد ، ما يقع الا تأخير جزائهم الرهيب المناسب لظلمهم
 والأسلوب أيضاً متلائم مع الآيات القرآنية بشأن الظالمين ومع الحديث
 المشهور « ان الله ليملى للظالم حتى اذا أخذه ام يفلته » •

ولعلك تلحظ farkاً بين رأى البلاغيين كعبد الحكيم والمغربي
 والدسوقي في تقديم المقصور عليه وهو الفعل العارض وبين رأى أبى
 السعود في تأويله المعروف اذ المقصور عليه عنده مؤخر لا مقدم •

(١٦) الآية ٤٠ النحل

(١٧) راجع الطبرى ٧٣/١٤ وأبا السعود ١١٥/٥ والشهاب ٣٣٢/٥٤

(١٨) الآية ٤٧ إبراهيم

والألوسى ١٤٣/١٤

كالرأى الأول الذي يؤول : انما قمت بقصر الفاعل أى لا خرجت
بالقصر على القيام دون الخروج • وهو غير مباين أو متقارب مع رأى
أبى السعود أى ما وقع إلا القيام منى لا الخروج •

كما اعترض البهاء بالآية على لسان قوم نوح « فأتنا بما تعدنا ان
كنت من الصادقين قال : انما يأتيكم به الله ان شاء » (١٨) فقول البهاء:
ان مداول العبارة ليس على القصر بل على النفى أى ما يأتيكم به الله
بدليل أنه جواب لقولهم فأتنا بما تعدنا » (١٩) •

وهو هنا ينفى عن انما افادتها القصر من أساسه في هذه الآية
وقد خالف بذلك أئمة التفسير قال الكشاف « أى ليس الاتيان بالعذاب
الى انما هو الى من كفرتم به وعصيتموه ان اقتضت حكمته » (٢٠) بل
ان شيخه أبا حيان أتى هنا بما يوافق طبعه ويخالف ترده في افادة
انما القصر فقال موضحا دلالة القصر في الأسلوب ومشيرا الى المقصور
عليه « انما يأتيكم به الله : أى ليس ذلك الى انما هو للاله الذى
يعاقبكم عن عصيانكم ان شاء أى ان اقتضت حكمته » (٢١) وبمثل ذلك
قال تلميذه تاج الدين الحنفى في الدر اللقيط (٢٢) ولا تحسبن أن أبا
حيان نقل عن الكشاف نقلا دون اعمال فكر ، فالظاهر من البحر المحيط
أنه كان واقفا بالمرصاد للزمخشرى لا في اعتزاله فحسب بل فيما أورده
من قضايا النحو والاعراب وتغير المعنى بتغير الاعراب وتزييف عديد
ما أورده حتى في شئون البلاغة وقد كان يبلغ به الغضب أحيانا ان
يرميه بالعجمة ، وحين تجد أئمة أو عقولا كبيرة في مجال الانتقاد
وتصحيح المفاهيم لن تجد فضولا من القول أو حشوا في العبارة أو
سهوا في النقل بل دقة متناهية وهذا لا يعنى رفضه لأقوال الكشاف على

(٢٠) عروس ٢٣٣/٢ •

(١٩) هود ٢٣ •

(٢٢، ٢١) البحر ٢١٧/٥ ، ٢١٩ •

(٢١) الكشاف ٣١٩/٥ •

العموم كلا انه يوافقه فيما يذكره وقد يشيد به الا ما خالف عقيدة
 لأهل السنة ، أو مذهبا نحويا ، أو معنى بلاغيا متبادرا ولا تحسبن أن
 أبا حيان كان كأحد النحاة الذى وضع نفسه فى دائرة النحو فاطبقت
 عليه فاذا ما سما الى أفق البلاغة أعياء المطير فافتى بغير ذوق وهم من
 عنى ابن الأثير فى مثله السائر بل كان أثير الدين أبو حيان اماما فى
 التفسير وغريب القرآن والحديث واللغة والأدب وكان أديبا مترسلا
 له موهبته وذوقه من هؤلاء الذين كانت عندهم علوم اللغة كلا متواصل
 الأجزاء غير متمزق الأتلاء ، وهذا يحتاج بحثا ضافيا مستقصيا تبين مناهج
 هؤلاء الاعلام كآبى حيان والرازى والبيضاوى والشهاب بحثا حرا
 متأنيا يقوم به الشيوخ من علمائنا لا الشباب الذى يستعجلون الثمر
 قبل ينعه كما يرى المنصفون •

ونعود الى السبكى وآية نوح عليه السلام « فذكر أبو السعود
 ما ذكره الزمخشري وزاد أن فيه تهويلا فكأنه قيل الاتيان بالعذاب
 أمر خارج عن دائرة القوى البشرية وانما يفعله الله عز وجل ، وعلى
 هذا فقول السبكى انه نفى أى ما يأتيكم به الله انما هو عكس ما تدل
 عليه الآيات من تهديده لهم وقد صدق الله وعيده فأتاهم بالطوفان يطم
 وجه الأرض فلم يبق منهم ديارا وأشرق الشمس لأول مرة منذ آدم
 على بشر — فى الأرض — كلهم مؤمنون •

— وقال السبكى رحمه الله تعالى :

إذا كان المقصور عليه بعد انما هو المؤخر ، فان هذا المؤخر غير
 متعين • ويعنى اذا تعددت المتعلقات ففى قوله تعالى « انما يريدنا
 الشيطان أن يوقع بينكم العداوة والبغضاء فى الخمر والميسر ويصدكم
 عن ذكر الله وعن الصلاة » (٢٣) فليس المقصور عليه بوقع ولا العداوة
 والبغضاء ، بل الخمر والميسر •

ومن الواضح أنه إذا كثرت المتعلقات فان القرائن هي التي تعين المقصور عليه المثبت محل النزاع والانكار وتأمل قول الله تعالى عن المنافقين « فلا تعجبك أموالهم ولا أولادهم إنما يريد الله ليعذبهم بها في الدنيا وترزق أنفسهم وهم كافرون » (٢٤)

وقال تعالى : « إنما يوفى الصابرون أجرهم بغير حساب » (٢٥) فالمقصود عايه في الأولى التعذيب لا التنعيم بما كابدوا من جمع الأموال وحفظ الأولاد (٢٦) وفي الثانية المقصور عليه بغير حساب لأنه الملازم لتكريم الصابرين •

وفي قول الله تعالى « إنما أمرت أن أعبد رب هذه البلدة » (٢٧) يوى الرازى وتبعه الأوسى أن المقصور عليه « رب هذه البلدة » ويرى أبو السعود أنه « العبادة » ويؤيده من دلالاته العبادة كما هنا وجملة العطف تأكيد لمفهوم الجملة الأولى أعنى تأكيد للأمنفى فيها واذن هتديد المقصور عليه حين تكرر المتعلقات أمر مرهون بالسياق والمقام في ضوء الدلالة القرآنية • (٢٩)

وفي هذا الصدد أيضا سبق ما ذكره الشهاب من أن الزمخشري قاس أنما بالفتح على انما بالكسر ثم وضع أنه جاء من أساليب أنما بالفتح ما لا يحتمله كقوله تعالى « وظن داود أنما فتناه » واتكأ على تأويل الكشاف الذى لا يظهر فيه القول بالحصص « ابتليناه لا محاله » وقد وضحنا ذلك ورد أبى السعود وتأويلاه « فعلنا به الفتنة لا غير » (٣٠)

(٢٥) الزهر ١٠ •

(٢٤) التوبة ٥٥

(٢٦) راجع أبى السعود ٧٤/٤

(٢٨) الجن ٢٠ •

(٢٧) النمل ٩١

(٢٩) وراجع الرازى ٢٠٨/١٥ وأبى السعود ٢٤/٥ والأوسى ١٦٦/١٣

(٣٠) راجع الكشاف ٣٧١/٣ وحاشية الشهاب ٢٧٩/٦ وتفسير

أبى السعود ٧/٢٢٢ •

وصفة القول أن انما للقصر وأن المقصور عليه هو المؤخر أبداً
 إلا اذا عرض عارض في الصياغة، ولا تلغى دلالتها على القصر إلا
 اذا أفيد بطريق أقوى وهو التقديم بالمفعول فتبقى دالة على التأكيد
 للقصر، كضمير الفصل حين يأتي مع تعريف الطرفين مؤكداً للحصر •

الطريق الثالث العطف

وهو العطف بلا وبل ولكن، ويشترط تقديم النفي في لكن وبل
 تقول ما جاء زيد بل على أو لكن على وقالوا: أن بل اذا وقعت في حيز
 نفي أو نهى قررت حكم ما قبلها ونقلت ضده الى ما بعدها فاذا قلت:
 ما زيد قائماً بل قاعد، فيه تقرير للحكم السابق، وهو نفي القيام
 عن زيد واثبات ضده وهو القعود له، فاذا وقعت بل وأكن في حيز الأمر
 أو الأثبات أو كان المعطوف عليه في حكم المسكوت عنه لا تفيد القصر،
 اذ المهم: القصد الى ذلك، ثم ان القصر بالعطف يكون غالباً قصراً
 اضافياً قلباً - كما ذكر عبد القاهر - إلا اذا كان المعطوف الواقع
 بعدهما بلفظ العموم نحو جاء زيد لا غيره أو ما جاء زيد بل سواه، أو
 لكن سواه •

وفي العطف نص على المثبت والنفي جميعاً قال تعالى « ولا تحسبن
 الذين قتلوا في سبيل الله أمواتاً بل أحياء عند ربهم يرزقون » (٣١) ففيه
 نص على المنفي (أمواتاً) والمثبت (أحياء) في نسق واحد وليذا فإن
 أسلوب القصر يتميز بالأناة والمهل وبطء الايقاع واثارة التعقل الرزين
 تثبيتها للمعنى ونقشاً للصورة في القلب لأنه غالباً أمر خطير جليل كحياة
 الشهداء ورزقهم قال تعالى يعلم المؤمنون ألا يقولوا مثلما يقول
 المنافقون ان من يخرج الى الجهاد يقتل فاقدا حياته « ولا تقولوا لمن
 يقتل في سبيل الله أمواتاً بل أحياء ولكن لا تشعرون » (٣٢)

أما لكن العاطفة فلم ترد في القرآن الا مع الواو كقوله تعالى :
 « فانها لا تعمى الأبصار ولكن تعمى القلوب التي في الصدور » (٣٣)
 « وما ظلمهم الله ولكن أنفسهم يظلون » (٣٤) .

قالوا : الواو عاطفة لجملة على جملة اذ من أحكام الواو أنها
 لا تعطف مفردا على مفرد مخالف له في الحكم فلا يجوز زيد قائم
 وقاعد ، عالم وجاهل بخلاف الجمل فانها تعطف جملة على جملة تخالفها
 في الايجاب والسلب ، وقد رجح السهيلي أن تكون الواو هي العاطفة
 والواو زائدة لازمة وقيل غير لازمة وهو ضعيف اذ كيف يلجأ الى
 القول بلزيادة - مع أنه موطن خلاف - مع صحة القول على الأصالة
 وقد اشترطوا في لا العاطفة أن تكون بعد ايجاب وأن يكون الكلام
 قبلها يتضمن بمفهوم الخطاب نفى الفعل عما بعدها تقول : جاءني
 رجل لا امرأة ، ولا يقال مررت برجل لا زيد كما لا يبقى بها كلام
 قد نفى قبلها بغيرها من الأدوات الا اذا سبقتها واو العطف فتكون لتأكيد
 النفي عن الثاني (٣٥) واذا لم تجيء الواو لا تأت في كلام منفلي ولذا
 قالوا انه يمكن أن يجتمع العطف بلا مع طرق القصر ما عدا النفي
 والاستثناء فلا يقال ما جاء الا زيد لا خالد لأنه لم يرد عن العرب فهو
 خاضع للصحة اللغوية وقد جاء في العصور الماضية التي لا يحتج
 بأساليبها كقول لحنزيرى :
 لعمرك ما الانسان الا ابن يومه اعلى ما ثجلى يومه لا ابن أمسه

فإذا جاء في مؤلفات العلماء للتأكيد والتوضيح جملة - لا - على
 عطف الجمل كقولهم ما هي الاشهوات لا غير ، وما هي الارمسية

(٣٣) الحج ٤٦ (٣٤) آل عمران ١١٧

(٣٥) راجع نتائج الفكر ٢٥٧ - ٥٩ ومغنى اللبيب لابن هشام ١/٢٩٣

لا غير (٣٦) ، وللامام بهاء الدين السبكي رأى نافذ هنا فهو يرى أن العطف لا يفيد القصر الذي يكون بسلب جميع الصفات غير المثبت والعطف بلا لا تعرض فيه لنفى صفة ثالثة ، أما العطف ببل ولكن فابعد من ذلك لعدم استمرار النفى أو الاثبات بها (٣٧) وهو رأى طيب ارتضاه بعض العلماء المعاصرين ويقويه أن فكرة عموم النفى ثم الاخراج وهو المرتكز الأصلي في القصر في النفى والاستثناء وانما والتقديم غير موحودة في العطف ، ومحاولة حمله على النفى والاستثناء في ذلك تمحل وتكلف بل هو اثبات فنفي في لا أو نفي ثم اثبات في بل ولكن ثم ان افتراض الجهل أو الانكار في مقامات العطف دائما أمر خارج عن دلالة السياقات •

الطريق الرابع : التقديم

وهو أوسع الطرق انتشارا وثنوعا في القرآن الكريم لتعدد مناحيه وكثرة غنونه وألوانه فقد كثر في أساليب الاثبات والنفى والاستفهام كما تعلق بالمسند اليه والمسند والمتعلقات تلاؤما معجزا مع المقامات وما تصوره من معانى عقلية أو وجدانية ولهذا وغيره آثرناه ببحث مستقل نشر منذ سنوات •

والحمد لله الذى بنعمته تتم الصالحات

وصلى الله وسلم وبارك على محمد
النبي الأمي وعلى آله وصحبه ومن هدى

مكة المكرمة : ٣ من شهر رجب الاصح ١٤٠٦ هـ

(٣٦) راجع: المنجد للامامى ٣/٧٥ والمطول ٢٩٥ •
(٣٧) راجع : عروس الأفراح للامام بهاء الدين السبكي ١٨٧/٢ •

مراجع البحث

- ١ - الأبهاج في شرح المنهاج للإمام علي بن عبد الكافي السبكي
- ٢ - الاتقان . اسيوطي .
- ٣ - أثر النحاة في البحث البلاغي : د. عبد القادر حسين .
- ٤ - الاستغناء في أحكام الاستثناء : شهاب الدين القرافي .
- ٥ - أسرار البلاغة : عبد القاهر الجرجاني .
- ٦ - أسرار ترتيب القرآن :
- ٧ - أسرار التكرار : الكرمانى .
- ٨ - أساس البلاغة : الزمخشري .
- ٩ - الأسس الجمالية د. عز الدين اسماعيل .
- ١٠ - أسس النقد الأدبي د. أحمد بدوي .
- ١١ - الأسلوب : الشايب .
- أساليب الاستفهام في القرآن الأستاذ عبد العليم فودة .
- ١٢ - الأطول : العصام .
- ١٣ - الأعجاز البلاغي : د. محمد أبو موسى .
- ١٤ - الأعجاز البياني د. بنت الشاطيء .
- ١٥ - الأعجاز في دراسات المنابعين : الامتياز عبد الكريم النقطيب
- ١٦ - أعجاز القرآن : للباقلاني .
- ١٧ - أعجاز القرآن : الرافعي .
- ١٨ - الأقصى القريب : التتوخي .
- ١٩ - الأمالى الشجرية : ابن الشجري .
- ٢٠ - أمالى المرتضى .
- ٢١ - أمين الخولى في مناهج تجديده : د. كامل سمعان .

- ٢٢ - أنوار الربيع : ابن معصوم المدني •
- ٢٣ - الأيضاح / القزويني •
- ٢٤ - الأيمان / ابن تيمية •
- ٢٥ - البحر المحيط / أبو حيان •
- ٢٦ - بدائع الفوائد / ابن قيم الجوزية •
- ٢٧ - البديع / ابن المعتز •
- ٢٨ - بديع القرآن : ابن أبي الأصبع •
- ٢٩ - البرهان : الزركشي •
- ٣٠ - بصائر ذوي التمييز / الفيروزبادي •
- ٣١ - البلاغة تطور وتاريخ : د. شوقي ضيف •
- ٣٢ - بلاغة العطف في القرآن : د. عفت القرهاوي •
- ٣٣ - البلاغة انقرآنية : د. محمد أبو موسى •
- ٣٤ - البيان العربي : د. بدوي طبانة •
- ٣٥ - البيان والتبيين : الجاحظ •
- ٣٦ - تأويل مشكل القرآن : ابن قتيبة •
- ٣٧ - تحت راية القرآن : الرافعي •
- ٣٨ - تحفة الأريب : أبو حيان •
- ٣٩ - ترجيح أساليب القرآن : محمد بن المرتضى اليماني •
- ٤٠ - التصوير الفني - سيد قطب •
- ٤١ - تفسير أبي السعود : ارشاد العقل السليم •
- ٤٢ - تفسير الألوسي : روح المعاني •
- ٤٣ - تفسير البيضاوي بحاشية الشهاب •
- ٤٤ - تفسير الرازي : التفسير الكبير •
- ٤٥ - تفسير سورة النور : ابن تيمية •
- ٤٦ - تفسير سورة الفاتحة : محمد عبده •
- ٤٧ - تفسير الطبري جامع البيان •

- ٤٨ — تفسير غريب القرآن : ابن قتيبة •
- ٤٩ — التفسير القيم لابن القيم جمع حمد أنيس الندوى •
- ٥٠ — تفسير المكشاف : الزمخشري بحاشية السيد •
- ٥١ — تفسير النيسابورى : غرائب القرآن •
- ٥٢ — تقرير الامبايى •
- ٥٣ — جواهر البلاغة : الهاشمى •
- ٥٤ — جوهر الكنز لنجم الدين احمد بن الأثير •
- ٥٥ — حاشية اندسوقى •
- ٥٦ — حاشية السيد على المكشاف •
- ٥٧ — حاشية السيد على شرح الكافية •
- ٥٨ — حاشية الشهاب على البيضاوى •
- ٥٩ — حاشية عبد الحكيم •
- ٦٠ — الحيوان للجاحظ •
- ٦١ — درة التنزيل : الاسكافى •
- ٦٢ — درة العواص : الحريرى •
- ٦٣ — دفاع عن البلاغة : الزيات •
- ٦٤ — دقائق التفسير لابن تيمية جمع د • محمد السيد •
- ٦٥ — دلائل الاعجاز عبد القاهر •
- ٦٦ — دلالات الالفاظ د • ابراهيم انيس •
- ٦٧ — دلالات التراكيب د • محمد ابو موسى •
- ٦٨ — الرمز والرمزية د • محمد فتوح •
- ٦٩ — الرمزية فى الأدب : درويش الجندى •
- ٧٠ — لروض الأنف : أبو القاسم السهلى •
- ٧١ — سر الفصاحة : ابن سنان الخفاجى •
- ٧٢ — شرح المفصل لابن يعيش •

- ٧٣ - شرح الكافية للرضي .
 ٧٤ - الصناعتين للعسكري .
 ٧٥ - الصورة الفنية د. جابر عصفور .
 ٧٦ - ضياء الدين بن الأثير د. زغول سلام .
 ٧٧ - الطراز للنعلوى .
 ٧٨ - الظاهرة القرآنية : مالك بن نبي .
 ٧٩ - عبد القاهر الجرجاني : د. أحمد بدوي .
 ٨٠ - عباس العقاد ناقدا د. عبد الحي دياب .
 ٨١ - علوم البلاغة : المراغي .
 ٨٢ - العمدة : ابن رشيق .
 ٨٣ - عيار انشعر ابن طباطبا .
 ٨٤ - غريب القرآن : السجستاني .
 ٨٥ - الفن القصصي في القرآن د. محمد خلف الله .
 ٨٦ - في النقد الأدبي د. شوقي ضيف .
 ٨٧ - فوائد في مشكل القرآن : عز الدين بن عبد السلام .
 ٨٨ - قضية الاعجاز القرآني د. عبد العزيز عرفة .
 ٨٩ - قضايا النقد د. العثماوي .
 ٩٠ - القاموس المحيط .
 ٩١ - الكتاب سيبويه .
 ٩٢ - لسان العرب ابن منظور .
 ٩٣ - اللغة الشاعرة : العقاد .
 ٩٤ - المثل السائر لابن الأثير .
 ٩٥ - المحصول للرازي .
 ٩٦ - مدخل الى علم الأساوب : د. شكري عياد .
 ٩٧ - مدخل الى القرآن : د. محمد عبد الله دراز .
 ٩٨ - شاهد القيامة .

- ٩٩ — المطول سعد الدين التفتازانى •
- ١٠٠ — معترك الأقران : السيوطى •
- ١٠١ — معجم ألفاظ القرآن : مجمع اللغة العربية بالقاهرة •
- ١٠٢ — معجم المصطلحات البلاغية ط د • أحمد مطلوب •
- ١٠٣ — المعجم المفهرس احمد عبد الباقي •
- ١٠٤ — معجم مقاييس اللغة ابن فارس •
- ١٠٥ — معنى لا اله الا الله رسالة الزركشى •
- ١٠٦ — معانى الحروف لفرمانى •
- ١٠٧ — معنى اللبيب لابن هشام •
- ١٠٨ — مفتاح العاوم : السكاكى •
- ١٠٩ — مفردات الراغب •
- ١١٠ — من أسرار اللغة د • ابراهيم أنيس •
- ١١١ — من الاعجاز البلاغى د • صباح دراز •
- ١١٢ — من بلاغة القرآن د • أحمد بدوى •
- ١١٣ — منهج الزمخشري فى تفسير القرآن د • الجوينى •
- ١١٤ — من الوجوه النفسية د • محمد خلف الله •
- ١١٥ — النبأ العظيم د • محمد عبد الاله دراز •
- ١١٦ — نظم الدرر البقاعى •
- ١١٧ — نظرية اللغة فى النقد العربى د • عبد الحكيم راضى •
- ١١٨ — نقد النثر قدامة بن جعفر •

محتويات الكتاب

صفحة	
٣	المقدمة
٩	القصر والتوكيد
١٧	دلالة القصر
٢٠	القصر ومنابعه
٢٤	الصفة والموصوف
٢٧	علاقة الصفة بالموصوف
٣٩	الطرفان المتباينان
٥٥	الفعل زاد وأسلوب الاستثناء
٦١	القصر بين الحقيقي والاضافي
٧١	طول الطرفين
٧٥	القصر الاضافي
٧٦	موقفنا من قصر التعيين
٧٩	فكرة المخاطب
٨٥	قصر القلب
٩٣	بشرية الرسل عليهم الصلاة والسلام
١٠٦	الكفر صفات وجزاء
١١٥	قصر الافراد
١١٧	المنفي في أساليب الانذار
١٢٥	صفة البلاغ
١٣٣	طرق القصر
١٣٥	ضمير الفصل

صفحة

١٤٨	النفى والاستثناء
١٥٥	الاستفهام بمعنى النفي والآ
١٦٣	النفى الضمني والاستثناء
١٦٦	مقامات النفي والاستثناء
١٧٢	النفى والاستثناء والنظم
١٩٣	لا اله الا الله والايجاز
١٩٥	من قضايا النظم القرآني
١٩٥	الرزق
١٩٨	الغيب
٢٠٠	موقع المقصور عليه
٢٠٢	القصر على الحال
٢١٠	تقديم المقصور عليه
٢١١	انما
٢١١	الامام أبو حيان وانما
٢١٦	انما وأنواع القصر
٢١٧	الامام عبد القاهر وانما
٢١٨	مقام انما
٢٢٠	انما في الأمر الجلي
٢٣٥	انما في الأمر الخفي
٢٤٣	موازنات بين طرق القصر
٢٤٦	موقع المقصور عليه في انما
٢٥٦	مراجع البحث
٢٦١	محتويات الكتاب

رقم الايداع بدار الكتب ٨٦/٤٣٣١

مجلس إدارة
البنك الإسلامي
بمصر

السيد
مدير
مصر

السيد
مدير
مصر

السيد
مدير
مصر

السيد
مدير
مصر

السيد
مدير
مصر

السيد
مدير
مصر

السيد
مدير
مصر

السيد
مدير
مصر